نداء الروح
رحلة في عالم الفرسان
د. مريم آيت أحمد
دار النيل

نداء الروح

رحلة في عالم الفرسان

Copyright © 2013 Dar al-Nile
Copyright © 2013 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع :ISBN 978-975-315-535-9

DAR AL-NILE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،
مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

نداء الروح

رحلة في عالم الفرسان

د. مريم آيت أحمد

دار النيل

الأستاذة الدكتورة مريم آيت أحمد

أستاذة التعليم العالي في حوار الحضارات، وقضايا تجديد الفكر الإسلامي، وعلم اجتماع العالم الإسلامي..

رئيسة مركز إنماء للأبحاث والدراسات المستقبلية

رئيسة جمعية الأخوة المغربية الإندونيسية

عضو هيئة المستشارين لمجلة عجمان للدراسات والبحوث مجلة دورية محكمة الإمارات العربية

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

خبيرة منظمة الإيسسكو في استراتيجية تطوير التعليم والحوار بين الثقافات

شاركت في تقرير المعرفة العربي لعام ٢٠١٠-٢٠١١

ساهمت كخبيرة دولية في الحوار بين الثقافات والحضارات بالعديد من المقالات والإصدارات والأبحاث في مجلات علمية عربية ودولية محكمة

نظمت العديد من الندوات والمؤتمرات الدولية، والورشات التدريبية، وأشرفت على توقيع العديد من الشراكات الجامعية دوليا

من مؤلفاتها المنشورة

- جدلية الحوار.. قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر/دار النجاح/المغرب ٢٠١١
- العلاقة مع الآخر في ضوء الوسطية في الإسلام/سلسلة الفكر الوسطي/الأردن ٢٠٠٧
- المرأة المسلمة بين تحديات التمكين ومستقبل التنمية / دار السلام / القاهرة ٢٠١٣
- التنشئة الدينية ومستقبل جيل مجتمع المعرفة / دار السلام / القاهرة ٢٠١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

إهداء ١١

تقديم ١٣

العلاقة بين العلم والإرشاد ١٥

الفصل الأول:
خواطر رحلتي لإسطنبول

الرؤيا ليلة السفر ١٩

الرحيل إلى المركبة الروحانية ٢١

"باران" الغيث ومستشفى "سماء" الروح ٢٣

خواطر من ذكريات أحفاد طلحة رفيق درب الفاتح ٣٢

الفصل الثاني:
مشاتل أزهار المعرفة

لقاح محضن جُوشْكُن ٤٣

بساتين الفتح المعرفية ٤٧

في رحاب جامعة الفاتح ٥٢

الأصناف.. حفنة مجانين ٥٧

ازدحام الأفكار الملتهبة ٦٠
سلفة إيجار بيت طلاب تغرس بذور نبات المعرفة ٦٤

الفصل الثالث:
الطريق إلى العمرانية

الطريق إلى العمرانية ٦٩
باران نزل فيض الروح ٧٢
الحاج متولي على ضفتي البوسفور ٧٧
آه يا عم متولي ٨٠
نسائم عطر السائحين ٨٢
الأَبْلاَ متولي توأمة فاطمة الفهرية ٨٥

الفصل الرابع:
نساء الخدمة أطياف مائدة المحبة

أطياف مائدة المحبة ٩٣
ساحة فناء تضيء ليلة بشائر النور ٩٦
في مراكش الحمراء سيدتي ١٠٠
نور فاطمة.. ونور مهنّد ١٠٥
من نفحات ذاكرة أجدادي ١١٠
صفات ورثة الأرض ١١٢
إسطنبول تشتكي أحفاد طارق بن زياد ١١٤

الفصل الخامس:
عودة منافذ الروح

أجنحة وصال منافذ الروح ١١٩
نسيم القهوة ١٢٢
معطفي البرتقالي وسر أعياد الموسم ١٢٦
قلعة مدائن الهمّة وبوح القلم ١٢٨
رؤيا أختي زكية.. رسالة وصندوق.. قلم ومفتاح ١٣١
الزمر.. مقاولات هندسة الأفكار ١٤٢
وصية حكيم... زمن غياب الفعل ١٤٥
على مشارف تل العرايس ١٥٠
منافذ الخير شلالات.. تبحث عن جداول انسيابها ١٥٤
في رحاب حراء ١٥٧

الفصل السادس:
بيت عرس.. فتح الله

عرس شيخ العزاب ١٦٣
مراسيم زينة العروس "نداء الروح" ١٦٦
كبر أبناء الجيران ١٦٨
تغريدة طائر الفجر في حقول الكلمات ١٧٣
منكر في عُرف جيلنا... عرف في ثقافة غيرنا! ١٧٥
الأم... مدرسة في التربية ١٨٠

مدرسة الفتح التركية، ذكّرتني بمدرسة عبد السلام المغربية ١٨٣
أَبْلاَهات الخدمة أمهات بأسماء مختلفة ١٨٨
التربية، وأنين صوت الفيس بوك ١٩٠
باران... مرقد المشاعر الملتهبة ١٩٤

الفصل السابع:
واعرَبيتاه!..

جميلة فتيات تركيا، وصرخة "واعربيتاه" ٢٠٥
ماربيا السياحية.. ودرس الهوية ٢٠٩
لغة... ثلاثية الأبعاد ٢١٢
رب المشرقين ورب المغربين ٢١٦

الفصل الثامن:
فسحة في بساتين غيث الزمر

فسحة معرفية مع غيث الزمر ٢٢٣
طفل فلسطيني يغرق عيون "كيمسه يُوكْمُو" ٢٢٩
رومي واشنطن.. ومطعم دراويش نيويورك ٢٣٣
زمان الفعل والعطاء ٢٣٧
رؤية من وحي زماني الغابر ٢٤٠
عشاء بنسيم لطائف سحر الزمان ٢٤٥
نفحات من حدائق هبات إلهية ٢٥٠

الفصل التاسع:
إكسير وإرديم... توليب إسطنبول

إكسير أَبْلاَ.. عروسة نساء الخدمة ٢٥٩
ترى ما السبب؟! ٢٦٥
إدريم هانم عروسة حدائق زهور اليتامى ٢٧٨
زمن ابتهاج أعياد النساك ٢٩١

إهداء

هذه الخواطر أهديها،
لأحبتي من أبناء الجيل الجديد..
عسى أن تمتلئ عقولنا بالفكر،
وتلتهب أرواحنا إيمانا بعشق البحث لبناء عالمنا،
فنتشبع بنشوة القيم الروحانية ومعانيها،
نضع يدًا بيد ونتكلم بقلمنا لنُسمع النجومَ ما يدور في صدورنا،
فنحتضن الوجود كله بقلب واسع يفنى من أجل إسعاد الآخرين...

محبتكم مريم آيت أحمد

تقديم

هذه السطور أقدمها بين يدي القراء.. وهي خواطر، عشت تفاصيلها من وحي رحلة إسطنبولية نورانية مع أهل الخدمات الإيمانية.. خواطر انتقلت بروحي من أرض تطوان لتلتف بمعاني "السفر في الإنسان" قبل "السفر في الزمان والمكان"، الإنسان الذي يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره، ويعرف كيف يروّض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة. يسبق عصره، فيسير أمام التاريخ قدُما على الدوام بهمّة تتجاوز حدود إرادته، وشوق عارم وحب عميق واعتماد بالله عظيم.. خواطر سافرت بي في عمق الإنسان الذي يغوص كل يوم داخل أعماق أعماق ذاته، ويطلق شراعه على الفضاء الشاسع دوما فينصب رايته على أبراج جديدة كل حين.. يصرّ بعزم طرق الأبواب المكنونة وفتحها في الآفاق والأنفُس، وكلما بلغ بفضل إيمانه وعرفانه إلى أسرارِ الكون ازداد شوقا ورغبة، وظل يتنقل بخِبائه من بلد إلى بلد، ليستنشق نسيم أعياد محبة الإنسان.

خواطر رحلتي لإسطنبول عرفتني بشكل أوضح وأعمق جمال الإيمان الذي يحرك شوق التقرب إلى الله بالفناء في خدمة الإنسان، ومخاض الليل الذي يحمل جنين نور النهار، وآلام برد الشتاء الذي يحمل ثلجه

نطفة جنين الربيع.. فبنور المحبة صارع الأستاذ فتح الله كولن الظلامَ ليصل إلى عمقه الحقيقي، وبجمال العناية أظهر أفضل ما عنده في مقابل ما يحيط به من قبح...

كل هذه الخواطر حولتها إلى مكتوب بدأت بتدوينه على شكل رسالة فور عودتي من إسطنبول إلى الرباط بالمغرب الأقصى بداية يناير ٢٠١١ وأنهيتها في ليلة ٢٦ رمضان ١٤٣٤ هـ الموافق لـ ١٥ أغسطس ٢٠١٢ بتطوان في بيت جدي المجاهد طلحة الدريج الأنصاري.

شاكرة ومقدرة عناية نوزاد صواش، والأستاذ مصطفى أزوجان، وجمال الترك، وكل أبناء أهل الخدمة الإيمانية الذين وفّروا لي برقي أخلاقهم، بكلماتهم الرقيقة ومشاعرهم الساحرة، أجواء سياحة روحانية، فتحت لي صفحات من صحبة العيش مع جميع أمم الأرض.

مريم آيت أحمد

تطوان: ٢٦ رمضان ١٤٣٣ه

٢٦ أغسطس ٢٠١٢م

العلاقة بين العلم والإرشاد

"العلم في عالم الوجود كله محراب سيدنا آدم عليه السلام.. وهو يتجسم ليصبح سفينة سيدنا نوح عليه السلام، ويصبح سيدنا نوح عليه السلام في السفينة.. وهو في سيدنا إبراهيم عليه السلام وديان جارية بمسيل الوحي الإلهي.. وهو يتجسم ليصبح الطور في سيدنا موسى عليه السلام، أو يصبح سيدنا موسى في الطور.. لذا فما يُرى في الكائنات قالب، واللب هو العلم.

ما العلم؟ العلم هو معرفة الإنسان لربّه جل جلاله بعد معرفة نفسه، أو رؤية الإنسان لربه جل جلاله بجعل نفسه مرصادًا لمشاهدة "الصفات" و"الأسماء" الإلهية، بما يكتشفه في مشاعره، وسعيه للوصول إلى معرفة ربه جل جلاله والعلم به. فهذا هو العلم الحقيقي، كما عبّر عنه الشاعر يونس أمرة ضاربًا في صميم العلم:

العلم هو أن تعرف،
أن تعرف نفسك،
فإن لم تعرفها،
فالعفاء على ما قرأت..."

طرق الإرشاد في الفكر والحياة

محمد فتح الله كولن

الفصل الأول:

خواطر رحلتي لإسطنبول

الرؤيا ليلة السفر

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا حين دق جرس منبهي برنته التي تعودت عليها منذ سنوات. كانت يداي المرتخيتان تبحثان عن المنبّه لإسكاته، ليس رغبة في العودة للنوم، وإنما هو شعور بعدم إشباع في النوم، بعد سهر طويل لترتيب الحقيبة، ومستلزماتِ عُدّة السفر. جسدي مستعد، ويبدي رغبة في النهوض، ولكن روحي كانت تقاوم حيوية الجسد، وتحاول إبقاءها في برزخ عالم الأرواح، تخاطب من التقت بهم لساعات بلغة لا تعرفها، لكنها استطاعت فهم معانيها واستيعابها جيدا.

نعم كان المنبه يهتز يمينا ويسارا على مائدة طاولتي، بينما كنت أتجول في عالم لا أعرفه، ومع أناس فضلاء كرماء، سألوني عن اسمي بلغة مُرَكَّبَة فأجبت: "مريم".. سألوني عن أصلي ونسبي؟ فأجبت "بنت آيت أحمد"، حفيدة المجاهد الأنصاري طلحة الدريج ابن الصحابي الجليل عبادة بن الصامت.

كان الجو دافئا مع غيوم بيضاء توحي باحتمال سقوط زخات ثلجية، وفي هيبة المكان، كنت أتساءل وأنا أرفع عيني إلى هذا التمازج الذي يعبر عن سر رباني كبير، استشعرتُه من خلال حضور من كانوا يملأون فضاء تلك الجلسة الربانية. كان سر الجلسة في صمت أصحابها، إلا ما استثني من سماع تسبيح لفظ الجلالة، الله.. الله.. الله...

كنت أحدق في عيون من جمعني القدر بهم في حيرة، عساني أتعرف إلى أحد منهم. ألمح بحياء وجوهًا ملأت بأنوارها عنان السماء الصافية، الملونة بغيوم بيضاء تزداد اتساعا وامتدادا كلما ازداد ذكر لفظ الجلالة الله.. الله.. الله.. الله...

نعم أنا هناك معهم، ولكن أين أنا؟!. أين ذاك الهناك؟!. أهو في الأرض أم في السماء؟ من هؤلاء، ومن أتى بي عندهم؟ أهو القدر أراد أن يجمعني بهم في الرؤية ليلة سفري إلى إسطنبول؟!..

الساعة تشير إلى السابعة والربع، بدأتُ أحاول التسحب بلطف من تحت لحافي الدافئ. فأنا بين حالة وجدانية روحية عميقة عشت تفاصيل مشاعرها في منامي، وبين موعد مع رحلة إسطنبول التي ستقلع ظهرا من مطار الدار البيضاء. إسطنبول التي رسمت في مذكرات طفولتي ومن حكي جدي سيدي طلحة صورة البطل الفارس المقدام محمد الفاتح، والأيوبي والنورسي.. بلد العلم والكرم والمدارس والتكايا.. بلد الجمال والطبيعة الخلابة بشقيها الأروآسيوي..

الرحيل إلى المركبة الروحانية

نزلت مسرعة من باب إقامة الرشيد، محل بدء رحلتي متوجهة لمحطة قطار سلا، حيث موعد اللقاء مع قطار التاسعة صباحا نحو مطار محمد الخامس، ومن النافذة كنت أراقب بحذر رفيقة رحلتي التي كانت متوجهة أيضا إلى تركيا، حيث كان ترتيب القدر يسوقنا من نقطة اللقاء الأول محطة أكدال إلى مطار البيضاء، متوجها بنا من على متن طائرة حديدية الصنع إلى فضاء مركبات نورانية إيمانية، صنعت كراسيها بأياد ارتوت بلغة التسبيح والذكر، وزين ثوب كراسيها بخيوط حريرية رفيعة تفانى من نسجوها في إبداع هندسة رسوماتها، فاكتملت براعة الناسج والصانع والحرفي.

نعم إنها مركبة ربانية، تعب صانعها على اختيار جودة مواد تصنيعها، فهي مواد خام طبيعية، انبعثت من معدن باطني، له خصوصية التفرد والتميز، وخدمة الإنسان محور الكون في الحياة.

بدأت عقارب الساعة تتجه نحو موعد إقلاع المركبة الحديدية، بينما علا نداء المركبة الروحانية يرحب بنا، بدقائق معدودة قبل الإقلاع على متن الخط الرباني الذي سيقلنا نحو أفق العرفان والوجدان.

إنه نداء الربان زياد يخاطبنا بصوت روحاني حيي قائلا: "مرحبا بكم على خطوطنا التركية النورانية، حيث سنوفر لكم أرقى خدمات فتحية

ربانية".

وكعادة أبناء العلماء والفضلاء الأحرار في الترحاب بأهل العلم، يتقدم ربان المركبة النورانية وينزل من غرفة قيادته، ليقدم أرقى مشاعر المودة باستقباله في قاعة الوصول، ضيفتان شرفهما القدر بأن ينعما بالإقلاع الثاني في رحلة إيمانية تحت قيادته. وشتان بين المركبتين، مركبة الصنع الحديدي للخطوط التركية التي كنا نحاول النوم على متنها، تفاديا لملل طول المسافة، ومركبة الخطوط التركية ذات التميز بخدمات الفتوحات النورانية.

لم يطلب منا مساعد الربان، ربط أحزمة الأمان، وهو يحرك مقود مركبته نحو اتجاه منطقة العمرانية، فسألت عن السبب؟.. ترى أيخْتلف نظام طيران الفتح عن كافة أنظمة وبرامج التحليق والطيران العالمية؟! أهو نظام يحتكم لسند قانون متصل المدد، بطريقة دعاء الجوشن الكبير "الأمان الأمان الأمان.. الأمان الأمان الأمان..؟"، أم أن أيادي الربان زياد، ستسلمنا بأمان الأمان، إلى مدخل مطار الفتح بالمنطقة الآسيوية، حيث مدخل قاعة كبار الزوار من أهل المدد الروحاني.؟!

"باران" الغيث ومستشفى "سماء" الروح

إنه اللقاء الأول في إقامة باران الغيث.. باران المعنى، من صاحب المعنى.. باران العطاء بلا حد.. باران القائدة فاطمة نور، نور على نور.. وألف سلام لمن أشاع بنور شمعته الباهتة، من "إِزْمِير"، أنوارا كونية تشعّ بنورانيتها فضاء العالمين.. وسبحان مَن سخر لنا هذا وما كنا له مقْرنين.

هنيئا للرحم الذي خرجت منه فاطمة، وهنيئا للمربي "فتح الله" الذي حباه المولى ﷻ، ببنوة آلاف من الأبناء والبنات، وفّاهم حقهم، ورعاهم بأجود رعاية، وكفلهم بأحسن تربية، فقدمهم لخدمة الإنسان، بأرقى درجات التميز والكفاءات والتواضع.

فاطمة.. وما أدراك ما فاطمة؟! إنها روح تسري رغم أنف كل متجبر لتبحر في أعماق نفسه.. إنها الجود والغيث.. إنها الإيمان والتربية، الإخلاص والتفاني، المحبة والرحمة...

يا سلام.. ترى أي أرض هذه أقلنا فيها ربان السفينة النورانية؟ أنحن ما زلنا على سطح الأرض، أم ارتقى بنا إلى عالم برزخ الأولياء؟

منذ اللحظة الأولى، أحسست وأنا أحيي طالبات اليُورْتْ "النزل" وهن يحضنني بلهفة لقاء المحب لحبيبه أن غرفة إقامتنا بالطابق الخامس في باران تحمل أسرارا اجتمع ثقل معانيها، ليضغط على كتفي، ويحرك مشاعري، نحو مَن جمعني بهم القدر في منام ليلة سفري لإسطنبول..

والتقيت ببعضهن رأْي العين في غرفة الطابق الخامس.. ارتبكت قليلا دون أن أبين ملامح تغير أحوالي، وفي محاولة مني لرفع ثقل الضغط النفسي الذي أصاب جسدي، كانت فاطمة ترتّب مائدة العشاء التركي مع طالبات من أرق وأجمل ما رأت عيني على الإطلاق.

بدأ ترتيب برنامج رحلة نداء فتح منافذ الروح يوم ٢٢ ديسمبر٢٠١٠ على الساعة التاسعة صباحا حيث رتب لنا ربان الرحلة وقائدها زياد أبي[١] لقاء في مستشفى سما. وأنا أجهز نفسي للموعد، كنت أتساءل عن سر هذا اللقاء، "لم المستشفى؟ وما علاقة زيارتنا بمدير مستشفى؟"..

لم أكن أعلم أن الجواب سيكون في عيادة مع طبيب ماهر، سيخصص لنا أول جلسة علاجية، تبدأ بتشخيص أمراض القلوب التي كنا نحملها معنا، لتنتهي بوصف العلاج المناسب، تكفّل ربانُ مركبتنا بشرائه لنا من صيدليات إسطنبول، وتقديمه لنا بجرعات محددة، في أوقات معينة..!

كانت أمّ سداد برفقة الملاك الطاهر جمال، تحلق بروحها الراقية، كحمامة سلام بيضاء في فضاء "سما"... ترتقي بسموّ أميرات زمان العهد النوراني بمدخل سما.. وقبل وصولي لطابق عيادة الأستاذ مصطفى، بدأ قلبي يخفق بعدما أخبرني زياد، بأن هذا المستشفى، كان محطة راحة أبدية لعلماء وصانعي مجد الأمة.. فقرأ حدسي، وأجاب عن سؤالي، قبل الوصول إلى مقر موعد اللقاء.

نعم لقد عشت في هذا المستشفى، وارتويت بتفاصيل مشاعر عميقة،

---

[١] كلمة "أبي" في اللغة التركية تعني "الأخ الكبير".. وتستخدم في الخطاب للتعبير عن الاحترام والتبجيل.

عبّر عنها من سطّر تاريخَ مجد "عودة فرسانِ"[٢] العزةِ والفتح النوراني، العلاّمة "فريد الأنصاري" رحمة الله عليه.

ترى يا مريم، أيسوقك القدر لحضور مراسيم مقامات شهود المدد الإلهي المتصل مباشرة بالعلماء ورثة الأنبياء؟!.

كان المدخل عبارة عن حديقة، امتزجت تصاميم هندسة غرس أشجارها، ونبات زهورها بفنية بالغة، انطبعت بمرتفع زجاجي، يطل على باقة من النباتات الخضراء، ذكرتني بمرتفعات جبال كنتن الخلابة بماليزيا.. تجولت بعيني، يمينا وشمالا، لأرى أغصان الأشجار تنمو وتترعرع في جنبات جدار على شكل لوحات فنية راقية رسمها فنانون أتراك نحتوا فيها سر حرفة وصنعة الأجداد، فأرّخوا بها إبداعات شموخ ريشة الفن العثماني التشكيلي الذي ملأ أجزاء ومقاطع من مساجد وقبب ومداخل المتاحف الأثرية العثمانية.. وأنا ألتقط صورا أحتفظ بها فخرا بهذا المستشفى الرائد، في الجمع بين استقطاب كفاءات طبية عالية، وتجهيزات رفيعة المستوى، وبين قيم احترام الفن الحضاري الإنساني، بالارتقاء بمشاعر المرضى الروحية، وضمان راحتهم النفسية قبل الجسدية.. كنت أسأل نفسي في صمت، عن سر هذا الاعتناء الغير عادي، بالأمن الروحي والجسدي للمريض..

فسبحان من يسر الأيادي الناعمة، لصقل مواهب مريدي مشايخ الفن الحرفي.. وسبحان من ألهم صاحب الذوق والفن والجمال، إيحاء جعل

---

[٢] كتاب "عودة الفرسان" هو رواية من تأليف الدكتور المرحوم فريد الأنصاري. كتبها في مستشفى سماء في إسطنبول، وكانت آخر أعماله قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى. صدر الكتاب عن دار النيل للطباعة والنشر.

فضاءات عباد الرحمن خضراء، تنطق بلغة تسبيح من أحياها.!

وأنا في طريقي نحو مكتب الأستاذ المعالج لصدإ الروح، وقفت بإكبار أمام غرفة لا أعرف لماذا أحسست بأن شيئًا يجذبني نحوها؟!

تسللت في فضول، لأرى ترتيب الغرفة، وأتمعن في إطلالتها الجميلة على البوسفور.. سمعت صوت زياد يقول "سبحان الله.. كنت تعلمين مريم أنها غرفة المرحوم فريد الأنصاري..!"[٣].

الحقيقة أنني لم أكن أعلم.. ولكن أحسست برغبة ملحة في الوقوف عند باب هذه الغرفة، وفي صمت رهيب، خيم على روحي، استحضرت سيرة هذا العالم المغربي الجليل، فهمست بتلاوة سورة الفاتحة ترحما على روحه الطيبة، سائلة من المولى جمع كل أهل المحبة في جنة النعيم، على سرر متقابلين.

"أمّ سداد" لم تعرف سر سكوني وجمودي، في زاوية تلك الغرفة، فدخلت مهرولة تحاول كسر صمتي، أخرجتني بلطف وهي تمسك يدي وتشير إلى عمود ضخم يمر عبر ممرات المستشفى، تبتسم وتشير إلى سقف الممر "تعرفين ما هذا مريم؟".. لم أبد أي تجاوب. وكأن روح هذه السيدة الفاضلة، أحست باضطراب أحوالي، فلم تحرجني بانتظار الجواب، بدأت تشرح لي تفاصيل هذا العمود السحري العجيب، الذي يحمل قنينات دم التحاليل الطبية للمرضى، ينقلها من عنبر إلى عنبر، بفعل ذبذبات مغناطيسية كهربائية.

مازال ثقل لحظة استحضار مقامات هذا الرجل العظيم -ألف

---

[٣] فريد الأنصاري من علماء المغرب، توفي سنة ٢٠٠٨م، وقد عُولج في مستشفى سماء.

رحمة ونور عليه- تثقل كتفي، وتستوحي لحظات حرقة فراقه... منارة أضاءت سماء علماء المغرب... وفي عزم شديد، استرجعت مشاعري، التي انساقت مع محبة خالصة أكنتها لهذا العالم الجليل، الذي أجمع المغاربة قبل الأتراك على حبّه، فحركت رأسي معبرة عن إعجابي: "حقا يا أم سداد، إنها تقنيات عالية المهارة. لم أرها من قبل حتى في أحسن مستشفيات لندن".

كان اللقاء مع الأستاذ مصطفى، مدير مستشفى سما، ينطق بروح المكان، ويوحي بهيبة جلال أسرار تحمل الأمانة. لا أعرف لم انتابني شعور، وأنا أتحدث على مائدة الفطور معه، بأنه الدينامو والطاقة المحركة، لخلايا النحل التي تجوب بساتين وحقول العالم، بحثا عن إنتاج أجود العسل لعلاج مرضى هذا المستشفى.

الأستاذ مصطفى، يحمل أسرارا، لم أتوصل إلى اكتشافها بعقلي. لكن عيونه المشعة ذكاء وبريقا، كانت تتكلم بلغة السر، والكرامات التي لا يصل مددها، إلا للعارفين.

كنت أواصل الحديث تباعا، عن مواضيع فكرية، وهموم معرفية، يعيشها كل من يحمل الرسالة، للارتقاء بكرامة الإنسان. تحدثت عن أسباب اللقاح الثقافي، وأنا أحاول عدم الإثقال على المترجم زياد، فأختصر المسافات، وأركز على أساسيات الجوهر.. أتابع حديثي: "المنتج الثقافي سيدي، ونحن على مشارف جسر البوسفور، رمز التواصل بين حضارتين آسيوية وأوربية، يعبر أربع وسائط لتحقيق التواصل الحضاري بين الجماعات البشرية وهي: ١-التجارة، ٢-الحرب، ٣-الحمل، ٤-التعرض والتعريض. مفهوما التجارة والحرب واضحان بلا شك".

يرد عليّ الأستاذ مصطفى: "أَوَتْ، أَوَتْ، واضح جدا".

أتابع: "أمَّا مفهوم الحمل سيدي، فالمقصود به هو تحرَّك الأفراد بين الكيانات الحضارية، حاملين معهم بعض منتجات حضارتهم (المادية والمعنوية) إلى حيث يقصدون.. ومن ثم يعودون من المناطق الحضارية التي زاروها، وقد جلبوا معهم منتجات طريفة يقدمونها إلى مجتمعاتهم؛ بينما يشير مفهوم التعرض والتعريض، إلى فئة واسعة من نشاط أجهزة الإعلام في الدولة الحديثة، وكذلك المعارض، والمؤتمرات، والمهرجانات، وزيارات الفرق الفنية، والعلماء والأكاديميين، وأنشطة الترجمة بجميع أشكالها ومستوياتها".

الأستاذ مصطفى: "نلاحظ من تعريف التواصل حسب ما ذكرت أستاذة مريم، أنه ينطوي على توافر عناصر التبادل بين الأطراف المعنية، وإن كان هذا، لا ينطبق على مفهوم الحرب للوهلة الأولى، ولكن في الأغلب ينتهي الأمر بها (أي الحرب) إلى تبادل الأخذ والعطاء، بين الغالب والمغلوب".

أجيب: "أكيد سيد مصطفى.. إذا نظرنا إلى مفهوم التواصل، بعين الرضا، فإن هذا لا يعني أننا نقبل بجميع الوسائط، التي يتمُّ بها هذا التواصل، بل يجب علينا الاستفادة من الجوانب الخيّرة فيه، وترك الجوانب السيِّئة، وهنا تبرز عقلانيّة المتلقّي، في اختيار ما يُعرض عليه من منتجات الحضارات الأخرى.. فيميز ما يناسب ظروف حضارته وإمكانيات تطلعاتها المستقبلية، بعيدًا عن انفعالاته العاطفيّة غير المدروسة، واتّخاذ المواقف المتسرّعة والأحكام الجاهزة، ورفض كل ما هو جديد، دون أن يكلف نفسه عناء البحث والاطلاع والدراسة".

كنت أحاور الأستاذ مصطفى، وكلما نظرت في بريق عينيه الذي يشع

ذكاء، كلما قوي صوت الهاتف الروحي.

وبلغة همس داخلي، كان يقطع عليّ تسلسل أفكاري، ليخبرني بأن من أقابله، تحمّل مع مهندس البناء المعرفي والعملي للخدمة عبءَ أمانة، ثقل حملُها على جبال شامخة... مما كان يوثق لديّ صلة الربط الروحي، بسر الكرامات الذي استشعرته فور اللقاء المباشر بهذه الشخصية المتميزة. إنه سر المعنى الذي لا فهم له، بل هو معنى المعنى الذي لا صفة له.

وبينما كانت روحي تسحبني نحو ثقل فهم معاني أسرار المعاني، كان عقلي يتدارك ويشدني نحو قراءة التفكير العقلاني الممنهج، لشخصية فقيه الأولويات، في علم المواقف، وحسن التدبير والموازنات.

نعم كان كرم الهدايا الرمزية المعنى مسبوقا بكرم معنى الرمزية في الجود الأخلاقي والعناية الإنسانية، وهي عناية رفيعة المستوى، مصممة بأرقى وأثمن جواهر العفة، والتواضع، والمحبة لأهل العلم والفكر.. فازدادت قيمة أحجارها الكريمة في نفسي.

أخذنا الحوارُ الممتد نحو عوالم سوق المنافسة الحضارية، وأخذنا الاستمتاع براحة هدوء المكان، رفقة ضيوف آخرين، جمعتنا بهم مائدة فطور، الأستاذ مصطفى.

كنت أراقب دخول وخروج المسؤول الإداري عدة مرات للمكتب.. ينسحب ثم يعود مرة أخرى، وكأنه هُدهد يسعى لإخبار السيد بأمر هام.. لم يخب حدسي.. أخيرا جمع المسؤول أنفاسه، وقدم في خطى ثابتة نحو صاحب الضيافة، فألقى في أذنه همسا خفيفا. ترى ما سر ارتباكه؟ وما سر ذاك الهمس الخفيف الذي لا يكاد يسمع؟! طبعا بالنسبة لي حتى لو لم يكن خفيفا، يستحيل أن أفهم معناه دون ترجمة. ردّ الأستاذ مصطفى

بكلمات مختصرة جدا، فهمت منها كلمة "ممكن"..

خرج المسؤول مسرعا، عاد بكاميرا، يلتقط لنا بها صورا. صاحب الضيافة مستمتعا بالزيارة، يسلمنا بانشراح هدايا ودّية أخوية، تعبر عن رمزية ميثاق عهد المحبة. وأنا ألتقط صورا تذكارية مع فريق عمل هذا المستشفى الضخم أخبرني الأستاذ زياد، قائلا: "أتدرين من كان على موعد مع الأستاذ مصطفى، ونحن في مكتبه؟". قلت: "طبعا لا أدري، ومن أين لي أن أعرف؟"..

زياد: "إن المسؤول حين همس في أذن الأستاذ مصطفى، كان يخبره، في تلك اللحظة عن وصول موكب رئيس دولة، في زيارة محبة وأخوة لمكتبه، وأن البروتوكول على الباب يحتاج القيام بمسؤولياته الأمنية في مكتب الاستقبال".

أسأل بفضول لم أعهده في نفسي: "طيب، وماذا كان رده؟!".

زياد: "أتدرين ما كان جوابه أستاذة مريم؟ قال له: أجّل الموعد إلى ما بعد عشر دقائق أخرى، لأنني في حضرة أهل العلم والمعرفة. والعلماء ورثة الأنبياء، هكذا علمنا ديننا، وهكذا تربّينا على يد العلامة فتح الله الذي عشق العلم وأهله".

الآن فقط، سمعت رمزية لحن عزف المزهرية العثمانية الأصيلة، هدية الأستاذ مصطفى، وهي تنشد أنشودة قصة لحن عودة الروح، لتتناغم ومراسيم الاحتفال بعرس زفة العالم، حين تكرمه وتقدره السلطة.

إن المجد لله، والعزة لله، والنصر من الله، والفتح من الله، والرحمة صفة الله، والتواضع صفة أولياء الله.

هذا ما نطق به قلبي قبل لساني وأنا أودع أبرع طبيب في جلسة

استشفائية بالطابق العلوي من مستشفى سما الروح، حيث تم استئصال جزء كبير من أمراض، ورم غفلة قلبي وصدأ روحي.

كانت أم سداد تعانقني، وهي مثقلة من جهة، بالإصرار على حمل هديتي، ومن جهة أخرى بالتفاني في خدمة أهل الله صحبة الزوج، الذي أكرمها الله به، وأكرمنا بصحبته.. زوج ينحدر من سلالة، جذورها ثابتة، وأصولها متفرعة، ومتصلة بالنسب الممتد، نحو غصون شجرة الفتح الرباني.

كان ربان مركبتنا النورانية، يخبر سائق الرحلة بموعد اللقاء الثاني، حيث تبدأ مهام تحديد جرعات وصفة الدواء اللازم، لتفاعل خلايا محركات أدمغتنا، وأنزيمات دم قلوبنا.

خواطر من ذكريات أحفاد طلحة رفيق درب الفاتح

عندما ينسج الطفل خيال ثياب مذكراته الطفولية، ويحيك بها وشاحًا من اللؤلؤ الأبيض، يبقى هنالك خيط مشع يلتصق بثنايا الروح، لعله الخيط الذي يربطني ببيت جدي.. البيت الذي تعانقت فيه أرواح وأجساد المحبين، بما غمرها من نشوة عشق الوصال، في مدارج السالكين.

كانت صبيحة عيد فطر، وهو العيد الذي نجتمع فيه في بيت جدي، حيث فضاء الغرف الممتدة الواسعة، والمزينة بمفارش متحفية، مزركشة بألوان فضّية، وأثاث ينطق بلقاء وتمازج الحضارات.. مزهرية سورية.. زربية تركية.. مفارش لبنانية.. ومرايا ولوحات من كل البلدان التي كان يجوبها جدي، ترحالا وعناقا روحيا...

جدي سيدي طلحة، المتصوف المحب لأهل الذكر، والزهد والورع، حفيد العالم المجاهد طلحة الدريج الأنصاري، جيش آلاف الجنود لغزو البرتغال، والدفاع عن حصن الإسلام بمنطقة سبتة ما بين ١٤٢٦ و ١٤٢٩م.

كنت أعشق اللعب بجوار النافورة، المنحوتة بفسيفساء أزرق، ممزوج طينه بصفار فاقع لونه، تظهر أشعة الشمس، بنسيج خطوطها الممتدة نحو الماء، تحيط بها نباتات وأشجار صغيرة من كل الزوايا، تعانقها الأزهار برائحة الفل والورد والياسمين، تسحرني بهدوء بركتها التي كنت أراها

نهرا ممتدا.. أمرح، وألعب، وأسبح داخلها، كأنها لؤلؤة زمردية، تزين طوق فناء البيت. عند الشروق، كانت تغمرها أشعة الشمس، لتشرق معها آمال جديدة. وعند الغروب، كانت الشمس تودعها، وتودع من يحيط بها من نساء البيت، وهي تبتسم لي ابتسامة، تتلاشى شيئا فشيئا، من وراء ستائر الغيوم، على أمل اللقاء في اليوم القادم.

* * *

غرفة جدي كان فيها سر سحري، يلحق بمن يقترب منها، فيطير بمشاعره على أجنحة بساط سحري، لحن صوته تعانقه رنة الإخلاص.. الحب، الثقة، رشفة الذكر بمسبحته الكستائية، تحرك فيوضات روحه، فتنهمر الدموع، كما تتهاطل الأمطار مع غيوم سوداء.

كنت أسأل مرارا أمي عن سر بكاء جدي؟ فتجيبني "جدّك -بنيتي مريم- تسكن روحه محبة الجهاد والمجاهدة، الجهادُ بنيتي ورثه من أسرة أجدادك، من بني الدراج الذين استقروا بغرناطة، ومنها نزحوا إلى مدينة سبتة في بداية القرن السابع الهجري، حيث نصب جدك، العلامة أبو عبد الله الدراج، خطيبا وقاضيا لسبتة ٦٩٣ هـ، وقد كان أحد الناجين من "المدينة المحتلة" ومن المذبحة الرهيبة التي أعقبت سقوطها في يد الصليبيين سنة ٨١٨ هـ - ١٤١٥م. أدى به حال المجازر الصليبية، إلى النزوح بثروته بعد وفاة والده، من سبتة إلى مدينة تطوان، ومن منطقة أنجرة الغربية بموضع ملوسة، حيث اختار خلوته، وسخر ثروته لشراء السلاح والعتاد، ووظف علمه وورعه، لشحذ همم المريدين. فانطلق فارسا موحدا في حملته العسكرية لملء فراغ الساحة الجهادية.

جدك طلحة الدريج السبتي مريم، نزح إلى تطوان أواسط القرن

السابع الهجري، جراء التعذيب والشنق، الذي لقية المسلمون من مجازر محاكم التفتيش الصليبية. كان معاصرا لعبد الرحمن الجزولي، وأحمد بن سلام بن مرزوق المجكسي. وقد شاركا إلى جانبه في العديد من الغارات الجهادية بين ١٤٢٠ و ١٤٢٩ م. ومن تطوان تزعم فقيه وقاضي سبتة قيادة المقاومة بثلاث حملات جهادية. الحملة الأولى بنيتي في ١٤٢٧م حيث عبأ فيها نحو أربعمائة من الفرسان، وآلافًا من المشاة، اقتحم بها ميدان سبتة في مقاومة الغزو الصليبي والوجود الأجنبي. والحملة الثانية، ١٤٢٨م وزع فيها الطلائع السبعة من المجاهدين، على كتلة شبه جزيرة قصر أفراك، فتراجع البرتغاليون بقيادة بيدرو دي مينيسس، وتقدم المجاهدون إلى موضع "الميرة" (porto lameira)، حيث امتد زحفهم إلى برج المشنوقين (torre dos enforcados). وفي هذه الحملة وقع جدك -صغيرتي- في الأسر إلى أن افتداه الفقيه الفكاك مع خمسين من رفاق دربه في الجهاد. أما الحملة الثالثة عام ٨٣٢هـ - ١٤٢٩م فتمكن فيها من العودة بأتباعه من المريدين الجزوليين إلى ميدان سبتة.

في الحملة الثانية التي أسر فيها جدك، حدثت كرامات، لم يذكرها عن نفسه، وإنما حكاها لنا مجموعة من قيادات الجيش البرتغالي والإسباني، الذين جاءوا إلى مقامه لزيارته. قالوا لنا: إن أحد قادة الجيش البرتغالي حاول التعدي على جدك بتعذيبه أثناء الأسر، فخرجت طلقة بارودة لا يعلم مصدرها، ووجهت لصدره، فألقي صريعا على الأرض. هناك هلل مجموعة الجنود الذين شهدوا الحادثة، بصوت جماعي "ولي ولي" (santo.. santo). منذ ذلك الحين، يقصد العديد من أبناء وحفدة الجنود الإسبان ضريحه، ويقيمون له موسما سنويا".

على صغر سني لم أستوعب كيف يقيمون له موسما، وهو من كان يجاهد ضدهم دفاعا عن أرضه، وصدا لغزواتهم الصليبية! فسألت أمي عن السبب. فأجابت أمي قائلة: "صغيرتي، أحسنت السؤال.. فالزوار الأوائل كانوا يعلمون حقا مكانة هذا المجاهد العظيم، ومنهم من حضر كراماته أثناء أسره في سبتة، على يد "ضون ضوارتي". لكن بعد ذلك تعمدت سياسة الاستعمار الإسباني في الشمال، إقامة المواسم الاحتفالية بالأضرحة، مع نشر طقوس الشعوذة ومراسيم الذبائح، تخديرا لعقول أبناء المنطقة، ومحاولة للقضاء على مسار تاريخ المجاهدين وتحويله إلى مواسم طقوس احتفالية، تذبح فيها الذبائح وتقدم القرابين، وتعلق الأعلام، فتطمس بعد حين من الزمن حلقات من جهاد الأبطال، وتخلط سيرتها بشخصيات أسطورية خرافية، أقيمت لها أضرحة على أزمن متباعدة.. ألم أوضح لك الصيف الماضي، عندما كنا في زيارة قصر الحمراء، بغرناطة، أن هناك معالم إسلامية تتعمد السلطات الإسبانية محوها من ذاكرة المكان؟!".

كنت أمعن النظر في ملامح وجهها، وأنا أردّد "نعم أمي أتذكر جيدا".

أمي: "الله يرضي عليك يا مريم، هكذا أريدك أن تتذكري تاريخ مجد حضارتك. هكذا عاش أجدادك مريم بالجهاد والمجاهدة، مجاهدة العدو، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.. فكيف تسألينني صغيرتي اليوم عن حال جدك مع البكاء؟ كيف تسألينني عن سر مجاهدته وهو سليل البيت الذي خرج من فنائه أبطال الجهاد؟! ففي هذا البيت عاش جدك المجاهد، زاهدا، مجاهدا، بماله وعلمه وعرفانه، إلى أن توفي به ودفن في الضريح المجاور له.. هنا بخندق الفرجة خارج باب النوادر، سفح جبل درسة

حيث نجتمع اليوم صغيرتي".

في مساء ذلك اليوم، تعرفت على تاريخ أجدادي، وشاءت الأقدار أن أسمع من جدي قصصا تصلني من مقام رباطه، إلى أرض رباط محمد الفاتح..

بعد مغادرة الوفود من ضيوف مباركة العيد، وتجديد ميثاق المحبة والوصال، أحس جدي أن أهل بيته من خدام الزاوية، أرهقهم التعب من كثرة الاستقبال، وخدمة الضيوف.. فدعا كل أبنائه وأحفاده لشرب الشاي، وسط عقد الدار، حيث النافورة الحبيبة، تداعبني عن بعد، وترسل لي إشارات القدوم إلى حوض مائها، لمؤانستها بعد غروب شمس يوم حافل بزيارات أبعدتني عن حضنها.

تربع جدي فوق اللحاف الأخضر المزركش بالطرز الرباطي الأصيل.. جلبابه الأبيض الناصح يزيده بهاءا ونورا.. وجهه المستدير، كدائرة القمر، يضيء فسحة الأمل في لقاء المحبين.

بدأ جدي حكيه عن رحلاته في طلب العلم، وحج بيت الله الحرام، بينما كنت ألتهي بدمية على شكل عروسة تطوانية، أحاول في شرود تام، إعادة عقد أقفال قفطانها، بعدما انسحب من خصرها.

يتابع جدي تفاصيل رحلاته من الجزائر إلى مصر إلى سوريا ولبنان، فعمان والأردن فأوروبا، ليستوقفني فقط حديثه عن تركيا.

كعادة الأطفال، عدم الدقة في التركيز لفترات طويلة، كنت ألهو وأمرح، وأقف للحظات قليلة، أحاول تتبع ما يحكي عن بلد أحسست أن لغة عشق غير عادية، تحرك أعماق جدي وهو يخبر الحاضرين، عن سحر أسراره، لدرجة توقعت معها أن تركيا سيدة حسناء فتنت جدي

بسحر جمالها...

فجدي يتحدث عنها بلغة الهائم، بروحه ووجدانه.. يطوف بين جنبات فضاءاتها، ومساجدها، وتكاياها، يسرد تفاصيل لقاءاته، بأهل العلم والذكر والمحبة.. شدني أسلوب السرد والحكي، تربعت على ركبتي جدي.. حضنت بحنان دميتي، وأدركت أنني منخرطة، في حضرة جلال ما يحكي عن أهل تلك البلاد.

أخبرنا جدي عن أعمامي من بلد أبي أيّوب الأنصاري، ومحمد الفاتح، وعن لقاءاته المتكررة بأعلامهم في تكايا الذكر، ومجالس العلم والصحبة. كنت متحمسة لمواصلة سماع ما يحكي، مشدودة الانتباه، لتغير ملامح وجه جدي، وهو يحكي باتقاد مشاعر غير عادية، قصص ساعات طويلة، من العناق الروحي، والوجداني، بمشايخ العلم، والزهد والورع.

سألت جدي يومها ببراءة سؤال الطفولة: "جدّي أخبرْني من تكون تركيا؟".

فأجابني بلطف، وهو يداعب ضفيرة شعري: "تركيا -يا صغيرتي- هي عزة الإسلام، وشموخ حضارته، ورقي عمرانه الإنساني..". ويتابع: "كنت ذات يوم، وأنا في طريق حجي لبيت الله الحرام، أقيم في فندق قريب من مسجد أبي أيوب الأنصاري ﷺ، الصحابي الجليل، الذي شهد العقبة، وبدرًا، وأحدًا مع رسول الله ﷺ، الذي نزل ضيفا في بيته بعد هجرته من مكة إلى المدينة. توفى سنة ٥٢هـ أثناء حصار يزيد بن معاوية للقسطنطينية، ودفن قرب هذا المكان، الذي كنت أعشق السكن كلما زرت بلاد الأناضول. في صباح اليوم الموالي لإقامتي في إسطنبول، نزلت أبحث في السوق عن محل لعلّي أجد فيه التين التركي، وأقتني

منه بعض الحاجيات. وأنا واقف بباب الدكان بجلبابي المغربي الأبيض، سمعت صوتا يحدثني بالعربية:

- أأنت من الجزائر؟

جدي:

- مرحبا سيدي، أنا من المغرب، الذي آمل يوما أن يصبح مغربا كبيرا.

فقال:

- مرحبا بأهل المغرب، من أي مدينة أنت؟

جدي:

- أُصولي أندلسية عربية أمازيغية فاسية تطوانية؟

تبسم الرجل وقال:

- أهلا ومرحبا بأهل المغرب.. أعرف فاس، وتطوان، وقرأت عن الأمازيغ والأندلس بمن احتضنتهم من علماء جامعة القرويين.

الرجل التركي:

- مرحبا بك وبعلماء وشيوخ وزهاد المغرب في أرض الأتراك، هل تأذن لي سيدي في ضيافتك ببيتي هنا في إسطنبول، لكنه في الجهة الأسيوية؟

جدي: لم أتردد للحظة في قبول دعوة ضيافته. وهذه عادة أبناء دار الزاوية في المغرب، يرحبون بالغريب، ويقبلون ضيافته، إن دعاهم لبيته. ولكن رفيقي الحاج أحمد شدني برفق إلى زاوية الدكان، وهو يعاتبني بلطف، عن ثقتي، وقبولي دعوة رجل مجهول. أصرّ على منعي من الذهاب، تحسّبا من حدوث ما لا يحمد عقباه، ونبهني من احتمال الوقوع في فخ النصب. من دون أي التفاتة لرأي الحاج أحمد، قبلت دعوة الرجل

وذهبت معه.

كنا نجوب شوارع إسطنبول الساحرة، ينقلني بين دروب وأزقة أحيائها التي زينت بيوتها بمنارات علامات قدوم الحجاج، وأساساتها بأروع وأجمل تصاميم هندسة الفن الإسلامي".

الكل متابع بشوق تفاصيل أحداث القصة.. فيتابع جدي: "وصلنا إلى البيت، قدم الشيخ صلاح الدين واجب الضيافة، وأبى إلا أن يغسل يدي بماء ورد، صبه من إبريق نحاسي عثماني. ملأ المائدة بأصناف الحلوى وأطباق الأكلات التركية الشهية، ثم تركني لفترة غير قصيرة رفقة عمه الذي درس بالأزهر الشريف. تبادلنا أطراف الحديث عن أحوال الحجاز التي قدمت منها، ليعود صاحب البيت بعد حين صحبة عشرة أفراد، حيّوني بتحية السلام عليكم، مصحوبة بكلمات تركية، وكأنني أتذكر منها "شكالدز" أو "هُوشْ كَالْدِينِيزْ"، وهي تعني "مرحبا بكم".

أخبرني أن جيرانه وبعض مريدي التكايا، جاءوا ليتبرّكوا بالجلوس في حضرة شيوخ وعلماء أهل المغرب. كان أغلبهم يتحدث اللغة العربية الفصحى.. تناولنا مواضيع كثيرة بالبحث والدرس والمذاكرة، وختمنا الجلسة بالذكر، والابتهال، والدعاء. كان الرجل فصيحا محدثا فقيها وأديبا، سألته عن مهنته، فأجابني بكل تواضع: "إمام مسجد صغير بهذا الحي".

ونحن نودع بعضنا البعض، همس في أذني أحدهم ليخبرني بأن صاحب البيت، من كبار علماء وأهل الورع في تركيا. قبّلت رأسه وانحنيت إجلالا لتقبيل يديه، فسبقني بتقبيل يدي. تعانقت أرواحنا، وافترقنا على دموع المحبة والصفاء الوجداني، الذي سبر أغوار نفسي العميقة، فسجل

ميثاق عهد، وبصمة حب، وتعلق واحترام، لتواضع حفدة أبطال التوحيد والعلم بتركيا".

كنت أسمع وعلى صغر سني حكي جدي، الذي فهمت مقصده جيدا. ساعتها لم أتذكر اسم العالم التركي، ولا مؤلفاته، ولا عنوانه الذي وصفه جدي لأعمامي، وتلاميذه، ومريديه.. لكن الأيام كانت كفيلة بتعريفي بأبنائه وحفدته، ممن جسدوا لي واقعيا، حفاظهم على تقاليد وأصول أجدادهم العلماء.. هي نفسها صفة التواضع التي حكاها جدي عاينتُها في لغة ورقي الحفدة، خدمة وتفانيا في حسن استقبال، وإكرام أهل العلم والمعرفة.

يومها تيقنت أن حكي جدي معززا بحكي الأستاذ عبد القادر الإدريسي وشفيق الإدريسي، عن ورع وزهد، وتواضع الحفدة من ورثة أهل العلم والصلاح، كان حقيقة تاريخية، لمستها عن قرب بعد زيارتهم لي وترحابهم بقدومي، صبيحة يوم ٣٠ يونيو ٢٠١٠ في بهو فندق "جراند جواهر" إسطنبول، أي بعد وفاة جدي بأكثر من ربع قرن.

الفصل الثاني:

مشاتل أزهار المعرفة

لقاح محضن جُوشْكُن

صبيحة يوم الإثنين، الخامس والعشرون من شهر ديسمبر، عيد الاحتفالات بميلاد المسيح، كنا على موعد مع مؤسسة تعليمية، تدعى جُوشْكُن...

أحاول فهم المعنى.. لكن استحيائي من الأستاذ زياد، أوقفني عن طلب معنى الترجمة.. اليوم طويل مكثف باللقاءات العلمية، أكيد أن المترجم سيتعب كثيرا في ترجمته.

وصلنا باب مؤسسة جُوشْكُن، وجدنا في الاستقبال وجوه أطفال ملائكية، يحملون باقات من الزهور، وينشدون تحية الاستقبال احتفاء بقدومنا: "هُوشْ كَالْدِينِيزْ... هُوشْ كَالْدِينِيز".. من فرحتي، كنت أحاول الرد عليهم، بما أسمعه من لغة أهل البلد، وبسرعة البرق حاولت التقاط الرد من أم سداد: "هُوشْ بُولْدُك" بما معناه "أهلاً وسهلا".

أحاول نطقها بتفخيم الرنة، كما ينطقها أهل البلد...

"هُوشْ بُولْدُوك"... "هُوشْ بُولْدُكْ"، أردّدها وأنا أحضنهم وأقبّلهم...

تزامنت فرحتي ببهجة الأطفال، بمحاولة لملمة مشاعر مختلطة، غمرتني في تلك اللحظة.. ابتهاج بحسن الاستقبال والترحاب، ورغبة في عناق مَنْ أحسستُ بنور ينبعث من أرواحهم الملائكية، يتلألأ في فضاء باحة الاستقبال وينشد:

"مرحبا بأحبّة أحفاد الجهاد والمجاهدة من أرض المغرب..
مرحبا بمريم أبْلاَ..
زارتْنا اليوم ضيفةٌ كريمةْ،
أتتنا محملة بالبِرّ والخير العميمْ،
ستقيم عندنا شهرًا،
يا ليتها عاما تقيمْ...
يا ضيفتنا لو جئتنا كل يوم،
لوجدت أننا الضيوف، وأنت صاحبة الدار"...

يا سلام، إنها قمة عناية الصغار، قبل الكبار، بمراسيم الاحتفال بالضيف.

صحيح أنا ضيفة، ولكن شدتني حرارة الضيافة، من قبل سيدات أعجميات، لا يعرفنني، ولا يعرفن اللغة التي أتواصل بها معهن. مع ذلك هن فرحات، مبتهجات، مبتسمات، ترفرف أجسادهن النحيلة كالفراشات الراقصة، بفرحة عودة فصل الربيع.

مديرة المؤسسة: "أستاذة مريم تفضلي مرحبا بك، وبأهل فاس". فتمسك يدي، وتحول مجرى الاتجاه، من الباحة الواسعة، نحو مكتبها في الطابق السفلي. "مدْرسة جُوشْكُن، هي عبارة عن حضانة للأطفال، قد يبدو الأمر بالنسبة لك -سيدة مريم- غريبًا أنت أستاذة وفي التعليم العالي كما أخبرت، قد يراودك سؤال "ما الذي جعلهم يُدخِلون هذه الزيارة في برنامجي حول المناهج التعليمية؟! وكان الأولى بهم، أن يوجهوني مباشرة إلى فضاء الجامعات".

حاولت الرد، لكن بسرعة بارعة راقية، وبأسلوب حواري جذاب،

استرسلتْ بهمة عالية: "أستاذة مريم، التعليم عندنا في مدارس جُوشْكُن، هو عصب وديناموالحراك التعليمي الذي قد ترينه بعد ذلك في الجامعات".

تفهمت جدية طرح السيدة المديرة، فلم أعقب بأي سؤال.. فضلت السكون وانتظار المزيد من التوضيح، حول نوعية هذا الدينامو، والعصب المحرك لكل الطاقات الخلاقة في بلاد الأناضول.

مديرة جُوشْكُن: "عندنا مناهج تعليمية نحترمها كمسؤولين عن إدارة المدارس الخاصة، وهذا مشترك بين كل المؤسسات. التميز عندنا في مدارس المستقبل هو التركيز على حل المعادلة الصعبة.. هل نحترم عقول هؤلاء الأطفال، الذين يسلمهم آبائهم وأمهاتهم إلينا مادة خامة؟! هل نطعمهم بلقاح الممانعة ضد الأمراض المعدية، كالكسل والخنوع، والاستهتار والاتكال واللامبالاة والغش؟!. كما تعلمين أستاذتي، هناك أمراض وفيروسات معدية، تفتك بالأطفال، إن لم يطعموا بلقاح في الشهر الأول من ولادتهم.. فكذلك توجد أمراض اجتماعية، خطيرة قد تهدد سلامة وأمن أبنائنا الروحي والفكري والمعرفي. وهنا نحتاج مبادئ التنشئة الدينية والاجتماعية والتربوية، لقاحا أساسيا تحقن بمصل المحبة، تحصن هويتهم، وتحفز مهاراتهم وكفاياتهم. الأطفال -سيدتي مريم- ألوان وزهور مختلفة. فهل يمكن للورد أن ينبث في أرض قاحلة؟!".

كنت أحرك رأسي، تعبيرا عن وجهة نظري المتفقة تماما مع هذا الطرح، حين فوجئت بيد عصفورة صغيرة من براعم بنات المدرسة، تمسك بأصابعها الصغيرة راحة كف يدي، لتهْديني وردة حمراء، كتلك الوردتين المزينتين، لوجنتيها الصغيرتين.

فسبحان من ألهم تلك البراءة الطفولية، وأرسلها مبعوثة للسلام..

تمنحني سعادة نشوة بعطر وردة حمراء، وتهديني سر أسرار البذور، في مواسم الأعياد التربوية. بِرقّة بالغة حضنت الطفلة الموهوبة.. سحرني جمالها وزرقة لون عينيها الصغيرتين.. انحنيت بهدوء، قبّلت يديها الصغيرتين، وأنا أستبشر خيرا بمستقبلها، الذي بدا لي واضح المعالم من خفة حركتها، وجرأتها وفراستها. كنت مفتونة بمداعبة هذه الطفلة الملائكية الصغيرة.

المدرسة تشرح قيم التربية على حب العلم، والحفاظ على الهوية والمواطنة. الأطفال ينشدون أغنية الأمل ويهتفون بوهج نور المستقبل. فأنشدت معهم لحن المحبة ووقّعت في كتاب الزوار باسمهم أحرفا سجلت بمداد الأمل.

بساتين الفتح المعرفية

كان الموعد الثالث في هذه الجولة العلمية، يوجهنا نحو الامتداد المعرفي، من الروض إلى مدارس الفتح. مدارس الفتح عبارة عن سلسلة ممتدة عبر أرجاء تركيا، تضم خيرة المبدعين والمتميزين من الطلبة والأساتذة.. تتميز بأرقى مناهج التدريس، ويعيَّن في هيئة تدريسها كفاءات عالية، وتزود أقسامها ومختبراتها العلمية، بأحدث وسائل التجهيزات المختبرية والعلمية. تركيز غير عادي على تجهيز المؤسسة.. قاعات رياضة، مسرح، قاعات مؤتمرات ضخمة، لا تجدها حتى في إعداديات وثانويات البلدان الأوروبية.

في جولة لمختبرات البحث العلمي، زُيِّنت قاعاتُ المختبرات العلمية، ببراويز، وميداليات ذهبية حصد بها الطلابُ مسابقات إقليمية ودولية في براعة الاختراع.

في لقاء مع المختصين التربويين، والمساعدين الاجتماعيين، تساءلنا عن نوعية المناهج في مثل هذه المؤسسات. فكان الإيضاح أن المرتكز هو تنمية المهارات في التفوق وفق تخصصات العلوم، والآداب، والاقتصاد... مع تعزيز قيمة ثلاثية العلاقة الترابطية "الأستاذ والطالب والأسرة".

سألت "وما سر هذه الثلاثية؟"، أجابني المدير: "سيدتي مريم، لا تنمية علمية وازنة، لبراعم مستقبل الغد، دون موازنة حركية سير هذا الثلاثي

المتجانس المترابط".

رغبت بالاستراحة قليلا، انزويت إلى جانب شرفة مطلة على ساحة الثانوية، الأستاذ المسؤول مازال يشرح تفاصيل ربط المناهج التربوية بالقيم، يحيلنا عبر مكتبة الوسائط، إلى تقارير المتابعة اليومية التي يبعث بها الأستاذ يوميا إلى الأسرة للتشارك في بناء مستقبل الطاقات.

النافذة الممتدة أمامي، تحيلني إلى ركن من زاوية ساحة الثانوية. شد انتباهي طالب يمزح بقوة مع زميله، بذلته الزررقاء الأنيقة، تسدل من على منكبيه النحيلين، كما يسدل الستار على الخشبة. شوكولاتة في يده، يقسم قطعة منها لزميله، يستمتع بنشوة طعمها، يلف غلاف الشوكولاتة، يرمي به أرضا، لم يكن أي مسؤول يراقبه.

استمر في المزاح مع زميله، إلى حين موعد رنّ جرس الاستراحة، بدأ يتوجه مع الطلاب نحو المخرج، كاد يخرج، لكنه عاد راكضا، وكأنه نسي شيئا هاما. شدة الازدحام تقف حاجزا في وجهه، يحاول بكل قواه الانحناء للبحث.. البحث عن ماذا؟ أكيد ضاع منه شيء مهم.

الطلبة يركضون بسرعة فوق يديه، وهو مصر على مدّهما في بلاط الساحة باحثا عما ضاع منه، وأخيرا رفع رأسه في نشوة عارمة، حسبتُه يمسك في يده محفظة نقوده الصغيرة، أو تلفونه المحمول، لم أر شيئا من هذا.

ترى ماذا بيده؟ ما الذي يحمله؟ افترقت الجموع قليلا من حوله، فتراءى لي وهو يلملم ورقة غلاف الشكولاته التي رماها، ونسي في حين غفلة من أمره، جمعها من على الأرض.

كنت أراقب أحوال هذا الطالب، من نافذة مكتب المدير، بالطابق

الخامس، وأنا أبتسم وأتساءل مع نفسي عن سر معاني التربية في هذه المؤسسة، كيف استطاعت غرس مفاهيم القيم الأخلاقية، ودمجها في مقررات التعليم؟!

لم يكن هناك من رقيب يؤنبه، ومع ذلك رجع. هل هو المنهج الدراسي؟ هل هو توجيه الأستاذ؟ هل هي تربية الأسرة؟ هل هي دروس الصحبة التي تجمع الأستاذ بطلابه وأبويه؟

أسئلة كثيرة دارت في ذهني، أجابني عنها الأستاذ المسؤول عن المناهج قائلا: "أخبرتك أستاذة مريم، بأن التدريس في مؤسساتنا يعتمد على ثلاثية العلاقة بين "التلميذ والأستاذ والأسرة". والتلميذ لا يتحمل مسؤولية الفشل الدراسي لوحده، بحيث يتابع قسمُ الزمر الذي يجمع خيرة الأساتذة أسبوعيا، ملفَّ الطلبة وإستراتيجية التعليم في المؤسسة. فالأستاذ عليه متابعة الطالب بالحصص الإضافية، مع تقرير يومي يبعث للأسر عن حالة وضعه النفسية، وقدرة تركيزه وتفاعله داخل القسم".

باستغراب شديد سألته: "ماذا تعني بتقرير يومي عن حالة الطالب؟ كيف يمكن للأستاذ أن يقوم بذلك، وكل يوم؟!".

المدير: "الأستاذ في مدارس الفتح، هو المسؤول عن فشل الطالب.. يحاوره، يسأل عن مشاكله، ينمّي مهارة اهتمامه بهواياته، يتابعه بعد الدرس بحصص إضافية، يرسل تقريرا لوالديه عن حالته، ويرافقه خلال نهاية الأسبوع في فسحة رفقة أسرته. بهذا المنهج نقسم الأدوار، بين التلميذ والأسرة والأستاذ المربي".

"مازلت لم أستوعب قدرات الأستاذ في منظومة هذا المنهج؟".

مدير المناهج: "مدارسنا -أستاذتي- تضم خيرة أبناء تركيا، نختارهم

بمواصفات تناسب مناهجنا.. فالكفاءة معتمدة، كما هي الأخلاق أيضا. والإيمان برسالة النجاح والتميز. لا يسمح بإدماج أستاذ فاشل، أو سيء الأخلاق. هل تظنين أن من يدخن مثلا، يصلح قدوة في التربية على القيم؟!".

كنت أتابع شرح المنهج، وأنا مازلت أتساءل عن نوعية الأساتذة المنخرطين في هذه المنظومة التعليمية.. هل هم أساتذة عاديون؟ أم هناك شيء خارق للعادة يحفزهم على قدرة الفعل والعطاء؟

رحلت ذاكرتي بعيدا، إلى صفحات كنت قرأتها من كتاب الأستاذ فتح الله كولن "ونحن نقيم صرح الروح"، أستلهم منها معنى الجهد في حركية الفعل الذي يحقق الفكر والبرنامج.. "فكل فكر بداية، ووتيرة للعثور على أطره الحقيقية، وبلوغ مراميه في ثنايا التحركات الملتزمة به. المرحلة الأولى لإرادة تطوير التعليم، تبدأ من ميل داخلي، ومبلغها النهائي هو العزم والقرار والهم بالعمل. والمنهج الفكري في هذه الوتيرة، كخيوط لفائف تلقى من المبتدإ لتتعلق بالمنتهى، والأعمال التطبيقية هي نقوش تزين هذه اللفائف"[٤].

فوسائل التدريس من غير فكر أو برنامج تؤدي في الأكثر إلى الفشل والفوضى. والتعليم الجامد من غير حركة الفعل، يعيق تشكل الأنموذج التعليمي، والبعد النهائي للفكر. ما لم نهندس تشكيل حركيات أرواحنا من جديد، وشحنها بطاقة العطاء اللامشروط بالأجر، لن نستطيع قطع أشواط في سبيل النهوض بالتعليم. إنها عدة أساسية لتجهيز فرسان نور

[٤] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٨٠.

المعرفة، القادرين على إيصالنا منابع الواحات المعرفية الخضراء.

مازلت أبحر في مقاطع من هذا الكتاب الذي قَدَّم لي اليوم قراءة جديدة في سر منظومة التعليم الفتحية، حتى أوقفني صوت المدير وهو يردد: "مريم أَبْلاَ، تفضّلي لتناول الغذاء مع طاقم إدارة المؤسسة".

في اتجاه بهو واسع، ممتد الأطراف نحو ممرات المؤسسة، وبتحية مؤدبة من طلاب ينزلون تباعا لموعد الغذاء، يلتفتون في شغف لمعرفة هذا الوجه الجديد، الذي حل ضيفا عليهم، كنت أردّ السلام مع ابتسامة تلامس مشاعر طفولتهم البريئة.

مائدة المدير رتبت بذوق جمالي رفيع، وهي نفسها مائدة الأساتذة، ونفسها مائدة الطلاب.

إنها قيم التربية التي يتبناها منهج الخدمة في مدارسه، وهي قيم مقتبسة من سيرة من يحيون بقلوبهم في هذه الدنيا، وكأنهم يعبون من كؤوس اللذة الروحانية في جنة الفردوس، ليثمروا في كل فصل أثمارا جديدة.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف، حين ودعنا مدير المؤسسة وهو يحيينا بتحية ود، مع هدية لوحة فنية مرسومة على الماء.. كنت شاهدتها من قبل سنتين في رواق المتحف الإسلامي بالدوحة، حيث رسم لي أشهر فناني روسيا في الرسم على الماء، لوحة مائية تحولت في لمح بصر إلى ألوان زاهية..

فسبحان من جعل من الماء كل شيء حي.! وسبحان من يسر لعباده، من قرية أرضروم إلى أَدِرْنَة إلى إِزْمِير إلى ما وراء المحيط أن ينهلوا بنفس عميق، من ينبوع القرآن المتفجر دوما بشلالات الماء السلسبيل ليصلوا الينبوع بجداول الأرض، إحياء للزرع الميت فيها.!

في رحاب جامعة الفاتح

فاطمة نور باران، تطرق الباب طرقة خفيفة.. تدخل بخطى لا يسمع لها حس، وبصوت خافت كعصفورة تغرد لصغارها تغريدة الصباح تهمس في أذني:

- صباح الخير مريم أبْلا..

- صباح الأنوار يا نور فرسان النور..

أردّ التحية وأنا مازلت أتقلب بين نسائم السكينة والاطمئنان، في آخر محطات نومي.

أرد على فاطمة نور:

- صباح الورد والياسمين.. يا من اقتحمت نظم عالم أفكاري، وحولت مجرى حلمي.

فاطمة نور:

- أستاذة مريم، زياد أبي في انتظاركم.

- ماذا؟ أحقًّا هو بالأسفل؟ كم الساعة؟

فاطمة:

-الساعة الثامنة والنصف أستاذة.

أنهض بسرعة البرق من دفئ فراشي، وأجتاز ساحات ميادين تعانق الأرواح التي احتضنتني بدفئها ليلة كاملة في ليالي برد إسطنبول القارس.

كيف لم أفطن للمنبّه وقد برمجتُه لإيقاظي الساعة السابعة؟! في عجالة من أمري، أحاول بسرعة ارتداء ملابسي وأنا أتمم: "آه الحجاب غير مكوي.!".

فاطمة:

- لا داعي لِكيّه، فهو أنيق وليس فيه من عيوب الطي ما يجعلك تكوينه.

- إذن هو كذلك.. وماذا عن الجو في الخارج؟

فاطمة:

- الجو ليس باردا، كما كان متوقعا في الأرصاد الجوّية لنهار اليوم، لكن احتمال يكون ممطرا.

- لا بأس إذن آخذ المعطاف تحسبا لأي تقلب في الجو.. فالبرنامج مكثف، والعودة قد تكون في وقت متأخر.

وأنا أسرع في لبس حذائي، وأجتاز الممر الموصل للمصعد، أردد:

- فاطمة لا تتأخري عليّ، أنا في البهو، ولا تنسي الكاميرا رجاءا عزيزتي.

كانت أم سداد في استقبالي ببهو باران، وهي تضمني:

- صباح الخير.

- صباح الأنوار والأشواق يا أم سداد، آسفة تأخرنا عليكم قليلا.

أم سداد:

- لا لا أستغفر الله.. لم تتأخروا، خذوا راحتكم..

كانت فاطمة نور، تنظر إلي وهي تودّعني بنظرات حنان غير عادية وكأنها تجمع صباحها بعصرها ومغربها بعشائها، لتخفي في همسات

الحضور شوقا لمشاعر ملتهبة عبرت عنها دقات قلبها وهي تودعني، بأنغام أحاسيس حنين، تخرس الألسن عن التعبير بها.

من دون معطف، وبلا إحساس ببرودة قطرات المطر، توصلني نور إلى قلب السيارة، وأنا ألوح لها من وراء زجاج السيارة الشفاف. كنت أرقب صمتها، والنذر الرحمانية تتنزل عليها بالماء والثلج، لإخماد لهيب روحها المتّقد.

أبناء الفتح، يفهمون لغة الأحبة في الله، فلا يقطعون وصالها. كان زياد أبي ينظر إلى نور كطفلة ملائكية تودع أمها المسافرة، ولا يحاول كسر مسافات الاتصال حتى ولو بتحية السلام. بصوت هادئ وواثق من معاني سر لغة الحال، وبعد اتجاه السيارة نحو بداية الشارع الرئيسي لعُمْرانيّة، يبادر زياد بإلقاء التحية:

- السلام عليك يا أستاذة مريم.

أبادله التحية:

- وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

- أهلا أهلا بجمال الصغير، "شُوكْ كُوزَلْ جَمَال"..

بنظرة حيية، يبتسم هذا الملاك الصغير الوديع، وهو يرقب بفضول طفولي، ما أحمله داخل كيس، تبين له من طريقة غلافه أنه هدية، يستفسر عن نوعها.

- مرحبا، هُوشْ كَالْدِينِيز.

أقولها للسائق الأنيق، وأنا أضع الكيس بجانب أم سداد.

السائق:

- هُوش بُولْدُك هَانم أفنْدي.

كان السائق بأناقة هندامه وربطة عنقه، يوحي بأننا على موعد مع لقاء وزير. سبحان الله كل شيء يوحي بالترتيب والأناقة والجمال عند أهل الخدمة.. اللباس، آداب التحية، الابتسامة وحسن الترحيب... الحافلة الراقية المزودة بِسلّة نظافة جنب كل كرسي.. الحذاء الذي ينبغي أن يوضع في مدخل كل الباب، ويمنع الدخول به حتى إلى قلب المؤسسات أو المكاتب... الزجاج الذي يتلألأ بلمعان نظافته من شرفات نوافذ البيوت، والعمارات.. الشوارع النظيفة...

كل هذا يوحي بقيم حضارية أصيلة متجذرة في أعماق روح هذا الشعب التركي. حتى السيارات في شوارع ساعات الازدحام الصباحي الإسطنبولي، تجدها نظيفة ولامعة المظهر. توقفت عن الكلام، متأملة حسن هذه العاصمة الساحرة بمناظرها، بنظامها المروري، بنظافة شوارعها، أتلو صلاة الحمد قبل الرحيل عنها.. بدت في زينتها مثل شجرة الميلاد، طرحة عرسها مساحات خضراء مكسوة بلباس أبيض من ثلج ديسمبر. ألوان فستانها من قوس قزح.

زياد:

- الطريق يكون دوما هكذا مكتظّا في العواصم، خاصة ساعات الذروة.. إن شاء الله نصل في موعدنا المحدد للقاء رئيس قسم الفلسفة بجامعة الفاتح.

عندما اقتربنا من الجسر، كنت أتطلع بشغف إلى تحديد منتهى هذا الكم الهائل من الصفوف الممتدة نحو حدائق ألوان حديدية الأبواب زجاجية النوافذ، وأنا أحاول وضع معطفي على الكرسي المجاور للأستاذ زياد، سائق المركبة النورانية، الذي تربى مع إخوته جمال ومصطفى،

على ارتشاف كؤوس الصبر والحلم، وتعود على الانتظار لساعات طويلة، يتنقل بينهم صحبة إخوته في فضاءات تصاميم القدرة الإلهية، ينتظرون قدوم من يحقق أحلامهم ويعيد مجد أجدادهم الأبدال...

لذا فهم يتركون نافذتهم كل يوم مشرعة، حتى يتمكن الأحبة من الدخول إلى غرف تزكيتهم، وعوالم فكرهم، فتمتد خيالاتهم، وتنجذب أرواحهم إلى عالم آخر فوق الزمان والمكان.. عالم شحذ مشاعر المحبة ولف القلوب بوصال العشق الروحاني. بإشارة خفيفة، كان الأستاذ زياد يلوح للسائق يوجهه نحو الباب الرئيسي لمدخل رئاسة الجامعة.

الأصناف.. حفنة مجانين

الساعة تشير إلى الثامنة والنصف، المدخل يعج بالطلاب والأساتذة المتّجهين نحو قاعات درسهم... زياد يقف على باب الحافلة، يشير للسائق بالتوقف، لأخذ رخصة الدخول للحرم الجامعي، ويدير وجهه نحوي:

- هذه جامعة الفاتح أستاذتي، أساساتها وجدرانها وأعمدتها، من حفريات أصناف أهل الخدمة.

وباستغراب شديد، أسأله:

- أصناف؟! ما معنى "أصناف؟".

زياد:

- أصناف يا سيدتي هم حفنة مجانين.

- عن أي مجانين تتحدث يا أستاذ زياد، لم أفهم قصدك؟!

زياد:

- المجانين يا أستاذتي هم من تشبّعوا بحبّ الله إلى حد الجنون.. لم يغيرهم عنه حسن، ولم يفتنهم عنه جمال.. المجانين هم من ارتقوا بأنفسهم على كل المعادلات، وتساموا بأرواحهم على كل المقاييس.. هم مَن رفعوا شعار الثورة ضدّ كل مألوف، وهتفوا كما هتف الرومي: "هلم إلينا يا إنسان!".. المجانين يا سيدتي، هم من دفنوا أنفسهم في غياهب

النسيان، ونادوا كما نادى بديع الزمان: "وإنسانيّتاه!.". لم يقفوا بالبكاء كثيرا على شعار موت الإنسانية، بل هندسوا لمعاني انبعاثها من جديد.. مضوا في العمل والفاعلية، ولم يفكّروا في سعادتهم الشخصية.. أجل هؤلاء هم مَن نسوا رغد الحياة.. نسوا البيت والولد.. وسلكوا درب الواصلين ليكونوا من الناجين.. مجانين هم كما أرادهم فارس الفتْح.. بل حفنة من المجانين.. يثورون على كل المعايير المألوفة.. يتجاوزون كلّ المقاييس المعروفة.. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرّون وإليها لا يلتفتون.. هكذا أرادهم الأستاذ[٥].. وهكذا هم حفنة مجانيين، ممن نُسبوا إلى خفّة العقل لشدة حرصهم على دينهم، وتعلّقهم بنشر إيمانهم.. هؤلاء هم المجانين الذين مدحهم سيد المرسلين، إذ لا يفكرون في ملذّات أنفسهم، ولا يتطلعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا، ولا يفتنون بالأهل والبنين... هؤلاء يا سيدتي هم من تضرع فارسهم بقابلية قدراته المحدودة يوما في خشوع قائلا: "يا رب، أتضرع إليك.. خزائن رحمتك لا نهاية لها.. أعط كلّ سائل مطلبه.. أما أنا أريد حفنة من المجانيين"...

كان سحر ترانيم صوت انسجام لحن الكلمات، يتماوج في الأعماق المموجة لإقليم أفكاري... فتلاطمت أمواج بحار واسعة وغنية من تصوراتي، وكدت أفقد ملاحم تاريخ ذكرياتي.. وفي غمرة تداخل جس نبض أسرار كياني.. كان زياد يشرح مداخل هذا الصرح الجامعي الممتد، بفضاءات واسعة من حدائق، ذكرتني تماما بروعة هندسة تصميم حدائق

---

[٥] الأستاذ فتح الله كولن.

مدخل الجامعة الإسلامية بكوالالامبور.. تحس من باب مدخلها، كأنك تزور منتجع سياحي، لكثافة النباتات الخضراء والأشجار المشبعة بالحب، وكأنها تربط أغصان جوانب المكان بالطريق المؤدية إلى عصارة العلوم. كان أفق جامعة الفاتح يلمع شامخا في وجه زوار معالم حفنة المجانيين، وكشهاب نجم يتلألأ بضياء المعرفة منبع حكمة مراسيم تتويج الشمس.

زياد:

- انظري على اليمين، فهذه كلها إقامات فخمة لسكن الطلاب.

أمد بصري وأفتح عدسة كاميراتي لأصور جمال روعة المكان. المرافق الجامعية، القاعات الرياضية الكبيرة، الحدائق والمنتزهات، أناقة الطلاب والطالبات، ترتيب مكان الحافلات المخصصة لنقل الطلاب، لم تكن تفصلنا مسافة بعيدة بين المدخل الرئيسي، ومدخل المدرجات والأقسام والمختبرات، حيث أقلتنا الحافلة.

كان الشاب الطيب الأستاذ إبراهيم، ينزل بمعداته التصويرية الخاصة بتوثيق رحلتنا، في أهبة منه واستعداد تام للقيام بواجبه.

زياد:

- سنتناول الفطور رفقة مسؤولة العلاقات والشراكات العلمية سيران، والأستاذ الدكتور شماس رئيس قسم العلوم السياسية، والدكتورة أليف أستاذة الفلسفة بالجامعة.

ازدحام الأفكار الملتهبة

المدخل يعج بالطلبة.. بخطى مسرعة كنا نحاول اللحاق بالأستاذ زياد، وهو يرافق مسؤولة العلاقات العلمية الخارجية. حين وضعت قدماي فوق درج باب مدخل الجامعة، لمحت فصولا من أزهار عقول تتشابك في خلايا دماغها، مغناطيس ازدحام الأفكار الملتهبة.. أفكار تبحث عن ربان سفينة يقودها ببوصلة المعرفة، نحو مرساة الفعل والإرادة والجاهزية للعطاء المعرفي والعلمي.

صعدتُ الدرج مواصلة تقدمي نحو زياد. وعند بلوغي الباب الرئيسي، لبهو الاستقبال وقبل أن تبدأ مسؤولة العلاقات العلمية، بتوزيع بسماتها وكلماتها الترحابية التركية، علمت أنني سأفتح صفحة لورشة عمل تطبيقية أستخلص معانيها بعد حين من فصل دروس آل فاتح النظرية.

المدخل الرئيسي لقاعة الاستقبال، يوحي بأننا في فندق من صنف خمسة نجوم، تتخلله أعمدة من المرمر، منحوت عليها صور من مساجد غابر الزمان. فلا يمكن أن تمر في شوارع ومؤسسات ومدارس ومعالم إسطنبول، دون أن تجد آثارًا شامخة لهم.

لم تكن الأيام الإسطنبولية تمر دون التضييف بأكواب القهوى التركية، بنكهتها الممتعة. الشرفة التي اجتمعنا حول مائدتها، كانت تطل على بقاع تلال زمردية خضراء توحي بالتجول في دروب تاريخ صانعي نافورة فوارة

هذا الشلال المعرفي المنهمر. الأستاذ شماس مدير قسم الفلسفة يعرف بزميلته أكسيل، ثم ينتقل إلى سرد تخصصات كليات ومعاهد الجامعة:

– عندنا كلية العلوم والاقتصاد والهندسة والطب والفلسفة والحقوق والتكنولوجيا واللغات.

كنت أشرب الشاي منتظرة ترجمة زياد، وفورا يلتقط زياد الأفكار ليترجمتها إلى اللغة العربية. كان زياد منهمكًا في الترجمة، بينما كانت المائدة ترص أطباقها، بألوان شهية من أصناف الأجبان التركية وسلطات الخضروات المعهودة في الإفطار التركي.

يواصل الدكتور شماس حديثه، ليشرح لنا تفاصيل هندسة وحفر أساسات هذا الصرح العلمي المتميز.

– أستاذة مريم.. تعرفين تسلسل أحداث تاريخ تركيا؟

أرد:

– نعم درست عن بعض التحولات التي رسمت ملامح تطور المنظومة الفكرية والسياسية لتركيا.

– إذن دعيني أعطك نبذة مختصرة عن فرسان بناء صرح العلم والروح. الحياة يا سيدتي، لا يمكن أن تنفك فطرتها الأبدية، عن سر ثلاثية العلاقة بين الخالق والإنسان والكون. لكن تعلمين أنه في القرن التاسع عشر، عاشت تركيا تجربة دامية ضاع فيها الإسلام، وتربعت على البوسفور الشيوعية. ففرضت نفسها على النخب، وأنتجت ثقافة الإلحاد، بل أنتجت خللا في توازنات تكامل مصالح الإنسان، المادية والروحية، وجعلت منه إله المادة بالمفهوم الإشباعي للرغبة والشهوات.. فحولت هذه الرؤية مجرى التوافق الإنساني والطبيعي إلى عالم التيه.. عالم

يغيب فيه معنى الوجود.. بل عالم حضر فيه كل شيء.. وغابت إنسانية الإنسان.. شُيِّئت روحه وشُيِّء عقله وفكره وجسده، طموحاته وآماله.. فكان هذا التيه مقرونا بحروب الاستعمار وتدمير الإنسان والاستغلال والعبودية. حاول الناس -طبعا يا أستاذتي الكريمة- أن يتصدوا لهذا التيار.. وتعددت مدارس الإصلاح والتجديد والاجتهاد، لكنها ظلّت في عمومها غير متكاملة المبدأ والفرضيات والنتائج. طبعا أنتِ من فاس أستاذة مريم، وتعرفين جيدا علاّل الفاسي، ومالك بن نبي الجزائري، والطاهر بن عاشور التونسي، ومن المشرق محمد عبده، والكواكبي، والأفغاني، وغيرهم... قد لا أحسن عدهم في هذا المقام، وهذا يدل على حضور رغبة التجديد والإصلاح في فكر رواد النهضة، حيث تعددت المشاريع النهضوية من المطالبة بإصلاح التعليم إلى المطالبة بالحرية، إلى مناقشة فكر الإحياء وعالم الأفكار. لكن هذه المشاريع في مجملها، لم تستطع تكوين منظومة فكرية موحدة ومتجانسة.. أما تركيا -أستاذتي- فقد تعرضت لأشرس الحملات والهجمات الفكرية للقضاء على الدين بعد سقوط الخلافة العثمانية.. الجامعات فرضت نوعًا من التوجه الإلحادي، على سير المنظومة التربوية والتعليمية والاجتماعية، والأسرُ مَنعت إرسال أبنائها للدراسة في الجامعات. وكما يقول المثل التركي "عند وجود الصقر، تنمو مهارات العصفور الضعيف"... أتعلمين أستاذة مريم، قد بدأت مهارات هذا العصفور، تنمو مع رحلة المهاجرين من أسراب الطيور، وسفن السائحين من أصحاب الإيمان، نحو التلال الزمردية الخضراء للمستقبل المحفوف بالأمل. وبنسبة انفراج ضلال سماء تلك التلال، سيبدأ النزول نحو الأشجار المتمايلة في تلك السفوح،

وتوسع جداول الأنهار المنهمرة بشلالات من دموع ناطقة بالحسرة وبآلام داء الهجران. نعم سيدتي، عند الطوفان تُبعثرنا دوامةٌ من الأحاسيس، فيقف اللسان عن التعبير والبيان. وساعتها يمكن أن يقال ما لا يقال، وتهمس مشاعرنا المقهورة موسيقى فريدة في أرواحنا، فتحرك كياننا، وتحمس عقولنا للاشتغال بلائحة عريضة من المصطلحات الجديدة، لا تسعها الألفاظ اليومية المعتادة، بل تخرج في كثير من الأحيان عن رمزية المصطلحات المتعارف عليها في معاجمنا اللغوية. إن ارتجاف رعشة هذه الأفكار، لا يمكن أن تترك لنا مساحة فارغة، لأن المساحة الفارغة، لا يمكن أن تكون عنوانا لرحلة الانتقال الفصلية. وفي كل فكرة، يتم طرق باب مبارك لكل يقظة، وطرق الباب، يعقبه انتظار مبارك، بصبر العنكبوت لتغيير عنوان وجهة الرحلة.

سلفة إيجار بيت طلاب تغرس بذور نبات المعرفة

أمام حضرة الأسد في اصطياد فريسته، نحتاج لقوة إرادة، تخلصنا من الرعشة والبكاء، فننطلق كالسهم من موقع ذروة صوت أنينه المذوي، بحثا عن مكان النجاة. هذا يا سيدتي، ما قام به من تجاوز زمن البكاء والتحسر، عندما أحس أن سعة آماله تسبق أعماله، فتسابق مع رياح الفصل الخريفي، ودق باب الفصل الربيعي، ليؤجر مبلغا شهد عليه والد "جمال ترك"، حجز به إيجار أول بيت يجمع فيه بذور نبات ربيعه المعرفي، استعدادا لبداية موسم الزرع المقبل.

كان السيد "أبو جمال"، ومفتي إزمير السيد "أحمد كَرَاكُلُوكْجُو" والسيد "مصطفى بِيرْلِيك" مَن ساهموا في تأجير البيت الربيعي، وهم يدركون تماما بأن الحصاد لن يكون هذه السنة، ولا السنة التي بعدها، وقد لا يكون لعشرات السنين، ومع ذلك سلكوا درب الأنبياء، بفرش زهور الحزم مع رفيق دربهم، وانتظار مطر يحمل نفحات إلهية تمس حدائق وبساتين تلك الزهور.

ففي مواسم القحط، تأهب حزم نبي الله يوسف عليه السلام، لتخزين البذور اجتيازا لمحنة الأيام العصيبة من المجاعة. وفي مواسم الغيوم والظلمات، تهيأ الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ليجعل من بيت الأرقم

ابن الأرقم ﷺ، حديقة عامرة بأنواع من فواكه وثمار الذكر؛ وحوّل فضاءاته إلى عالم مشاعر محاطة بنسائم ألطاف ربانية، تقوي العزائم وتلف المشاعر، بلذة المعاني المنبثقة من الأرواح، لقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾(النُّور:٣٦-٣٧)، وفي نشوة روحية بدأت تربطني بجمالية سيرة العظماء من الأنبياء وورثتهم من العلماء كنت أسأل نفسي في صمت: "أيمكن تجديد منهج الأنبياء في زمن عودة الفرسان ونداء الروح؟". وكأنه سمع سؤالي فأجاب:

– نعم يا سيدتي ممكن.. لقد بدأ الفارس المقدام بالتلطف في البحث عن سبل الانتقال إلى البيت الربيعي، وبدأت البذور تجمع من "إزمير" إلى "أَدِرْنَة" إلى "أَرْضِرُوم"، إلى الأماكن المجاورة، لتملأ مخزن بذور القمح، الذي سيجمع للقاح السنوي المقبل. كانت المواسم التعبدية متقلبة الأطوار، قد تستقر لسنوات، لكن تأتي عليها مواسم تمزق أرجاءها العواصف التي غالبا ما تنتهي بفيضانات غير محسوبة. ورغم السير بمنهج التلطّف أمام العواصف الهائجة، كان مآل خبير المستقبل، الحجز على مخزونه الذي جمعه في أهبة سفر لتغيير عنوان رحلة العزم والكرامة، فجمعه كمن يجمع مواقيت صلواته، ظهره بعصره، وعصره بمغربه، متضرعا لمولاه سائلا إياه البر والتقوى ومن العمل ما يرضى. وكما تعلمين، فدعاء المسافر ليس بينه وبين الله حجاب، كدعاء المظلوم. فما كان إلا أن طويت مسافة الطريق، وجاء الإعلان بمرسوم توثيق ملكية مخزون بذور اللقاح، وبدأ سيل أمطار الخريف، ينهمر على فلاح البذور

قبل غرسها.. فتشبعت الأرض وارتوت لتستقبل كميات من قمح متلحف بنسائم سميد ممزوج ببركة أحلام الأصفياء.. فنبتت في أعماق المدن والقرى، براعم فواكه شجرة المعرفة.. شجرة السعادة الإنسانية...

الفصل الثالث:

الطريق إلى العمرانية

الطريق إلى العمرانية

الجلسات الاستشفائية لليوم الأول، عادة ما تضغط على النفوس وتتعبها، لتحولها في محاولة الاستجابة للعلاج، إلى مجرد أجسام فضائية معقدة، يستعصي معها انكسار القيود والأغلال النفسية بسهولة.

أحسست بتعب ذهني غير عادي، شاركني فيه ربان الرحلة زياد، حيث عبر احمرار عينيه عن شعور مزدوج، نطقت به في صمت داخلي، لكن لم ينطق به زياد. "زياد أبي" كما ينادونه في تركيا، تطوع بنفسه لتحصيل ما وراء أفق الدنيا، ملبّيًا نداء اللانهاية الذي أشرب في قلبه، وغَذّى روحه.

ونحن نعْبر جسرًا من جسور البوسفور، الذي يصل البحر الأسود، شمالا ببحر مرمرة، وفي وقت ذروة ازدحام المواصلات، هتف منادي المؤذن، بصوامع إسطنبول، ليقشعر بدني وينقلب إحساس التعب إلى لهفة شوق أمّ رؤوف تضم بصدرها الحاني، صوت الأذان الملبي، بعدما أريد له زمن التيجان المؤقتة القذف به في اليم، وليبعث في فؤادها الفارغ الذي لم يشأ القدر لحكمة إلهية أن يملأه، كما ملأ فؤاد أمّ موسى، بحياة تبعث بسخاء نغمات عشق لوصال رباني يتجاوز كياني.

إنه نداء التاريخ الذي سافر بي عبر الزمان، إلى عهد السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني، وأوقفني عند محطة فتح القسطنطينية بجيشها المكون من ٢٦٥ ألف مقاتل، في مقدمتهم الشيوخ والعلماء وكبار رجال

الدولة، يقودهم السلطان محمد الفاتح، يتقدم تحت وابل من النيران والسهام، ليقتحم بجنوده أسوار المدينة، ويدخل السلطان محمد الثاني يوم ثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ / ٢٩ من مايو ١٤٥٣م فاتحا ملبيا نداء ربّه، ساجدا حامدا لفضله ونعمه.. فأَعلن الأذانَ في كنيسة آياصُوفْيا، وأمر بإقامة مسجد في موضع قبر أبي أيّوب الأنصاري.

نعم إنه نداء الروح.. ينبعث بروح عودة فرسان جدد.. حطّموا بنورانية أرواحهم وبفتح الله على يدهم خرافة الخرافات، وأسطورة الأساطير.. تجاوزوا بأفكارهم، وكلماتهم، وحكمتهم، وكفاحهم وقدرة تحمّلهم، الرقم القياسي في موسوعة جينيز العالمية.. فتجاوزوا زمانهم ومكانهم، وكثفوا جهودهم لجمع الصيف بالشتاء، والشتاء بالربيع، لتتساقط أوراق الخريف، وتنمحي في صمت مهيب وهدوء حكيم.. تلك أسماء سميتموها انتم وآباءكم.. وشهدت مريم حفيدة المجاهد الأنصاري طلحة الدريج، رفيق درب الفاتح، وأبي أيوب الأنصاري على سقوطها واندحارها.. أمام قلعة صممت هندستها على شكل اسم محمد ﷺ.. وبارتفاع صوت آذان عثماني أصيل يذوي "الله أكبر، الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح"...

تم التوقيع النهائي على ضمور وشحوب ونهاية مَن فكّروا يوما في قطع مد تيارها النوراني المتناغم، مع مشاعر الملكات الإنسانية.

كنت أدرك ثقل هذه المعاني على نفسي وجسدي، ورغم ثقل الضغط الذي شد عصبة كتفي، حاولت الإمساك بيد الطفل جمال الصغير، ابن الخدمة وحفيد شراب الوصال.. عساي أستعيد قوة مشاعري وأضبط انفلات وصلات تناغم روحي.

كنت أسترق السمع، من روح من كانت عيناه توحي بالعياء، وأعلم أن العياء في هذا المسلك لا يعبر عنه باللسان، لأنه فعل ملتهب، وامتحان عسير أمام جسر بركاني متفجر، يسير فيه السالكون، بأقدام حافية مكتوية، بلهيب نار حارقة، تطفئها مقامات التخلية والتحلية.

إنه تفجر ألطاف مقامات القلب والشعور والحس بطاقات معنى المعنى.. يتمدد شوقا في أغوار ملكات من يذوق نشوة تعانق امتداد الزمان والمكان، بنفحات إيمانية تحفر هناك عميقا في مجرى ينابيع معراج السالكين.

كان الهدوء يخيم بنفحة رحمانية على ركاب الحافلة التي بدأت تنعرج نحو درب ضيق يوصل إلى باب نزل "باران"، حيث اللقاء بنسيم أمان يحتضن آمالي الإنسانية في الأمومة، بل في عشق أصيل لكل أبناء وبنات العالم.

نزلت أمّ سداد من الحافلة لتودّعني، بينما الطفل جمال يدير رأسه الصغيرة نحو أمه، ويلوح بيديه الصغيرتين من نافذة الحافلة، وبابتسامة ملائكية يتخللها حياء منبعث من فطرة الأصل، يبادلني التحية والتلويح وأنا أردد في دعابة، "جمال شُوكْ كُوزَال، جمال شُوكْ كُوزال".

وفي سمو آداب راقية، كانت أم سداد تصر على إيصالي لقلب بهو نزل الأعماق المرجانية، لتضمني بعطف دافئ كأنها أم حنون، تسلمني لرعاية نزل سياحة العاشقين، حيث العناق مع روح مرجانة المرجانات فاطمة.

باران نزل فيض الروح

عند وصولي بهو نزل بَارَان -وباران باللغة التركية تعني "الغيث"- وجدت فاطمة في انتظاري وهي تقول:

- هُوشْ كَالْدِينِيزْ مريم أبْلا، هُوشْ كَالْدِينيز. اشتقت لك...

ترددها وهي تركض نحوي لترتمي في أحضاني كطفلة عمرها سنتين:

- ما بالك يا فاطمة تلهثين؟ وما بك حافية القدمين في هذا البرد القارس؟

- أنا مشتاقة لعناقك أستاذتي لدرجة لم أتمكن فيها من لبس حذائي..؟! كيف كان يومك أستاذتي؟

- آه يا فاطمة، ماذا أقول لك وأنا أشمّ باحتضانك رائحة نفسك الزكية تسحبني، نحو رائحة عطر ياسمين البساتين والحقول التي كنت أجوبها اليوم.!

وبلغة إنجليزية تختلط فيها نكهة مد الحرف التركي، تسأل فاطمة:

- أين ذهبت إذن؟

- يا لله لا تسأليني أين ذهبت، فأنت تعرفين الأماكن التي زرتها.. ولكن اسأليني عن شيء آخر يا فاطمة..؟

- أسالك ماذا يا مام..؟

تقولها وهي تبتسم وتضغط على مفتاح المصعد نحو الطابق الخامس.

لم أكن بعد وصلت إلى مرحلة استيعاب سر أسرار الخامس.. فقد كنت أطل اليوم من شرفة مدير المدرسة في الطابق الخامس.. وسكني في نزل باران في الطابق الخامس.. وقد كان سجل ميلادي في اليوم الخامس.. من الشهر الخامس.. ليبقى سر حكمة اكتمال المنافذ المفتوحة على الخامس.. في أحضان العناية الإلهية...

في المصعد الضيق، كانت نور تمسك بيدي.. بينما كنت أردد في نفسي: "أخيرا يا مريم، عدت إلى حضن فاطمة، لتنعمي بدفء لين ورقة النور الذي يشع من أعماق روحها".. أتأمل وجهها الملائكي وهي تخبرني عن برنامج موعد الغد، وكأنه مرآة تعكس سر فيوضات فضاء المكان..

- إلى أين سنذهب يا فاطمة غدا؟

فاطمة:

- إلى عشاء رتّبته لنا الأَبْلاَ عائشة، مع أَبْلا متولي.

أسألها:

- مَن الأبْلا عائشة؟

فاطمة:

- عائشة أَبْلاَ، هي ابنة الخدمة، وهي المكلّفة بترتيب برنامج رحلتك العلمية النورانية أستاذة مريم.

أجبتها:

- أظن أنني تذكرتها، هي السيدة التي استقبلتنا صباحا في بهو النزل، وأخبرتني أنها أَبْلاَ متولّية بالعلم، حضرت لتعلم البنات دروسا في الأخلاق والتزكية.

* * *

لم أكن أميّز بعد معنى الأَبْلهات المتولّيات والعالمات. فقط أعرف أن "أَبْلاَ" هي "الأخت الكبيرة"، كما علمت في الثقافة المصرية، لكن المصطلح هنا في تركيا، أضيف له معنى المتوليات..!

كنت أحاول استفسار الأمر، استعدادا لتلبية دعوة الأَبْلاَ المتولية التي أجهل تماما معناها، وفي استغراب شديد أسأل رفيقتي:

- غريب اسم "متولي" للمرأة، أليس كذلك؟! نحن نعرف عم متولّي والحاج متولّي، لكن أبْلا متولي لم نسمع بها من قبل.!

ما بين حضور وغياب لغوي للتواصل، لم أجد بديلا، من الصمت جوابا عن أسئلتي.. فالعزلة اللغوية مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب.. ودفء مشاعر ترحيب السيدتين المرافقتين لمأدبة العشاء، لهيب يجمع حوله، كل الحاضرين في فصل برد ليالي إسطنبول.. في زاوية الغرفة، أهيئ نفسي للبس الجلباب المغربي الذي رشحته، ليحمل رمز معاني روح التراث المغربي الأصيل في مثل هذه المناسبات.. بروح مبادرة سلامة سير اللسان، تنطق إحداهما، محاولة كسر حاجز الانزلاق في هاوية الأخطاء اللغوية، تلك اللغة العربية التي كانت ذات يوم في تركيا أخطر من تجارة الأسلحة والمخدرات.! بمعرفتها البسيطة باللغة العربية، استطاعت فهم فحوى السؤال.. ورغبة منها في كسر صمت لحظات الانتظار، نطقت بلغة عربية ممزوجة بلكنة بدو سورية:

- نحنا نروح عند الأبْلا وهاي الأَبْلاَ متولي.. نحنا أَبْلاَ وهي أَبْلاَ، بس هيو متولي.

وبابتسامة عريضة ممزوجة بلطف مشاعر، نحو من استشعرت، بأنها تريد شرح أمر مهم لم أفهمه..

- جاء ردي "بأيوا "...

وردي "بأيوا " ممتدة، دليل على عدم فهمي بوضوح للموضوع.. قصة "أيوا "ممدودة، هي من وحي تجربتي مع أستاذي أسعد السحمراني، أستاذ العقائد والأديان المقارنة بكلية الأوزاعي ببيروت، الذي ألف خمسين كتابا ونيفًا، في بحر العلوم، من فكر وآداب وتاريخ عقائد وأديان وفلسفة، وموسوعات، وتربية، وفكر إسلامي.. وأشرف على تصحيح رسالة أطروحتي، بنفس مناهج التحفيز التي سجلتها في مدارس الفتح التركية.. الدكتور أسعد حين كان يدعى إلى المغرب، لحضور المؤتمرات وللدروس الحسنية الرمضانية، كان يسمعنا نتحدث باللهجة المغربية الدارجة، فلا يفهم شيئا.! لكنه يصر على عدم إحراجنا كل مرة بالسؤال عن المعنى فيردد "أَيْوا "بالمد.. فنعي جيدا عند حصول المد، أن الرجل لم يفهم معاني ما نقوله بالدارجة.. وبلطف نحاول تغيير الحديث باللغة العربية الفصحى، حتى يستوعب معاني الكلام.. أتابع:

- أيوا يا فضيلة، قصدك أنكم تسمّون في تركيا الفتاة باسم "متولي"؟

فضيلة:

- لالالالا... نحنا ما بنسمّي متولّي.. الأَبْلاَ متولّي هي، من النسيان اللي تعطي منحة للولدان..

- أيوا...

الآن لم أمد فيها كثيرا، لأنني حاولت استيعاب جزء من الجواب.. صحيح لم أفهم المعنى كاملا، لكن كثرة أسفاري العلمية، وتعاملي مع لهجات عديدة، علّمتني مهارة تركيب المفردات.. فمدلول المنحة، والعلاقة بالولدان، أحالني إلى تركيبات المتشابه من الألفاظ.. حوّلت

"نسيان" إلى نسوان، و"ولدان" لطلاب، فحصل المقصود..

الساعة الثامنة موعد العشاء، والسيدة رزان في انتظارنا، تحت حديقة مدخل النزل توجه لنا إشارات ضوئية متتالية، توحي بأهبة من استلمت قيادة القافلة، للاتجاه نحو البيت الموعود. بدأت "رزان" تجوب بنا شوارع إسطنبول التي تشبع حس الأبد في الوجدان.

الحاج متولي على ضفتي البوسفور

شوارع إسطنبول تشد المتأمل في جمالها بروعة الشرق والغرب الرابض في كل زاوية منها. أحيانا يخالجك إحساس بأن جميع الشوارع متشابهة، ببيوتها ومحلاتها، وأسواقها وهندسة زقاقها، وحلي شوارعها.

"رزان" تتنقل بنا من شارع لآخر، وكأنها تقدم لي نبذة جمالية تاريخية، عن هوية ذات القلبين المشلوحين على ضفّتي البوسفور، كأنها خاطبة تعرض لي برق بالغ، مفاتن عروس أتوسط لخطبتها.

من على جسر مضيق البوسفور، كنت أطلّ ناحية الضفّتين لأسجل بعبوري شهادة على قوة هذا الجسر.. الرابط الحضاري بين ثقافات أسياد أوربا.

جمال مضيق البسفور والجسور المعلقة، والمساجد الكبيرة بعتقها، وخشوع أرواحها، تفترش شواطئ البحر... كِلا الضفتين تزين المضيق، بأبنية تاريخية أنيقة، تنوع نمطها المعماري، مع بهجة عمارة قصور، تستريح تحت ظلاله بأمان من دون أن تخشى أمواج بحرَي مرمرة والأسْود. البواخر تخترق المضيق بهدوء، ومياهه تمتزج بألوان سحب السماء.

هكذا هي المدينة التي سجلتها ذكريات الأديب الروائي التركي"أورخَان بَامُوق"، والذي تبدو بسفورا لبحر داخلي يستعصى تصنيفه. فمساجدها

شامخة العمران، تنطق بفنّ المعمار الإسلامي، ككتاب تاريخي يشهد وينطق بحكمة فائضة. مآذنها الممتدة تسمو نحو الأفق، وكأنها نغم مسبوك في سانفونية ممتزجة الأصوات تعبر بصوت واحد عن لحن الخلود. صوامعها تسحر العيون ببريق صنعتها، وتأسر العقول بتلألؤ نجوم تحوم فوق سطوحها، لتكشف ما وراء ستار امتداداتها، ومقصد تفرعاتها، نحو ذروة عرش العناية الإلهية.

إن جند الإدراك الذين يرتّبون برنامج رحلتنا، يدركون تماما سر وظائف الغاية والوسيلة، ويشغلون منافذ الرؤية المتأملة في اللانهاية.. يحولون هذه الصروح الحضارية العمرانية، إلى أفلاك سماوية، تدور في الفلك القرآني، لتجدد أركان الحضور المعماري، وتربطه بجسور البناء العمراني للإنسان، تيسيرا ومواءمة وتعايشا.

إنهم من يقطعون زمن العقم الممتدّ، منذ قرون بين الصوامع والمآذن، لينتجوا جيلاً من الرحم الولود، الذي ملكوه سلامة الوجدان، قبل سلامة البنيان والمعمار.

كانت "فضيلة" تحاول قطع شرودي، المنسجم مع فضاءات جمالية المكان، وهي تقول:

– أستاذة مريم، نحنا أَبْلاَ مدرس.. ندرّس قرآن، علوم، تفسير، تزكية، أخلاق، رسائل النور.. والنور الخالد للأستاذ فتح الله. ونحنا رايحين هالحين عند أَبْلاَ، بسهاي الأَبْلاَ، هي ما تعطي دروس، هي تعطي المنح للبنات والوْلدان مشان يدرّسون.. وهي متولي بالبنات مثل أمّهم، يعني هي تجيبهم عندها البيت. تروح معاهم السوق، الطبيب لو مرضون، فهمانا عليا أستاذة.

– نعم نعم، ماشاء الله، فهمانه عليك يا فضيلة.. فهمانه. وكم منحة تتكلف بها الأَبْلاَ المتولي في السنة؟

– هاي الأَبْلاَ للي نحنا رايحين عندا، بتعْطي في السنة ١٠٠ منحة، وكل منحة بـ ٢٠٠٠ أوروو.. في عنا من الأَبْلاَت والأبيهات الأصناف مَن يعطون ٥٠٠ منحة في السنة، مع شراء بيوتات فخمة وإسكانهم فيها..

كادت أنفاسي تسحب مني وأنا أقف إجلالا وإكبارا، لمن أوصلت المعنى الحقيق للمتولي. الآن فقط استوعبتُ معنى المتولي.. فمتولّي الأناضول ليس هو الحاج متولّي الذي عرفناه في المسلسلات المصرية، متولي تركيا تقوي عزم الهمم لبِناء جيل المستقبل، والحاج متولي تولى التفنّن في تعدد النسوان، على حد تعبير فضيلة.

آه يا عم متولي

آه يا عم متولي، كم أخذتَ من أعمارنا سدًى في حكي الفراغ الممزوج برائحة الوهم! آه يا متولي المسلسل المصري، كم سحرت ملايين الشباب المحروم من الزواج بواحدة، لمحنهم المادية، وهم يتفرجون على حكاياتك مع زوجاتك الأربعة.!

هيهات هيهات على مقاربة الوهم بحقيقة مرارة وهج مشاعر شباب وشابات، لا يسمع أنين آلامهم، ولا تحترم خصوصيات مرحلتهم المأزومة، في النصيب من مشاعر الحب بالحلال والاستقرار.!

أين أنا من سيناريْوهات متولّي مدينة الإعلام الفرجوية! رحمة الله على متولي العرب، مَن تولى عن درب بناء الإنسان.. رحمة الله على مَن ولى ظهره بعيدا عن مَن هم أشد حاجة للتولي.. احمرّ وجهي، وتوقد رصيد إيماني، فتعاطفت مواجيدي مع أشجاني، بألم تحول إلى آهات تتلظى بالحزن والحسرة.. أنا من حسبت نفسي مسكنة أوجاع الطلاب بنتاج المعرفة، على المستوى العقلي والروحي، مزودة لهم بلقاح علم يغذيهم العمر كلّه..

أين أنت يا محبة طلاب العلم ونصيرتهم، في حب وعشق العلم والمعرفة؟ أين أنت يا مريم مما فهمته الآن من أحكام فقه التولي.. اللهم

تولّنا.. أساتذة وطلابا.. برحمتك..

آه يا زمن المعرفة.. ويحا لمن تخلوا على توليك ورعايتك.. ويحا لمن أداروا ظهرهم لك وجحدوا لأفضالك عليهم. آه لمن أجادوا بالعطاء والسخاء، لبناء جدران تحمي الإنسان، وتنكّروا لبناء العقول، وتكفّلوا بالأرامل ويتامى الفقر، وتناسوا رعاية أيتام الجهل..

زودوكم يا أبناء جيلي بخبز جاف، مِن مرق المعرفة والعلم.. كسوكم بثياب قطنية صوفية، نسيجها مختلف الصنع، وفرطوا في بناء أركان العلوم في زوايا عقولكم...

نسائم عطر السائحين

تقطع "فضيلة" ذكرى آلام تشعرني بأنه قد تطول سنين من الانتظار، لتحريك عملية بناء العقول، واستخراج كنوزها من الأعماق المرجانية. وهي تتمتم مع "رزان" بكلمات تركية لم أكن أعرف معناها، ولكن من كثرة ترديدها للفظ الجلالة "الله، الله، الله"، أدركت أن حدثا ما وقع.. فالقلق بادي في وتيرة الكلام، وحركات اليد توجه في إشارة لليسار. كنت أعلم أن تدخلي لن يسمع وسط أصوات المعنيات بالأمر، ولكن لم أجد بدّا من التفاعل، فأنا واحدة من المجموعة، وعليّ أن أشارك في معطيات هذا الأمر الجلل.

- خير إن شاء الله، خير...

"فضيلة" التي تفهم لغتي، كانت منشغلة في توجيه وترشيد صاحبة السيارة، بينما كنت أحاول رصد معاني الإشارات التي توحي بأنه قد حصل خطأ في الطريق، وضيعنا المخرج الصحيح.

الأمر ليس سهلا، فنحن في الطريق السيار، وإذا تابعنا السير سنتوجه نحو مدينة بُورْصَة.. فجأة ومن دون ارتباك، تدير "رزان" مقود السيارة، وتتراجع إلى الوراء بحذر شديد في اتجاه المخرج. أعناقنا مستديرة نحو الاتجاه المعاكس، وعيوننا مترصدة لنتائج مجريات الحدث..

الكل يردد "بسم الله الرحمن الرحيم"، و"زران" تمسك المقود بتحكم

واضح، إلى أن وصلت إلى فواهة المخرج..

- الحمد لله، الحمد لله يا رزان.. أنت سائقة بارعة.

أقولها بالعربية، وأطلب من "فضيلة" أن تترجم لها..

فترد رزان:

- أستغفر الله.. أستغفر الله...

نعم شخصية المرأة التركية قوية ومتميزة في مواجهة حالات الطوارئ... ذكّرتني قوتها وإرادة صمودها بقصيدة حي النساء، لعبد الرحمن العشماوي وكانت مهداة لنساء غزة فلسطين.. فبدأتُ أرددها في صمت وأنا أعلم أنني حتى لو جهرت بأبياتها لن تفهم المعاني:

حَيِّ النِّساءَ فقد مَسَحْنَ العارا ... وهَطَلْنَ غَيْثَ بطولةٍ مِدْرَارا

حيِّ النساءَ وقَفْنَ رَمْزَ بطولةٍ ... وغَدَوْنَ في ليلِ الخضوعِ مَنارا

لمَّا رأين المعتدينَ تجاوزوا ... كلَّ الحدودِ وحطَّموا الأسوارا

ورَأَيْنَ سيفَ الغدر يحصد جَهْرةً ... أبناءَهُنَّ ويَمْسَح الآثارا

ورَأَيْنَ أنصافَ الرِّجال توقَّفوا ... فخيولهم لا تعرف المضمارا

ورأَيْنَ أُمَّتَهُنَّ تفتح بابَها ... للغاصبينَ وتَخفِضُ الأَبصارا

ورَأَيْنَ صَمْتًا عالميًا قاتلاً ... خَذَل الضعيفَ، وأيَّد الأشرارا

لمَّا رَأَيْنَ اللِّصَّ يقتل آمنًا ... ويُخيف أرملةً، ويَهدم دارا

أَسْرَجْنَ من خيلِ الشموخِ أَعزَّها ... وضَرَبْنَ من دون العدوِّ حصارا

ما سِرْنَ سَيْرَ المستكينِ، وإنما ... سَيْرَ الأَبيِّ يواجه الأخطارا

يَحْمِينَ أشبالَ العقيدة حينما ... فَتحَ العدوُّ على البيوتِ النَّارا

طَيَّرْنَ في الآفاقِ صَقْرَ كرامةٍ ... من بعد أنْ غَذَّيْنَه الإصرارا

وَاجَـهْـنَ طاغيـةَ الـزَّمـانِ بهمَّةٍ   ومَــــلأْنَ غـــزَّةَ عِـــزَّةً وفـخـارا
وكَشَفْنَ للدنيا العدوَّ، فلم يَعُدْ   يَـسْـطِـيـعُ تَـلفـيـقًا ولا إنـكـارا
مُتَحَجَّبَاتٍ سِرْنَ في أَلَقِ الضُّحَى   فَـغَـدَوْنَ في وضـحِ النَّهـارِ نهارا
حَيِّ النساءَ الفاضلاتِ رَفَعْنَ من   إِيــمــانــهــنَّ بــربِّــهــنَّ شـعـارا
جَاوَزْنَ حَدَّ المستحيل فَصِرْنَ في   بـاب الـشـمـوخِ لـغـيـرهـنَّ مـنـارا
أَبْـصَـرْنَ مـليـارًا ونـصفًا غافلاً   فـرمَـيْـنَ سَـهْـمًا يُـوقـظ الـمـليـارا
حيِّ الـنساءَ لَـبِسْـنَ ثوبًا سابغًا   ونَـفَـضْـنَ عـن وجـهِ الإبـاءِ غبارا

وصلتُ إلى هذا المقطع، حين أوقفني سؤال "فضيلة" عن شكل خياطة جلبابي الذي أعجبت به وزميلاتها.. تتابع فضيلة الحديث معي عن القفطان والتطريز المغربي، وكأن شيئا لم يحدث!. إنها قوة رائدة في حسن إدارة الأزمات.

هناك مشترك فني غير عادي بين المرأة التركية، والمرأة المغربية والمسلمة عموما، في القدرة على تحمل المسؤولية، وحسن إدارة الأزمات الأسرية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية...

فضيلة:

- أستاذة مريم، هذه الأَبْلاَ هي تسكن هنا في هذه الإقامة الفخمة. نحن وصلنا إلى هنا إلى بيت الأبْلا، الحمد لله على سلامتنا.

الأَبْلاَ متولي توأمة فاطمة الفهرية

كان الجو باردا جدا بالخارج، لكن ما سمعته من "فضيلة" عن حكمة معنى المعنى في فهم حكم صيغة الأَبْلاَ المتولي، جعل جسمي يتّقد بحرارة، كمن قطعت مسافة عشرة كيلومترات عدوا من دون توقف.

في منحدر منزلق نحو إقامة مركب فخم، يضم العديد من البيوت والفيلات والقصور المحاطة، بحراسة خاصة، موزعة على زوايا باب المدخل الرئيسي.

قبل أن ننحدر يمينا عبر مدخل محفوف الجنبات بنباتات برية خضراء، كانت السيدة متولي تقف مرحّبة بنا بابتسامة ملامح ملائكية... زينة أنيقة توحي بأنها سيدة من نساء المجتمع الراقي، ممشوقة القد، بشرتها صافية، طلعتها كالشمس أقرب إلى السماء، وبريقها كالقمر في أقصى الكرة الأرضية. شعرها خروبي، وأسنانها بيضاء، متساوية مثل أسنان المشط.. وجهها مرآة مستديرة كأنه قمر مضيء.

- مرحبا مرحبا، هُوشْ كَالْدِينِيزْ، هُوشْ كَالْدِينِيز..

تتقدم نحوي بأدب حسن ضيافة الأحباب. تحضنني بدفئ له معنى وروح. وبفورة فرح ومظاهر بهجة الأعياد تنحني غير مبالية بعمق الأنا الداخلية.. تحاول مساعدتي في سحب أزرار حذائي الشتوي، ووضع خف بنفسجي اللّون تحت كعب قدمي. أمسكتُ يديها الناعمتين، بكل

لطف، وأنا أردد "أستغفر الله، أستغفر الله"..

فأجابتني بابتسامة تعبئ من معين قلبها المفتوح، كمن يعبئ من ماء الكوثر:

- يُوكْ يُوكْ، أَستغفر الله، أستغفر الله. أنتم العلماء، ونحن في خدمة أهل العلم.

ذكّرْتِني يا أَبْلاَ متولي بفاطمة الفهرية، خادمة العلم والعلماء، مشيدة أول جامعة في التاريخ الإنساني بمدينة فاس. يا له من تواضع نساء الطبقة الراقية، حين يدخلن إلى عالم الإمكان العسير المفعم بأسرار مصدر الروح، فيكسرن طوق الأسر الذي وضعه صانعوا المجد المزيف بالماس والزمرّد واللؤلؤ.!

كانت روحها المفعمة بطاقة نورانية، مصقلة بقوة عزم إثبات الذات، وتذكير النفس بالسكون الدنيوي، قبل سكون أبدي يهوي بها إلى قاع الأرض. تنسجم جمالية روحها، وتأثيث فضاء المكان، المختلف فرشه، ومائدته بذوق عرفاني مغاير.

كان الصالون عبارة عن غرفة مزدوجة، تجمع بين مفارش، تنطق بروح أصالة البيت التركي.. سجاد راقي، لوحات تعبر عن تراث ينطق بسر من سطر ملامح ريشتها.

بلغة إنجليزية فصيحة، تستبقني صاحبة النخوة الممزوجة رائحة عطرها بنسيم التواضع. سألتني:

- أستاذة، تتحدثين اللغة الإنجليزية؟

أجبت:

- نعم نعم سيدتي.

أقولها وأنا أتحرر من سلطة قهر اللاوصال اللغوي والروحي، الذي يتجانس ومخارج الكلمات، فيصل شوق العاصف، من القلب إلى القلب.

يبدو أن السيدة متولي لاحظت لهفة ردي المتسرع، فلا سلطان على لساني من منع جوارح الشوق، لسماع مباشر، دون ترجمة، فجوانح الروح تعشق نسيم عطر الأحبة.. وبابتسامة رقيقة تلملم حواشي شفتيها. سألتني:

- ما اسمك سيدتي؟

- اسمي مريم، وأنا ضيفة الأحبة من بلد المغرب؟

علقت مبتسمة:

- تقصدين فاس. أنا زرتها من سنتين رفقة عائلتي.

وكهائمة ولهانة بتراب أرض مملكتها المغربية، أجبتُها جواب العاشق السائح، الذي يضرب فيافي الصحراء، سيرا نحو ديار الحبيب:

- المغرب يا سيدتي أرض التعايش، تَوَارَثَ تقاليدَ كرم ضيافته، وترحابه بالوافدين عبر الأجيال. كُتبُ تاريخ بلادي، جملت صفحاتها، بشهادات كرم وشهامة المغاربة.. خصال علمائهم المبنية على روح التسامح، جعلتهم يستقبلون الوافدين المضطهدين الفارين احتماء بأرضه. لقد صنع المغاربة بتقاليد الاحتفاء، تاريخ المغرب الوضاء. بالتسامح أشرقت شمس الإسلام على البلاد، وبفضله التفّتْ قبائلُ المغرب الأمازيغية، وبايعت المولى إدريس الأول القادم من المشرق إلى المغرب عام (١٧٢هـ)، بعد هزيمته في وقعة فخ سنة (٧٨٥م)، إكراما لنسبه النبوي الشريف. المولى إدريس الأول سيدتي، لم يكن مغربي الأصل والجذور. دخل المغرب لاجئا محتميا بأهلها، فجعلوا منه تكريما

لنسبه الشريف ملكا عليهم. هل سمعت سيدتي هكذا تسامحًا في تاريخ البلدان؟! فأي نعمة هذه التي تغرق قلوب أجداد المغرب، أمازيغا، وعربا، وحسانيين، وأندلسيين، في زمن كانت فيه بنادق ومدافع البلدان، تحاصر كل غريب يسعى بين القرى الخالية، وتصادر حقه في الحماية وطلب الأمان! الأمان -سيدة متولي- لم يكن موجها فقط لسلالة الأحفاد من النسب الشريف، بل كان مكفولا للناجين من محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس، فاحتمت في موطنه أسر عريقة من المسلمين واليهود، ضمن أكبر عملية إنقاذ لإحدى مشاعل الحضارة الإنسانية في الأندلس، والتي أرادت العنصرية الدينية، مسحها من التاريخ. هذا هو المغرب الكبير سيدة متولي. أما "فاس" التي تسمّين بها المغرب، فكانت شاهدة عصر على احتضان جموع الآلاف الوافدين من الأندلس ومن المشرق العربي. دعيني سيدتي أسرد لك ما وصف به ابن الخطيب مدينة فاس: "اجتمع بها ما أولده سام وحام، فعظم بها الالتئام والازدحام، فأحجارها طاحنة، ومخابزها شاحنة، وألسنتها باللغات المختلفة لاحنة، ومكاتبها مائجة، وأوقافها جارية، والهم إلى الحسنات وأضدادها متبارية". هذا التعدد أفرز اندماجا لا نظير له بين مختلف المكونات الثقافية واللغوية، على مستوى اللباس والطبخ وفنون العمارة والتصوف والآداب والفن والموسيقى والأمثال، مما دعاهم لتسمية هذا النسيج المتعدد الثقافات بـ"أهل فاس"، وهكذا عرفتموها -أهل الأناضول- ولا زلتم إلى اليوم تسمّون أهل المغرب بـ"أهل فاس". "فاس" يا سيدتي، هي مدينة العلم ومجد تراث الأجداد. فاس، أول جامعة في العالم بأسره، وهي جامعة القرويين التي بَنَتْها فاطمة بنت محمد الفهري المكناة أم البنين، عام ٢٤٥هـ / ٨٥٩م

التي أصبحت بحج الوافدين من علماء العالم، القلب النابض للمغرب.. القرويين سيدتي منها أخذ البابا سلفستر الثاني (Gerbert d'Aurillac) منتصف القرن العاشر الميلادي علم الحساب، فكان أول من أدخل الأرقام العربية إلى أوروبا. أسَمعتِ شيئا عن هذه الأطوار التاريخية وأنت تجوبين أسوار مدينتها العتيقة؟!

طبعا لا، تجيب السيدة متولي وهي يقول:

- كيف لنا أن نسمع هذا الخير؟ فالمرشد السياحي الذي رافقنا كان مفتونا بأخذ الصور للأطفال، وأوضح لنا بعض الإشارات البسيطة فقط!

سراج الروح ببلاد الأناضول، تحاصره أضواء تشع أنوارها ما بين فاس وإسطنبول. وما هي إلا ثوان حتى عدت إلى زوايا نور آفاق سكن العاشقين، ورفع هامات المحبين فاس عاصمة المغرب العلمية والعرفانية والروحية والفنية والحضارية. ففاس جزء من هذا المغرب الكبير، الممتد من شماله نحو أغوار مجاهل إفريقيا، ليتلوّن بأحلى وأبهج حلة الرباط وسلا والبيضاء، ويتعطر بعبق رائحة ورد قلعة مكونة وأكادير والراشدية، ويخضب بحناء زعفران ورزازات ومراكش، ويتوج بتيجان زمرد عرفان تطوان وطنجة عروس الشمال، ويتلحف بإزار خمار وجدة والناضور والحسيمة، ويحلى بفضة أكادير والصويرة وتارودانت، ويزين بذهب تزنيت وتافراوت والعيون في الصحراء المغربية.. هذا يا سيدتي الكريمة، جزء من كلّ تتربع عليه عروسة شمال إفريقيا المغرب، والتي تسمّونها في تركيا "فاس"...

تبتسم مريم إحدى صديقات صاحبة البيت، التي جاءت خصيصا للترحاب بنا، وهي تردد:

- أنا مشتاقة لزيارة هذه العروسة الفاتنة الممزوجة بسحر روح أهل المغرب الطيبة.

كان النقاش يجرني وصاحبة البيت للحديث عن ثقافة بلدنا وعن عاداتنا في الأكل والطبخ.. عن علمائنا وزوايانا ومناظرنا الخلابة في المغرب.. بينما كانت ترص أصناف وأطباق المطبخ العثماني الشهية.

الفصل الرابع:

نساء الخدمة أطياف مائدة المحبة

أطياف مائدة المحبة

الرقي الحضاري في خدمة الضيف، مشترك ثقافي، عند أهل الأصل والنقاء الروحي، ممن تشبعوا بقيم رسمت على لوحات أرواحهم "خادم القوم سيدهم".

أَبْلاَ متولّي لها ما شاء الله من المساعدات.. أنظر إليهن، أراقبهن من مدخل الصالون وهن يقدمن لها الصحون تباعا، دون طواف حول المائدة. هذا يعني أن الأبْلا المتولي هي من ترغب في خدمة ضيوفها، وتشرف بأن تكون سيدة القوم بخدمتهم. كالحمامة في خفتها ورشاقتها، تحمل الصحون، وتزين مفرش المائدة بألوان طيف مشتهاة من الأطعمة.

أين أنت يا سيدة متولي من نساء الحَرَمْلك والحريم؟! أين أنت من الجواري الحسان المحاطات بالقصر العثماني، كما أخبرتنا عنهم دواوين السلاطين العثمانية؟! أكيد هي من بساتين زهر محضن العارفين بالله، تهب نسائمها على الصدر المتشبع بالزهد في جميع أحواله. هكذا أخبرتني ذات يوم أمي. أمي ابنة الحفيد المجاهد الأنصاري الدريج، كانت تؤنّبني وأنا صغيرة في بيت الزاوية، حين كنت أرفض تقديم الخدمة لكثرة الضيوف، وأتحجج بوجود طيف من المساعِدات عليهن القيام بذلك. كانت أمي الحاجة ربيعة الدريج وقتها، تشدني برفق من يديّ الصغيرتين، الممتنعتين عن خدمة الضيوف، وتنزوي بي في ركن شمالي من حديقة

البيت، وتقول لي "أنت حفيدة بيت الشرفاء، والشريف ليس بنسب أجداده فقط، وإنما بما يشرف به من حب خدمة الناس.. فحب الله مِن حب خدمة عباد الله".. وتتابع: "مريم ابنتي.. علّمنا أجدادنا أن الصدر المتشبع بالزهد، عليه أن يفكر بالزهد رغم تعارض أحواله ومشاعره، عليه أن يتعقب تحلية نشوة الزهد في النفس، وهو يضيء طريق الآخرين ويفرشها برياحين المودة والعطاء والمحبة والإحسان. ففي قلّة الأكل والشرب مع إشباع جوع وعطش الضيف نشوة.. وفي قلّة راحة النوم مع توفير فراشك لراحة الضيف نشوة وعبادة.. وفي قلّة الكلام إيثارا لسماع كلام الضيف زهد وعبادة... عليك بنيتي أن تستنشقي أحوال المحبة، وتنعمي بسر وظيفة الخدمة للمحبين، بشرف فخر عيش المساكين، هذا هو الزهد الذي درسه لي جدي، وهو ليس زهد الانزواء والبعد عن خدمة الناس"...

* * *

في وسط المائدة، تربع صحن الميزا التركية المشهور، بأطيب أنواع مخللاتها، الباذنجالية المحشوة، بصلصات، ونكهة بهارات من سوق البازار المميز. الميزا التركية، عبارة عن صحن كبير، يضم في ثناياه أشهر المقبلات التركية؛ سلطات، مخللات، محاشي، سمبوسة، كفتة نية خضراء مطحونة بالباقدنوس، وأطباق مشهورة أخرى لا أذكر مسمياتها... لكن تحضرني الآن لذة طعمها ونهكة بهاراتها..

كنت أتجوّل بعيني في فضاءات المائدة لعلّي أجد بين قنينات العصير والماء المعدني شرابًا كنت أحببت مذاقه في فندق جراند جواهر، عند زيارتي الأولى لإسطنبول.. ومنذ ذلك الحين وهو الشراب المفضل لدي، أنصح زملائي بشربه في كل محلات الطعام التركية.

سبحان الله.. وكأن درجة التجاوب الروحي جدا قوية عند بنات صرح نداء الروح... إذ ما كدت أرفع عيني من على صينية العصير، أتحسر مع نفسي عدم تحصيل المراد في تذوق نكهة الشراب المذكور، حتى قامت الأبْلا مسرعة، وهي تقول:

- أوف أوف.. عفوا نسيت الأيْران.. أستغفر الله...

نعم هو الأيْران الذي كنت أبحث عنه. لبن رائب، ممزوج بماء وملح مع نكهة نعناع طازج، وأحيانا يخلط بنكهة توم خفيفة. يا سلام، وأخيرا وصل الأيرن. كنت أطلبه وأنا أزكيه لرفيقتي، وأرشحه لها لتنعم بطعم شرابه.. كيف لا وهي بنت الأشراف الكرام الذين جاؤوا من المغرب، ليتزودوا بشراب أهل الصفا والمحبة الممزوج بلبن سائغ شرابه لذة للشاربين.!

ساحة فناء تضيء ليلة بشائر النور

أحب التواصل الروحي المباشر مع مشاعر أهل العرفان والصفا. وكأن الله استجاب لدعائي، فيسّر لي أمر هذا التواصل اللغوي الذي ينزل إلى أعماق الضمير، يستمع إلى طابع أصله، وعوالم باطنه.

لم نتواصل بلغة ثقافتنا العربية أو التركية، لكن تحدثنا بلغة إنجليزية، عَبَرْنا من خلال جسرها أبواب مدن أخرى، وانتقينا من بساتين وحدائق معجمها سر المعاني الربانية.

كانت صديقة الأَبْلاَ المتولية، تحكي لنا في شوق وصال روحي عن لذّة دفء بهجة مشاعر عاشتها في بيت الله الحرام، وهي تؤدي مناسك العمرة، وبلغة المعاجم الإنجليزية تروي تفاصيل صورة التناغم والتلاؤم الروحي، في السر الكامن أمام حضرة الحبيب المصطفى ﷺ.

عيناها تسكب دموعًا دافئة، امتدت نحو مشاعري، برجفة خفيفة، أحسستها تسري في تيار ممتد، يشحن أسلاك اتصال السائحين، انهمرت أنوار سيدي ومولاي وحبيبي محمد ﷺ على عيون قلوب مَنْ ذاق لذة الوصال الحبيب بالسلام عليه. السلام عليك يا حبيبي، يا محمد.. السلام عليك يا رسول الله.. يا حبيب الله، صلى الله عليك وعلى آلك وصحبك وسلم.

تذكرت ساعتها مشاعر أختي زكية، حين كانت تحكي لي عن هيبة

المقام في زياراتها الأولى لمقام رسول الله ﷺ، فتخشع وتجهش بالبكاء، كنت أبكي معها من فرط شوق اللقاء. وعندما أتيحت لي زيارة المقام، استحضرت خشوع أجدادي ورشفة زكية أختي. عند فتح باب المقام، تحركت مشاعري، وتوهجتْ بالشوق روحي.. فانطلقت كالسهم عدوا نحو راحة المقام. الروح تدرك جلال هيبة الموقف، والعقل ينتظم في مدارات سر الحكمة الإلهية. يستقيم الحبيب المصطفى صلوات الله عليه من قبره ويرد التحية قائلا:

– السلام عليك يا مريم بنت رفيق دربي في الجهاد الصحابي الجليل عبادة بن الصامت.

فأجيب:

– السلام عليك يا سيدي ويا حبيبي محمد ﷺ.. يا من أظهر الجمال الباهر للوجود. السلام عليك يا من حولت بقطرات نداء الروح صحاري القلوب إلى جنان خضراء. يا من غمرت بأعلام نورك قلوب المؤمنين عجما وعربا. يا من جعلت تسابيحهم تتعالى بألسنة مختلفة، وبأصوات شجية ، تتناغم بذكر الله في أعياد دائمة، مع أنفاس تسبيح الملائكة...

وأنشدت ساعتها قصيدة سمعتُها في مسجد الاستقلال بإندونيسيا من الحاج رزقي ذو القرنين أصمت البتاوي:

مولاي صل وسلم دائما أبدا على حبيبك خير الخلق والرسل
ما للمساكين مثل مكثر الزلل إلا شفاعة خيْر الْخلق والرسل
يا مذنبين قِفوا ببابه واسألوا به الْمفازَ تنالوا غاية الأمل
وقفت حول حِماه أستجِير به منكس الرأس من ذنب ومن خجل

عسى عنايةُ لطف الله تُلْحِقُنِي بالسابقين، فقد عُوِّقْتُ من كسل
لَم أنسَ قط لوَيْلاَتٍ لنا سَلَفَتْ بطيبة وزمان السعد أقبل
ونَحن في حرم يسمو بساكنه على السما والثرى والسهل والْجبل
أكرم بِها بقعة بالْمصطفى شرُفت على البقاع وضَمَّت أكرمَ الرسل
أجل من وطئ الصبرى وأفضل من مشى على الأرض من حافٍ ومنتعل
إني مشوق إلى أرض بقيع عسى أرى ضريحك من قبل انقضا أجلي
إني نزيل رسول الله من ثبتت له النبوءة عند الله في الأزل
بِمجد قدرك عند الله خذ بيدي يا سيد السداد الآمن والأول
يا من له الْموكب الأعلى بِمحشرنا والناس من خشية الْجبار في وجل
أنت الغياث إذا ضح الأنام غدا وهم من الكرب والأهوال في شغل
فنسأل الله قربا من جوارك في جنات عدن ذوات الحور والْخلل
يا رحمة الله يا نور الوجود أغث من استقام من التهويل والْملل
فما ذكرتك إلا فُرِّجَتْ كُرَبِي ولا قصدتُك إلا وَاشْتَفَتْ علل
ومن مواهبك أستغيث عن عرض لديك كل العنايا كنز كل ولي
عليك أزكى صلاة الله ما طلعت شمس وما سار سارٍ في مدى السبل

فهنيئا لمن استمع قلبه لفيوضات رد تحية الحبيب صلوات الله عليه وسلم.. لأن من ذاق لذة نغم هذه التحية، يكون قد سمع كل ما ينبغي سماعه، وفهم كل ما ينبغي فهمه...

* * *

كانت الأَبْلاَ تسمع أنين روحي، وعيونها لا زالت تحت تأثير روعة سحر مقام الروضة المطهرة، وقد تشربتْ روحها بشراب كوثر صاحب

المقام.

أَبْلاَ متولي:

– هل لي أن أسأل عن نوع من الحلوى، بنكهة مميزة، أعجبني مذاقها أثناء إقامتي في مراكش؟

أردّ عليها:

– هل لك أن تصِفي لي مكوّناتها، فالحلوى المغربية أطياف وألوان؟

الأَبْلاَ متولي:

– هي عبارة عن دقيق، ممزوج بنكهات مختلفة، تجديه في أطباق عربات ساحة الفنا الفلكورية.

أجبتها:

– نعم نعم.. هذا ما نسمّيه بـ"السفوف" أو "سلو" بالمغربي. وهو نوع من الحلوى يعدّه المغاربة خصّيصا في شهر رمضان، يتكون من دقيق مع جوز ولوز وسمْسم وينسون، وحبّات شمار، يعجن بالزبدة، فيكون طبقا مقويا بمكوناته. يُتناول عادة بعد الإفطار في رمضان مع الشاي الأخضر المغربي.

وفي ساحة جامع الفنا الفلكلورية، تجدينه في كل العربات، يقدم مع شراب الزنجبيل والشاي. ففي ساحة الفنا كل تراث المغرب، كما يريدها السائح الأجنبي، ولكن ليس فيها من تراث المغرب ما يمثل مغربي الثقافة والجذور والأصول.

في مراكش الحمراء سيدتي

ساحة الفنا -يا عزيزتي الأَبْلاَ- تشبع نهم السائح في اكتشاف سحر الشرق الأسطوري.. لوحات من يقرؤون الكف.. ينقشون الحناء، كما كانت تنقش لحريم العصر الكولونيالي.. يرقصون، كما شهدت على رقصاتهم، وشطحاتهم لوحات الفن الاستشراقي العتيد، في هندسة مخيال العقل الغربي الجمعي...

ساحة الفنا بمن يُرقِصون القردة والأفاعي، كما يرقص مجد العربي في ساحات الفناءات العربية. الفنا في سر فناء شهامة الرجل العربي، حينما رضي بإتقان دور الراقصة.. فتعرى من رجولته، وتنكر لذكورته، وأبى إلا أن يستجيب لنداء الفن الساخر ليضرب بشطحاته عنفوان مجد شهامة أمازيغيته وعروبته، كرامة أجداده الأمازيغية والعربية. إنه فِناء الفَناء يا سيدتي، بعدما تخلينا عن مجد وعزة وفخر تراثنا. دعيني أحكي لك، حكي أجدادي الأبطال، عن الملامح التاريخية لجامع الفنا..

ساحة جامع الفنا -يا سيدتي- يرجع تاريخها إلى عهد تأسيس مدينة مراكش سنة ١٠٧٠-١٠٧١م، ومنذ ذلك التاريخ وهي تعد رمزا للمدينة، يفتخر بحيويتها وجاذبيتها كل مَن مرّ منها من المسافرين. أتدرين لماذا يا أَبْلاَ؟

- لا أعرف يا مريم؟

– لأنها عزيزتي، كانت نواة يوسف بن تاشفين الشهير. كان يوسف بن تاشفين، معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، حسن السيرة، دينا خيرا، عادلا يحب العفو، ويصفح عن الناس ويسمع إلى الموعظة في خشوع، يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويسند إليهم مناصب الدولة. يوسف بن تاشفين أيتها العزيزة، أرسى في مراكش، ملحمة جامع الفنا، أعظم دولة في تاريخ المغرب، كوّن جيشا قويًّا، تتمثل فيه جميع قبائله، أحسن السيرة في الرعية، ولم يأخذ منهم سوى الزكاة، فاستغاث به أهل المغرب والأندلس، وسار إليهم، وافتتح بلادهم حصنا حصنا، فأحبّه الناس وصلحت أحوالهم. هذا هو باني مجد مدينة ساحة الفنا التي فنيت فيها أرواح رجال لبسناهم لباس الراقصات، وأعددناهم للعرض المشوق للرقص. آه ثم آه... كم من مرة تصرخ يا يوسف بن تاشفين؟! كم مرة في اليوم تسمع من تحت قبرك أهازيج أصوات أحفادك وهم في نشوة رعشة الجسد المهينة، يوقّعون على وثيقة محو تخليد مجدك!!

نعم يا سيدتي، التراث المغربي أصيل بحكيه، ورقص فلكلوره الشعبي، الممتد من طنجة الى الكويرة، من الأندلسي للطقطوقة الجبلية، من فن العيطة إلى قصائد الملحون، من الشعر الحساني إلى الأهازيج الأمازيغية السوسية والريفية والأطلسية.. أصيل بحكي تاريخ بطولاته الملحمية في الجهاد والرباط، ومعارك سيادة التوحيد ورفع راية الإسلام. عريق في تاريخ التصوف والزوايا وحفظ القرآن بتلاوته الورشية.

المغرب سيّدتي غني بتراث إبداعي في الأدب والقصة والرواية والشعر والنقد والزجل والعروض الفنية والمسرحية وترويض الحيوانات

المفترسة... بل إن المغاربة يمتلكون أكثر من هذا سحرا، إنه سحر ترويض روح الإنسان بالمحبة وحسن كرم الضيافة.

اسْأليني سيدتي، لماذا إذن لم تشاهدي هذه اللوحات الفنّية في ساحة الفنا؟ أجيبك بأن من هندسوا لمسرح عرضها لم يفسحوا المجال لإبراز هذا التراث الغني في ساحة العجائب والغرائب المراكشية. فسبحان من سخر هذا لمن استوزروا على سياحة مراكش، وتنكروا لتراث ملاحم أجدادهم، وما كنا لهم ناصرين.

رحمة الله عليك يا يوسف بن تاشفين.. يا باني مجد ساحة فناء الفنون الجميلة وانبعاث ثقافة السحر والدجل، ورقص الرجال بلباس النساء.. رحمة الله عليك يا فخر المغرب الأقصى.

يوسف بن تاشفين -يا سيدتي الأَبْلاَ- هو أول ملك بربري حكم المغرب. وقد أجمع المؤرخون على أن عهده كان عصر المرابطين الذهبي؛ جعل من مراكش الحمراء -بعد أن أتم بناءها- حاضرة المرابطين، فاستمدت إشعاعها من إشعاعه، حتى أصبح المغرب كله الذي امتد من السودان جنوبا إلى جبال البرانس شمالا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى حدود تونس شرقا، يعرف باسمها فيقال "سلطنة مراكش" و"مملكة مراكش" Maroc بالفرنسية وMorocco بالإنجليزية.

كانت رفيقتي تشاطرني حرقة همّ المثقف الذي يتواصل مع تناغم داء الوصال وصوت حسرة إشراقات فجر التراث الفني الرائع الذي يملأ خيالات عهودنا وتاريخ أمجادنا في المكان من قبل.

إن أرباب القلوب والفكر يسيحون عدة مرات في اليوم الواحد، بحثا عن عالم نقي بين التلوث، ليعكسوا في فضاءاته الماضي والمستقبل، فتقرأ

منشورات أفكارهم بوتائر متعاقبة.

* * *

الوقت يمر بسرعة.. العياء قد أجهدنا، ولكن فيض سيل النور الروحاني الذي تحول في جلسة هذه المائدة المباركة إلى جذوة متقدة في قلوبنا، كان يحول أجسامنا وأرواحنا من الوضع الهامد إلى الوضع النشط المجدد لدسائس الروح، في هفوة البعد عن غيوم جلسات أنانية المنصب والجاه والمال، والقيل والقال هتكا في أعراض المحصنات العفيفات.

غيوم تتلبد بسوادها فوق موائد عزومات سيدات المجتمع.. سيدات عالم حفلات التنكر باللسان، لترانيم وصال الروح والإخاء.. الساعة تشير إلى قرب منتصف الليل، وفي قوة عزم مني لمقاومة روعة نشوة هذه الجلسة الأدبية الراقية، في نحت معنى قيم التواضع، والتفاني في خدمة العلم وأهله.

الأَبْلاَ متولي تودّعنا وهي تهدينا جميعا هدية مودة مصحوبة بعناق تتمازج فيه الأرواح تحت ظلال الأحاسيس الملتهبة بمشاعر المحبة في الله. وكعادة خلقها وبخفة بالغة تسبقني نحو حذائي لتساعدني في لبسه. يا سلام، كم هي رائعةٌ الشمسُ حين تتحول إلى شمعة، لتضيء طريق النساك بضيائها الذي تغمر منافذ طرقهم.. وكم هي باهتة شمعة من سحروا بمطالب النفس فأحرقت أرواحهم.

الجو بارد جدا في الخارج، حاولنا رد الأَبْلاَ عن توديعنا.. لكن أنّى لمن ترعرعت روحها، على خدمة الناس، أن تهتم لبرودة الجسد، أمام دفء وحرارة المشاعر. يداها الأنيقتان لا زالت تلوّح بالتحية والسلام، تُلاحِق بلطفٍ سيارتَنا المتجهة نحو مخرج الإقامة الفاخرة.. الفخر لا يكون بفخامة البناء والأثاث والديكورات أو النجفات والزرابي والكريستلات.. الفخامة

يا سيدتي الأَبْلاَ. -أرددها في نفسي، وأنا ألوح بيدي ردا على سلامها هي- فخامة النفس النقية، التي تغيّر نظم مشاعرنا الإنسانية، النابضة في قلوبنا، وتوجه أصواتنا وضمائرنا وتصرفاتنا نحو محرابنا الأبدي.. هكذا سمعتُ من الأستاذ الذي رباك "هُوجَا أفندي فَتْحُ الله".

في الطريق السيار، ونحو اتجاه مدخل لوحة إسطنبول، كنت أحاول النوم، ولكن نفسي تقاوم صوت داء الأنانية الذي جئت لفحصه والتثبت منه. كيف أنام، وأترك من يرافقنني قيد أسر المقود، وهن من تركن الزوج والولد سعيا لإكرامي.؟!

* * *

لا شك أن الصوت الحقيقي لعلاج صدإ الروح، يبدأ بالسلوك المشترك، والمشاعر المتوحدة نحو من يحيطون بنا. كنت أخالف نغمات رأسي التي بدأت تثقل على كتفي بالحديث مع فضيلة باعتبارها المتحدثة الوحيدة بالعربية، فأسألها عن وظيفتها ودراستها.. علمتُ منها أنها مهندسة زراعية، وأَبْلاَ زراعية، فبحكم التخصص هي مهندسة أرض زراعية، ومن جهة ثانية هي أَبْلاَ زراعية لتزكية نفوس وعقول الطالبات بسميد صحبة الإيمان، وسقاية الروح بالقرآن، والذكر، وسمو الأخلاق.

وأخيرا عدنا إلى بَارَان معاجم المعنى، حيث توضع مناهج ومصطلحات خدمة رقي الإنسان الفاعل الرسالي. إنه إنسان المعنى، في زمن غَيَّب فيه قادةُ الروح وخطباء العقل.. سر معاني المعنى...

كنت متأكدة وأنا أودع الأبْلهات المرافقات، بأنني لن أجد فاطمة، أكيد هي نائمة، فالوقت متأخر، ومكتب الاستقبال فيه أجمل الجميلات ممن تسهر على رعاية الطالبات.. زينب الرائعة..

نور فاطمة.. ونور مهنّد

نعم، زينب الرائعة تقول بابتسامة وردية المحيا:

- هوشْ كَالْدِينِيز، مرحبًا..

وقبل أن أرد التحية التركية التي حفظتها "هُوشْ بُولْدُك" تقف فاطمة وبسرعة البرق بجانبي، وبخفة روحها النورانية كهبة نسيم عليل تردد بالإنجليزية:

- اشتقت إليك أستاذة مريم..

وترتمي بعينيها النائمتين مرة أخرى في أحضاني. يا الله.. من قذف سر المحبة في قلب هذه الفتاة التركية الأصل، المنحدرة من أصول غير أصولي المغربية والعربية.!؟ من ألهمها أن تشرح بقلبها جميع الكلمات المعبرة؟! ترى من حوّل هذا النزل الباراني بغيثه إلى خلية نحل تئز بالمشاعر النبيلة، وتغسل بماء الورد قلوبنا وتضيء بالنور عيوننا؟!

- يا نور فاطمة!

تبتسم ابتسامة طفلة بريئة، وتقول:

- "فاطمة نور" هو اسمي أستاذة.

أبتسم وأنا أحاول إيقافها عند باب المصعد لتعود لنومها:

- أعرف أنك فاطمة نور.. ولكن لا أدري عزيزتي لم جرني لساني لنطق "نور" قبل "فاطمة".

تراني لمست بعض معاني النور الذي ينبثق من روحها؟! تتوقف الأفكار عندي وأصمت. تسرع سيدة البيت ومديرة النزل بخطى مهرولة نحو باب المصعد لتنطلق به نحو الطابق الخامس مقر إقامتي، وبينما كانت منهمكة في ترتيب اللحاف ووضع المفارش فوق السرير، كنت أتساءل في صمت مع نفسي: تراها "نور" المسلسل التركي الخالد الذي شد ملايين العقول والأفئدة والأرواح في عالمنا العربي؟ أهي "نور" التي يسألني عنها من ذكرت له أنني سأسافر إلى إسطنبول، وينصحني بزيارة بيتها؟! بيت "نور" الذي أخبروني بأن الصورة فيه، بألف دولار للسائح العربي. بيت "نور" فيه "مهنَّد"، وهو من سلب وخطف عقول وقلوب الملايين من نساء عالمي.

لكن نور التي تعرفتُ عليها الآن من دون مهند.. أيمكن لنور أن تكون بلا مهند؟! وهل يمكن لمهند أن يكون من دون نور؟! ترى من منهما حظي بالإعجاب أكثر عند بنات وذكور جنسي؟ عُرِفت تركيا بـ"نور" و"مهند"، في البلد الذي كان أجدادي يأتون منه قاصدين حج إسطنبول الفاتح، وجلال الدين الرومي، وبديع الزمان النورسي، وسليمان أفندي، ومصطفى صبري بك الأناضولي، ونجيب فاضل، ومحمد حمدي يازِير... يتوافدون قبل الحج إلى بيت الله الحرام، قاصدين عاصمة محمد الفاتح ليجددوا الصلة بتاريخ أجدادهم الأبدال الذين رفعوا راية الإسلام عاليا. يقفون على أعتاب آياصوفيا ليسمعوا ويستلهموا دروس العزة والإرادة من عبقرية السلطان محمد الفاتح.. الفاتح الذي لم يكن مجرد فاتحا مغوارا، وقائدا عسكريا مظفّرا، بل كان يجمع بين صفات القيادة العسكرية الموفقة وبين الثقافة العلمية الرفيعة؛ يقود الجيوش، ويفتح المدن والدول، ويتذوق

العلوم، والآداب والفنون بمختلف أنواعها... الفاتح فتح ساحات التحرير الأبدية.

أجدادنا المغاربة كانوا يحضرون إلى قرية نورس شرقي الأناضول، ليسمعوا رنات صوت النورسي الإيمانية وهو يردد قائلا: "لأبرهنّ للعالم أجمع، أن القرآن العظيم شمسٌ معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها". بديع الزمان سعيد النورسي الذي لفت أنظار معارضيه وهو يردد على مسامع المحكمة في الجلسة التي أعدت لشنقه كما شنقت العشرات من الأبطال: "لو أن لي ألف روح، لما تردّدت أن أجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام.. فقد قلت: إنني طالب علم، لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة، إنني لا أعترف إلا بملّة الإسلام.. إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمّونه "السجن" في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة، لا لتسمعوا أنتم وحدكم، بل ليتناقله العالم كله، ألا لقد حان للسرائر أن تنكشف، وتبدو من أعماق القلب.. فمن كان غير مَحرَم فلا ينظر إليها. إنني متهيء بشوق لقدومي للآخرة.. وأنا مستعدّ للذهاب مع هؤلاء الذين عُلّقوا في المشانق. تصوروا ذلك البدوي الذي سمع عن غرائب إسطنبول ومحاسنها، فاشتاق إليها.. إني مثله تمامًا في شوقي إلى الآخرة والقدوم إليها...".

سعيد النورسي الذي اتّهموه بالجنون، فشهد الطبيب النفساني في تقريره: أنه "لو كانت هناك ذرّة واحدة من الجنون عند بديع الزمان، لما وُجد عاقل واحد على وجه الأرض"...

سعيد النورسي الذي واجه إغراء المال وأحرج الصماصرة بحوار تاريخيٍّ شهدت به دواوين رسائل ومحاضر السلطات الوزارية.

رسالة الوزير:

- إن السلطان العثماني يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش. وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة، كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية لك.

بديع الزمان:

- لم أكن أبدًا متسول مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة؛ لأنني لم آت لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد. فما تعرضونه عليّ ليس سوى رشوة السكوت.

الوزير:

- إن العاقبة ستكون غير سارة.

بديع الزمان:

- تعددت الأسباب والموت واحد.. فإن أُعدَم فسوف أرقد في قلب الأمّة، علمًا بأنني عندما جئت إلى إسطنبول كنت واضعًا روحي على كفي.. اعملوا ما شئتم، فإني أعني ما أقول.. إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة، ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتّبًا، لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلا بترك المصالح الشخصية.. فإنني معذور إذن عندما أرفض المرتب.

الوزير:

- إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حاليًا.

بديع الزمان:

- إذن فلِمَ يُتأخَّر في نشر المعارف، ويستعجل في أمر المرتّب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة؟!.

من نفحات ذاكرة أجدادي

كان أجدادنا بعد إتمام مناسك الحج يقصدون تركيا، ويتوقون إلى الصلاة في مساجد إسطنبول العامرة. يجلسون بعد صلاة الفجر في رحاب مسجد أبي أيّوب الأنصاري ليسمعوا سير الأبطال.. وقصائد يُونس أَمْرَه.. وقصيدة المولد الشريف لـ"لسليمان شلبي".. ورباعيات جلال الدين الرومي.. وابتهالات عزيز محمود خدائي.... و"غنية الطالبين" لعبد القادر الجيلاني.. وأذكار محمود سامي.. و"تسابيح الصلاة".. ورسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي.. و"النور الخالد" للأستاذ فتح الله كولن... ويستمتعون بقصص أبطال التوحيد وحماة الدين زمن قهر الرجال.. قهر الرجال بالتعذيب والشنق والسجون، ولكن هيهات، هيهات أن يطفئ ذلك حماس قوة الإرادة في نفوس هؤلاء المؤمنين الأبطال. وقد كان الشيخ الجليل "سليمان حلمي" يستقطب العديد من الشباب التركي على أنهم من الفلاّحين يزرعون الحقول نهارا، وبالليل يحوِّل الأفكارَ إلى مشاريع معرفية، حيث تُفتح صفحاتُ تعلم اللغة العربية، وحفظ القرآن والتفسير، ومدارسة الفقه والحديث والمقاصد، وقضايا التجديد والإصلاح، بعيدا عن عيون الوشاة في المزارع البعيدة عن المدن...

كان يحدث هذا في وقت تم الإعلان فيه عن الحرب ضد الأبجدية العربية، التي كانت تُكتب بها اللغة التركية. وصدر قانون بالكتابة بالأبجدية

اللاّتينية، ونُقِّيت التركية من الكلمات الفارسية والعربية، فأصبح الأذان للصلاة بالتركية. وشُنِق العديد من العلماء، لأنهم رفعوا الأذان باللغة العربية.

أجدادي المغاربة كانوا يسألون بشوق عن ورثة الأرض.. الأبطال الذين كافحوا من أجل استرداد ميراثهم الذي أريد له أن يقبر في مدافن الطغاة. وقد ساءهم ما علموا من إقدام السلطة في الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية التركية، على جمع المصاحف والكتب الدينية ووضعها على ظهور الإبل، وإلباس من يقودها الزي العربي، طالبين منه الاتجاه بها نحو الجزيرة العربية، وقد عُلقت على رقابها لافتة تقول: "جاءت من الصحراء، ولتعد إلى الصحراء، وجاءت من العرب، فلتذهب إلى العرب!".

أجدادي الحجاج وأهل العلم كانوا يتوقون لزيارة مقام الأولياء، أطبّاء الروح والفكر، ليستلهموا منهم حس المسؤولية والشعور بالهمّ المقدس، ويتعرفوا على صفاتهم التي حكى لي عنها ذات يوم مجددُ حركية السكون في تركيا، فتح الله، حفيد الفاتح.. بـ"لغة عرفانية"، وبقلب مفتوح شبيه بفضاء واسع فسيح.. وحده يسمع في صدر فنائه أنين الأسوار القديمة.. ونشيج الريح الراحل ما بين جبال تطوان وشرق الأناضول.. وبكاء النورس عند شواطئ غادرتها سفن الأحبة منذ زمن غابر.. ينتظر إشراق عودتهم بعد إصلاح الشراع.. فيبكى!

صفات ورثة الأرض

قال لي الأستاذ فتح الله ذات يوم بـ"لغة عرفانية":

- لن يُسمَع صهيلُ الخيل القادمة من خلف السحب.. لن يُسمَع نداءُ الغيب المحتجب، ولن يتدفق مجدُنا على شواطئ مجتمعاتنا، إلا إذا توفرت فينا صفات ورثة الأرض..

فسألته:

- وما هي صفات ورثة الأرض؟

الأستاذ فتح الله، بسعة فكر ورحابة صدر:

- الوصف الأول لوارث الأرض هو الإيمان الكامل. والوصف الثاني هو العشق الذي يُعد أهم إكسير للحياة لانبعاثها من جديد. والوصف الثالث هو الإقبال إلى العلم بميزان ثلاثية العقل والمنطق والشعور. والوصف الرابع هو إعادة النظر في قراءتنا للكون والإنسان والحياة، ومراجعة تصوراتنا الصحيحة منها والخاطئة. أما الوصف الخامس للوارث هو أن يكون حرًّا في التفكير، وموقِّرًا لحرية التفكير، ويتحدث عن كل شيء بالتشاور، لأن الشعور الجمعي -أستاذة مريم- هو محل الدهاء. والوصف السابع للوارث هو الفكر المنفتح المؤمن بالحوار مع الآخر. والوصف الثامن وهو رؤيتنا الفنّية لجمالية الإسلام وشموليته...

هذه هي صفات ورثة الأنبياء التي جاء أجدادي، ليستلهموا معانيها من

العلماء الأبدال.. أبدال حملوا مشاعل العلم، وأناروا بها أرجاء المعمورة، وزينوا بها زوايا العلم والعرفان. واليوم يزور العديد من أحفاد طارق بن زياد، ويوسف بن تاشفين تركيا، ويحجون إلى ضفاف نهر البوسفور قاصدين الوقوف على أعتاب قصر نور ومهنَّد!..

هذه إسطنبول بآثارها، بجوامعها، بتكاياها، بمكتباتها، بعمرانها الذي أذهل عباقرة الفن والمعمار، تستنكر صنيعكم... فما لكم كيف تفكرون؟!

إسطنبول تشتكي أحفاد طارق بن زياد

إسطنبول بفنّها، بتاريخها، بأبطالها، بسحر آثارها وجمال رونق ضفاف بسفورها، تذكركم أبناء وحفدة طارق بن زياد البربري، الذي انتصر على الجيش الإسباني البالغ ١٠٠ ألف جندي، بقوة وعزم وإرادة ١٢ ألف جندي... تذكركم بتجديد صلة الرحم بعشاق النور وعباقرة التوحيد.. فكيف تسألونها عن بيت نور ومهنَّد؟! كيف ترضى إسطنبول الإجابة عمن يسألونها بلغة خيانة المعنى لتاريخ من ساسوا الإنسانية وقادوها؟! كيف تفخر بزوار نسوا بطولات أجدادهم، وجاءوا يعبروا لها عن وفاء المعنى في حب نور ومهند؟!.

ترى يا نور كيف تمكنت ببطولاتك الغرامية، تحويل شروق الشمس إلى مغربها؟! كيف حولت معاني قدسية تاريخية عميقة لا يسعها عمق البحار إلى قطرة مشاعر ذاتية متوهجة على أطراف نهر البسفور؟! آه يا نور، ما أبدعك في تهييج المشاعر الساكنة وإيقاظ نبرات دفئ العواطف الساكنة في فضاءات بيوت عالم الأزواج! الذنب ليس ذنبك يا نور، ولا هو ذنب مهنّد. أنتما تلعبان دور البطولة في قصة غرام تركية، فهل نحمّلكما ذنب تحريك مشاعر جمع المؤنث السالم؟! هل يستنكر بعض أبناء عمومتي إحياء هذه المشاعر بأصوات تتشدق بأسلوب خطابة الاستنكار جهارا، ليسترقوا مساء، وخفية من عيون مريديهم لحظات من نسيم حضانة بيت

العشق، والغرام النوري المهندي الإسطنبولي؟!

أتراها حسرة على أرجاء بيوتهم التي أطفأوا فيها ضوء شموع المشاعر؟ أم أنه الحلم بنفث الحياة في أوصال أرواحهم ومشاعرهم المدفونة؟! لماذا كل هذا يا نور، سيدة القصر المطل على البسفور؟ ما سر استحواذك على قلوب الملايين من النساء والرجال؟! لماذا نهاجمك يا نور؟ ألم يكن من المفترض أن ننزل لمختبراتنا الفكرية والاجتماعية، لنحلل سر هذا الاجتياح المذهل المستحوذ على عقول وأفئدة محبّيك؟! ألم يجدر بنا يا نور، أن نبحث خبايا أبنائنا من النواحي النفسية، والسوسيولوجية والتربوية، لنجيب لهم عن أسئلة التيه العاطفي الذي حرمناه تربويًّا بين الأزواج في حلال الحلال، واستسغناه مرئيا في فرجة حرام الحرام؟!

قُولي لي، بالله عليك يا نور، كيف أصبحت نموذجا للرقّة والأنوثة في عالم الرجال، وتحول مهند لنموذج يلهب مشاعر النقص العاطفي في عالم النساء؟!

الذنب يا نور قصر البسفور، ليس ذنبك. أنت -يا بطلة مسلسل التيه- حولت ذاكرة جيلي من شموخ تاريخ إسطنبول، من رباط ساحات الجهاد والمجاهدة، من مساجد أبطال مسيرة التوحيد، إلى شرفة قصر غرامي يطل على البسفور! حولته -يا نور مهنَّد- إلى معلمة لحج السياح قبل زيارة محطات الفرسان!. فتبًّا لبرود عواطف ومشاعر المودّة بين من يفترض أن يعمروا أركان بيوتهم بالسكينة.. تبًّا لمن تنكروا لمشاعر فيض أسرار القرآن الربانية، في حسن المعاشرة بمعان تتلألأ في أضواء نجوم السماء الصافية...

الفصل الخامس:

عودة منافذ الروح

أجنحة وصال منافذ الروح

منافذ روح شهامة الأبطال لا تعود بالتمني، وإنما بالكدح والجهد والتخلي عن أنانية الذات والمال والولد.. فما أن توفرت الإرادة، حتى عقدت همم الرجال للإنجاز، وأبوا إلا أن يسهروا على سقاية ورعاية ثمارهم.. فبنَوْا مسارح همة للمّ شمل العواطف الجياشة، ولمس قلوب العطشى التي أوشكت أن تجف وتتصحر، فتم سقيها بروح من النفحات الربانية، كؤوسا بعد كؤوس.. عاد الفارس المقدام، ليحرك بلغة العشق التي تطير بأجنحة أمل الوصال عالم القلوب، من أدناها إلى أقصاها، ويحولها إلى بساتين وحدائق وزهور، تزيل برائحتها العطرة، غربة وصدأ القلوب.

توسعت مساحات البساتين سيدتي، ولكن كما تعلمين، فالمواسم تأتي بالصقيع والحشرات والجراد المدمر لرونق جمالية الحقول.. وأنّى للفارس أن يطهر الحقول وينقي جذور أغصنتها من الأمراض والأوبئة والدمار، من دون استعمال مبيدات كيميائية فاعلة؟! أنى له أن يسير بمفرده بين جداول الحقول ليحمي الأزهار من غصون الشوك البرية؟!

إن الجهل بطرق الزارعة -أستاذتي- أول داء يفتك بالقمح والزرع.. والفقر ثاني داء يفسد نشوة صبر الفلاح على بلوغ موسم الحصاد..

والاختلاف، ثالث داء يعصف بالفلاح والوسيط والمستهلك فيهلك الزرع والأرض والعباد...

نعم، كيف يمكن القضاء على هذه الجراثيم الثلاثة، والتي تشكل بجمعها في مكان واحد، نظام حياة صحية لميكروبات وجراثيم غير مرئية تتحول إلى أوبئة وطاعون، يهلك النسل والعباد؟!

كنت أتابع بشغف كطفلة تُنقَل إلى عالم الخيال في قصص الخرافات.. ملحماتٌ تاريخية بطولية تجسدت على أرض واقع بلد تركيا.. أتساءل بصوت عال مع نفسي: صحيح يا مريم، كل داء له دواء، وعقد مفتاح قلب الداء المعرفة.

فالمعرفة نور يضيء عالم الفكر ويشفيه من داء الجهل المرفق بأعراض الظلمات والفراغ والخمول والاتكال.. وبالعلم يُشفَى الإنسان من وهن الروح، وموت العقل، ومزاجية النفس... بالمعرفة تُحَلّ عُقد الفقير ليعيش فطرة الحياة الكريمة التي فطره الله عليها، وكرمه بها في حياته ومماته، فيسعى بما تيسر، ويرتب نظام مسلكه، فيبدأ بمقاولة صغرى وكبرى إلى أن ينتهي إلى معرفة سر عالم مقاولة المقاولات.. وبالمعرفة تُحَلّ عُقدُ الفرقة والاختلاف؛ فالإنسان عدو ما يجهل، وكلما ازداد نصيبه من الجهل تزايدت لديه القدرة على الصراع، والانفعال والاستئساد.. وحدود جغرافيته المعرفية محصورة في أخمص قدميه، ووجهته وجهة حصان العربة، النصيحة عنده سب، والشتيمة عنده فخر، الحوار عنده عار، والصراع عنده فضيلة، التفكر عنده نقيصة، والإقصاء وإشعال الفتن عنده شهامة.

بالعلم تنبعث الحِكم.. وتسري رسائل النور في الأرواح وتتواصل

مع القلوب كما تتناغم حركة الصلاة الجماعية.. بالعلم تُهذَّب النفوس، وتسيح العقول في عالم مؤسسات حوار أديان وثقافات وحضارات أزمنة الماضي والحاضر، لترتشف بماء كوثر المستقبل، تحت ظلال خضرة التلال الزمردية.. تتجول في عالم الزمان والمكان، وتنتقل من حقل معرفي لآخر، وهي ترتشف من نواة الأزهار عسلا سائغا للشاربين.. عساها تشفي به داء الجهل والفقر والفرقة...

* * *

إن طوفان الأضواء التي تفجرت من ينابيع فوران أصحاب الأرض الخصبة الطرية بلغ أرجاء المعمورة، من خلال منافذ ذلك المرصد الصغير، الذي بدأ بسُلْفة من أب الأباء، في منهج التولي والهمة، تفجرت ينابيعه، فخاطبت الجبال والتلال والهضاب والسهول من البلقان إلى جورجيا إلى السودان فتانْزانيا...

نعم سيدة مريم، دقت ساعة الفتح، وببركة سُلفة أحد التجّار المحسنين، شيدت أسوار حظيرة المعرفة لتركز مسامير أقلام الوجود... فكان نصيبنا وافرا من رؤوس أقلام مرجانية جئنا من أقصى المغرب لنسجل بمدادها، أجمل العبارات وأرق الكلمات في ليالي عيد رأس سنة ميلادية.. أعياد أطلقنا فيها شعلة الاحتفال الممتدة نحو السماء.. ووهبنا مشاعرنا زينة نتذوق بها سر طعم براعم المدارس الفتحية.

نسيم القهوة

انتابتني نشوة الحكي الملحماتي لبطولات وفخر وعزة فرساننا، وكدت أنسى تناول فطوري.. كان إبراهيم من حين لآخر يعيد انسياب مشاعري بإشعاع ضوء الصور التي كان يلتقطها لنا مع الحضور. ما أطيب معدن هذا الشاب الفتي الذي حولنا بدفء عواطفه، وطيبة معدنه، من غرباء المكان إلى أصحاب الأوطان، فجعل بصوره التي التقطها لنا من كل باقة حزن لوحة جمال، ومحبة ودفء وإخلاص...

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف، والبرنامج مكثف، لكن أشواقنا الممتدة نحو استلهام المزيد من لذة الوصال الروحي المشبع بعرفان المعرفة، أنستنا مرور الوقت كالبرق الخاطف.

في قاعة استقبال مكتب العميد السيد "محمد محيط"، كنا نتقدم أنا والأستاذ حنين عميد الكلية بالمغرب، وكأننا في سباق مع رائحة القهوة وهي تنتشر لتعطر بنسيمها مزاجي المثقل بالسفر عبر محطات قطار المعرفة التاريخية.

أدب وخلق السيد العميد "محمد محيط " يجعلك تشعر فور السلام عليه، أنه إنسان طيب النفس، حسن الخلق، صافي السريرة. طريقة حديثه المتواضعة، ضحكته الفطرية ببراءة الأطفال، كل حركاته وسكناته توحي بأنه رجل متواضع ومن أهل الله، على غير عادة الكثير من المسؤولين

الذين يتقمصون شخصية "الببع أو البوعو" (الشبح الذي يخيف الأطفال في الثقافة المغربية).

وبهذه الخصال الخلقية الحميدة، اجتمع كرم المحيط مع هدوء المتوسط، ليحملا معا همّ مسؤولية تلاقح المعارف بالخير والإحسان، فكلاهما يجمع بين عبء المسؤولية وحسن قيم أهل العلم والصلاح.

كان العميد حنين يتابع باهتمام طرق مناهج التسيير الإداري وبرامج البحث العلمي في هذه المؤسسة، بينما كنت أستمع وأنا أستنشق رائحة القهوة التركية التي أعشقها بولع وألتمس من ارتشاف كأسها الأول أن ينتشي مزاجي، ويهدّأ فيض خيوط أحلام يقظتي. استغربت مقاومة الأستاذ حنين لعبق نسيم رائحة القهوة التركية. ربما كانت رائحة طعم المعرفة أقوى تأثيرا على مزاجه، فارتشف منها كؤوس المعارف، ونسائم عطر مميزة من المحطات التاريخية، لهذا الصرح المعرفي الهام.

سألته بلطف أن يمد يده نحو الفنجان المغري، برائحة شرابه، وبعطر نكهة مذاق حبات قهوته التركية. انتهز انشغال السيد "محيط" بترتيب عدة عرض شريط وثائقي عن الجامعة، ليرتشف أخيرا رشفة من فنجانه البارد الذي ودع في صمت رائحة نسيم بهاراته الزكية. وبلغة غير منطوقة للسامعين حكت عيناه نشوة الاستمتاع بنكهات أخرى من نسائم التألق المعرفي والتربوي.. عطر الحديث عن المرافق والمختبرات العلمية.. نشوة الاستمتاع بمؤهلات الإمكانيات الضخمة التي جُهِّزت بها مرافق المؤسسة، خاصة قسم النانوتكنولوجي الذي استوقفه كثيرا بموارد ميزانية أبحاثه الضخمة التي تعود بالملايير على إدارة الجامعة.. وبلغة منطوقة تابع حديثه، قائلا:

- أستاذة مريم.. دعيني أحكي لك قصة عن القهوة، وحكمة الاعتناء بالجوهر لا المظهر.. ذات يوم التقى أستاذ عجوز بتلاميذه، بعد مرور زمن طويل من تخرجهم وحصولهم على مناصب راقية، في مسارهم العملي والمادي والاجتماعي.. وبعد الاستمتاع بمقابلته من جديد، والإطراء على جهوده في التوجيه والترشيد المعرفي، بدأ العديد منهم يتأفف من ضغوط العمل، ومتاعب الحياة التي تسبب لهم الكثير من التوتر.. غاب الأستاذ عنهم قليلا، ثم عاد يحمل إبريقا كبيرا من القهوة ومعه أكواب من كل شكل ولون، أكواب صينية فاخرة.. أكواب بلاستيك.. أكواب زجاج عادي... دعاهم ليتفضلوا وليصب كل واحد منكم لنفسه القهوة.. عندما بات كل واحد من الخريجين ممسكا بكوبه، نطق الأستاذ مجددا بعد صمت طويل: "هل لاحظتم أن الأكواب الجميلة فقط، هي التي وقع عليها اختياركم، وأنكم تجنّبتم الأكواب العادية؟" انتبه كل إلى كوبه، فلاحظوا أنهم اختاروا الأجمل مظهرا، وكانوا يعلمون أن من وراء الاختبار حكمة، في الوقت الذي عقب فيه أحدهم قائلا: "طبيعي أن يتطلع الواحد منا إلى ما هو أفضل؟"، فأجاب الحكيم: "هذا -يا بني- ما يسبب لكم القلق والتوتر.. ما كنتم بحاجة إليه في هذه الجلسة، هو طعم القهوة، وليس الكوب. ولكنكم تهافتم على الأكواب الجميلة الثمينة، وفي لحظة تأمل كنت أراقب أنّ كل واحد منكم يتطلع إلى الأكواب التي في أيدي الآخرين. فلو كانت الحياة هي "القهوة" فإن الوظيفة والمال والمكانة الاجتماعية هي الأكواب.. بينما هي مجرد أدوات ومواعين تحوي الحياة ونوعية الحياة. القهوة تبقى بنكهة القهوة لا تتغير، وكذلك هو العلم والمعارف.. وعندما نركز فقط على الكوب، فإننا نضيع فرصة الاستمتاع بالقهوة".. كذلك -أستاذة

مريم- عندما نهتم بوعاء بناء الأقسام، دون العقول، فإننا نضيع الاستمتاع بنكهة توظيف المعارف.

ودّعتُ أساتذة جامعة الفاتح، وأنا أبحر بخيالي في سر حكمة الأستاذ حنين، وأحيي ملكة النحل التي جمعت هذه الطاقات من جموع فصائل نحل مختلفة، لتنسج خلايا متناسقة، تصب فيها لؤلؤة جواهر عسلها.

معطفي البرتقالي وسر أعياد الموسم

عند مخرج الباب الرئيسي للجامعة، علقت أملي على حلم العودة إلى فضاء هذا الصرح يوما ما، للبوح بأسرار جمعتها ذات يوم من مصادر أهل الراية والدراية والخبرة والفراسة والحكمة في بساتين حقول الفتح النورانية.

البارحة كان حجر الأساس ثقيلا، والفكرة نطفة في أحشاء قرية "كُرُوجُك" بـ"أرضروم"، والقرية بساط تبغ أصفر، والحقول حولها الجنود إلى بساتين مارقة.. البارحة ذكّرتني برواية عودة الفرسان، كيف كانت الأُسر تهجر قبل الفجر زمن القهر؟ وكيف كانت أضواء المارقين تهدي براءة طفل صغير نحو حقول البساتين الخضراء؟

الجو في الخارج كان دافئا، لدرجة أنني لم أتمكن من لبس معطفي البرتقالي. ترى ما الذي جعلني أختار هذا اللون؟ وأنا من كنت أجهز ليلة سفري معطفا أسود قد يتحمل معي برودة شتاء تركيا. اليوم فقط علمت سر انجذاب نفسي في آخر لحظة نحو اللون البرتقالي.

روحي كانت في رؤياها ليلة سفري لإسطنبول، تترنح في تناغم تام مع لحن مراسيم أعياد مواسم جني ثمار الفتح المعرفية. فواكه بألوان برتقالية وردية بنفسجية، أبت ألوانها الزهية إلا أن ترغمني صباحا لاختيار اللون المناسب لحضور مراسيم تلك الأعياد.

السائق الأنيق عبد القادر أبِي، يتابع الحديث مع زياد دون أن يسأله عن خط التوجه للزيارة المقبلة.. يوجه مقود حافلته يمينا ويسارا نحو دروب حدائق المعرفة وبساتين صحبة الإخلاص والمحبة. لا يريد جزاءا ولا شكورا من أحد تعويضا عما يؤدّيه من وظيفة خدمته القدسية.. كنت أتأمل في نور وجهه المضيء وهو في سن ما فوق الستين.. أجادله في نفسه عن معنى القيمة المادية.. فأسمع أنين تسبيح روحه وهي تجيبني قائلة: "طلب الأجر -يا سيدتي- في وظيفة الخدمة يجرح التبليغ، ويذهب صفاء الإخلاص والصدق.. أتدرين لماذا؟" يتابع مسبحا بحمده: "لأنه حالما يتكدر الصدقُ والإخلاص تتلاشى قوة التأثير التي نطق بها لسان أنين الأنبياء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشُّعَرَاء:١٠٩)."

باستحياء أحاول الاعتذار لمن لا يشكو ألم العياء:

- أتْعبناك معنا يا زياد بن طارق الفتح، وفتح طارق زياد.. أتعبناكِ معنا يا أمّ سداد وأنت من تتنقلين بالطفل الملاك جمال، تسلميه مرة لحضن عمته أو خالته، تُجاهدين نفسك وأنت في حالةِ عشقٍ، لتملئي فؤادك الفارغ في عودة طريقك من رحلة نداء الروح..

أم سداد:

- أستغفر الله أستاذة مريم، أستغفر الله.. لا تقولي هذا الكلام. أنتم أهلنا وأحبابنا، ونحن نشرف بالسهر على راحتكم وسعادتكم بعيوننا..

تقولها وهي تشفق بلهفة المحب لحبيبه عن صوت زياد رفيق رحلة عمرها، ولسانه يتثاقل من تأثير وقع ترجمة المعاني الخدماتية التركية، بلغة عربية فصيحة سليمة راقية تطوي مسافات قلوب المحيطين به ومنطقة عقولهم.

قلعة مدائن الهمّة وبوح القلم

بدت من بعيد شامخة، كأنها قلعة صلاح الدين التي وصفتها كتب التاريخ.. ظهرت بمظهر مهيب وكأنه لم يمر على تشييدها شهور.. كانت البناية ممتدة الأفق، زجاجها بلوري متلألئ، بلمعان من يشرفون على صيانته وتلميعه، ينسجم في تناغم مع بريق نجوم السماء الصافية.. بدأت شرفات طوابقها الزجاجية الفخمة تلوح لنا من تلّة علوية فوق جسر الطريق السيار، ونحن نعرج شمالا لنحط رحالنا في ساحة مدخلها الرئيسي.

وقفتُ أمام لافتة كبيرة في مدخل المؤسسة، أمعن النظر في بؤبؤ عيني من خلال زجاج نظارتي الشمسية، فرأيت أشياء لا ترى كل يوم، واستحضرت شريط محنة الفقيه مستعرضة إياه في ثوان، حيث حرقة الفراق وألم البعد عن القرية والبيت والأصحاب. حققت أستاذي بحرقة آلامك، زمان وصل الوصال.. ومازلت تبحث عن من تمنحه جلال صمتك وما تريد.. تبحث عن شيء يشبهك أو يشير إلى سر من أسرار عزمك وقوة إرادتك.. يذكر بزمان رقة صوتك ويستحضر حكمة صمتك في كل ما تريد.. تبحث عن أشيائك التي تركتها أمانة في شريط سجل ذاكرتهم.. تبحث عمن تلوّنت عيناه بشيء من حزن عينيك.. ملت روح المحبين من مطاردة غيابك أو حضورك، لم تعد عدسات الزمان تسد مكان بيتك المهجور في زمان محنة ما بعد الوصال...

يا سلام، ما أجمل المدخل.. وما أرقى هذه المؤسسة بتصاميم هندسة بنايتها، ومساحات حدائقها، ونسقية جمالية طوابقها..

نموذجية بتميز أناقة مديرها وأساتذتها، أناقة في الهندام، نسقية في تمازج الألوان، رقي في آداب حسن الضيافة والاستقبال.. فسبحان من سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين! وسبحان من ألهم فارس الفتح لتوجيه أبنائه من الزمر، نحو الريادة والتميز والرقي، وما كان عن الأناقة وعشق جمالية التناسق من الغافلين!.

كان المدير يستقبلنا، رفقة أستاذ اللغة الإنجليزية ليترجم لنا مناهج التدريس المعمول بها في هذا الصرح العلمي الضخم. والغريب أنني منذ بدأت زيارة المؤسسات، وأنا ألتقي بالعنصر الشاب في عملية الإصلاح والتجديد التربوي، لم أصادف ولو مرة مسؤولا يقترب من سن التقاعد، كما هو الشأن في مقامات الضفة المتوسطية.

كان العرض يتحدث بلغة المسكوت عن مستوى الفكر واستشراف تطوير إستراتيجية التعليم، وارتقاء مراتب توليد الفعل في المجتمع.. وبلغة المنطوق يوضح لنا المدير إمكانية تحقيق مشاركة الأطر التعليمية في تطوير مناهج التعليم.

في "مدارس الفتح"، يحدد دور المدير في الإشراف على نجاح برنامج المؤسسة، وتطوير آليات التدريس وفق منهج التشاور والتداول مع "هيئة الزمر". والزمر هي هيئة الصفوة، أو نخبة النخبة من الأساتذة في كافة التخصصات.. إنه المكان الذي تمر منه القوافل بعد أيام من المسير الذي لا يتوقف، لعزف لحن المعرفة بعد غروب طويل. هم في الأغلب أناس كثيرو السفر، ينزلون بالبقاع التي حلّ بها الجوع والقحط، فيسهرون على

إطعامهم وتعليمهم، يلتزمون بأمر ربهم بتفعيل حركية القلم.. القلم الذي أمرنا الله بحمله لمحاربة الجهل. القلم لسان البصر.. القلم بستان أشجار أغصانه المعارف والعلوم.. القلم بحر لؤلؤ جواهره الحكمة.. القلم سفير العقل الإنساني عبر الأزمان..

ترى يا مريم، هل أحسنت أمّتي التعلّم بالقلم؟!.

أسئلة كنت أحاول استحضار بعد مسافة الإجابة عنها، حين باغتني أحمد مطر بجواب قصيدته "قلم الرصاص":

"جس الطبيب خافقي، وقال لي:
هل هنا الألم؟
قلت له: نعم..
فشق بالشرط جيب معطفي،
وأخرج القلم؟
هز الطبيب رأسه ومال وابتسم،
وقال لي:
ليس سوى قلم..
فقلت: لا يا سيدي،
هذا يدٌ وفم،
رصاصةٌ ودم،
وتهمةٌ سافرةٌ،
تمشي بلا قدم!".

رؤيا أختي زكية.. رسالة وصندوق.. قلم ومفتاح

عدت إلى نزل باران، حيث نور فاطمة.. قلمي يسجل خواطر ما أرتشفه من عسل الحقول المعرفية التي أجوبها طوال اليوم، لم أحدث نور فاطمة كثيرا.

كنت أرغب في الكتابة فقط. طلبت من فاطمة أن تنزل معي إلى مكتبها، فهي المديرة، وأنا أحتاج الاشتغال بالحاسوب، أراجع رسائل طلابي، وأطمئنّ على عائلتي.

في تلك الليلة حصلت أشياء غريبة.. بدأتُ بالاتصال الذي تلقّيته من السفير الأندونيسي بهولندا "يونس أفندي حبيبي"، أخو الرئيس الأندونيسي الأسبق "بحر الدين يوسف حبيبي".. وقد تعرفت عليه في مؤتمر الطلاب الأندونيسين بالمغرب، وقد كان -رحمة الله عليه- يستأنس كثيرا برأيي في إجاباته على الإعلام الغربي، خاصة في قضية الفيلم الذي أنتجه فيلدز الهولندي عن الرسول ﷺ...

كلّمني ليلتها المرحوم "يونس أفندي"، وبصوت يرتعش غضبا.. أخبرني بأنه خرج لتوّه من لقاء تلفزيوني واجه فيه هذا المتعصب، بقوله للهولنديين:

- محمد رسولنا -صلوات الله وسلامه عليه- يؤمن به مليار وسبعمئة مليون مسلم، فكيف يكذب هذا الهولندي، هذا العدد الضخم من المؤمنين

بسماحة دعوته، ليصدق نفسه؟!.

أجبته:

- صدقت أيها البطل.

المرحوم السفير يونس أفندي:

- أتدرين يا مريم.. إن شاء الله لن أسكت له.. وسأناضل في كل القنوات الهولندية لمواجهته... وحين يطبق الرئيس الأندونيسي ما استسمحته فيه ساعتها سأكون بطلا.

باستغراب سألته: وماذا طلبت منه...؟

السفير يونس أفندي، بصوت مضطرب:

- طلبت منه أن يلغي زيارته المرتقبة غدا إلى هولندا، ردّا على نشر هذا الفيلم المسيء للرسول ﷺ ولمقدساتنا.

أجبته فورا:

- والله أحسن ما فعلت، أهنّئك لغيرتك على الإسلام وقضاياه..

ولأنني كنت أحدثه بالإنجليزية، فهمت فاطمة معنى الكلام، فطلبت منّي باستحياء أن أسمح لها بشكره بالأندونيسية، فهي كانت أَبْلاَ متولية بالعلم في أندونيسيا وعمرها لا يزيد عن ١٩ سنة.. وعاشت مشرفة في مدارس الفتح بجاكارتا لمدة خمس سنوات. كانت فاطمة تحكي معه في المكتب، بينما كنت أسترجع قصص هذا البطل مع قول الحق.

يونس أفندي، كان مدرسة في الحكمة بالنسبة لي، قال لي ذات يوم:

- يا مريم، مهما ارتقينا في مناصبنا، واستقوينا بنفوذنا، تبقى فطرة التوحيد حاضرة في نفوسنا، تحتاج بعض الأحيان للمْسة صغيرة كي تحركها. أنا -يا مريم- كنت قائدا في البحرية الأندونيسية، أنا من أنشأت

أساطيلها منذ نهاية الخمسينات. بعدها تقلدت مناصب عالية في البلد إلى أن عيّنت سفيرا في هولندا. في بداية فترة تقلدي للمنصب الجديد، كثرت الدعوات والزيارات والمجاملات لدرجة جعلتني أتكاسل معها على الصلاة.. فلا أحضر الصلاة، مع موظفي السفارة، ولا أحضر صلوات الجمعة في المساجد. بعد شهر جاءتني سكرتيرة صغيرة السنّ، نحيفة الجسم، قيل لي إنها كانت نصرانية ثم أسلمت. كلما حضر موعد للصلاة، إلا وتعمّدت الدخول للوضوء في مكتبي. يوم، ويومان، وثلاثة، إلى وصل يوم الجمعة، فجاءتني المكتب ووقفت، استجمعتْ كل قواها، وقالت: "أيها السفير، أنت تمثل ٢٤٠ مليون مسلم في هولندا، ألا تستحيي أن تترك صلاة الجمعة، وتتلهى عنها بمواعيد في مكتبك؟!"

يقول السيد السفير يونس حبيبي أفندي رحمة الله عليه:

– ما كادت تنهي حديثها، حتى كنت أزأر كالأسد، وكرجة زلزال مدوي، كنت أصرخ بأعلى صوتي: "أخرجوا هذه المصيبة من مكتبي.. لا أريد رؤية وجهها بعد اليوم هنا.. هذه الموظفة وقحة، وتستحق الطرد من السكرتاريا ككل".. خرجت الفتاة مذعورة، ودموعها على وجنتيها الصغيرتين، وخرج معها الجموع من موظفي السفارة يهدّؤون من روعها.

يقول المرحوم السفير:

– ما خلوت بنفسي بضعة دقائق، حتى احمرّ وجهي، واعتصر العرق من على جبيني، وناداني هاتف روحي، مستفزا تصرفي الحقير: "فأنا المسلم أبًا عن جد، تعظني وتنهاني مسلمة جديدة لم يمر على إسلامها أكثر من شهر.. إيه يا ابن الأبطال المجاهدين، يا ابن بيت العلم والورع.. أثّاقلتْ يدُك لتنزع حذاءك وتركع لسيّدك وخالقك وولي نعمتك؟! ارتفع شأنك

ولم تعد ترضى ببيوت الله إقامة لك، بعد إقامات واستقبالات قصور ملوك هولندا!؟ أنت من استقويت بمنصبك، بعث لك المولى أضعف خلقه، لتوجهك نحو الصلاح والسداد".

يقول:

- رفعت يدي لخالقي، وتضرّعت مستغفرا طالبا العفو والقبول.. نزعت حذائي، وتوضأت بدموعي. صليت ركعتي شكر في مكتبي، وطلبت سائقي لإيصالي لأقرب مسجد حتى ألحق صلاة الجمعة مع المصلين.

فاطمة نور ما زالت تحدث السفير الأندونيسي رحمة الله عليه، الذي أخبرها في نهاية اتصاله بأن الرئيس وافق على طلبه ورجع من المطار لاغيًا موعد العشاء مع الملكة الهولندية، مما أثار حينها ضجة إعلامية هزت أرجاء هولندا.

كنت مستبشرة بهذا الخبر، حين رنّ هاتفي مرة أخرى، فوجدت رقم أختي "زكيّة" من المغرب، تسألني وتطمئن على أحوالي في تركيا. أثناء حديثها قالت لي:

- يا مريم، قولي "خيرا وسلاما".

قلت:

- خيرا وسلاما زكية.

زكية:

- حلمت بك يا مريم بالأمس وكأننا في غابة واسعة ممتدّة الأغصان والأشجار.. كلّنا كان مستلقيًا بجانب نهر صغير ممتد على طول الغابة، وكأننا في نزهة عائلية، وأنت تبحثين عن شيء. سألتك: "عما تبحثين يا

مريم؟"، فقلت لي: "أبحث عن رسالتي التي كتبتها لأستاذي فتح الله".. فأجبتك أنت لم تكتبي رسالة للأستاذ، وإنما أنا التي كتبتُها... وتوصّلتُ برد من هذا العالم الفذ المتواضع.. دعيك يا مريم الآن من الرسالة واستمتعي قليلا بوقتك معنا". واصلتِ بحثك ولم تلتفتي إلى نصيحتي. كنتِ متأكدة من وجود رسالة ضاعت منك بين أمتعة النزهة.. فإذا بنا نسمع صوت صهيل فرس أبيض يمتطيه رجل طويل يسارع الرياح كالبرق متوجها نحونا. انفزعتُ وانفزع معي كل من كان حولي. نزل الرجل وهو يحضن صندوقا متلالئًا بالصدف وفي يده مفتاح وقلَم.. ألقى علينا جميعا تحية السلام، وتوجّه نحوك، ثم قال: "ما تبحثين عنه يا مريم معي في هذا الصندوق".. رفعك بيده اليمنى فوق الحصان، وكالسهم انطلقتما وغبتما عن أنظارنا. صرختُ بأعلى صوتي: "مريم، مريم".. وكلما ازداد صراخي، ازداد سكون صهيل الفرس. فصحوتُ وأنا أردّد إسمك "مريم مريم"، والعرَق يتصبّب من على جبيني.

قلت لها:

– عساه خيرا إن شاء الله.. أختي زكية لا تقلقي.. الفرس الأبيض خير، والقلم والرسالة والصندوق كلها إشارات دالّة على الخير.. لا تنزعجي رجاء، فأنا بخير ومع أهل الخير في بلد الخير تركيا.

* * *

الساعة متأخرة.. طلبتُ من فاطمة المغادرة وتركي أشتغل. فاطمة كانت متعبة في تلك الليلة، ومع ذلك أبت إلا أن تنتظرني عند باحة استقبال المكتب.

بدأت في كتابة أجوبة لطلابي عبر الإيميل، ثم وقفت لهنيهة أفكر،

وكأن رؤية ومنام أختي أوحى لي بإشارة إرسال رسالة للأستاذ. ولم لا؟

واجب علينا أن نشكر هذا الرجل الذي ضحّى بعمره وبوقته وسعادته في سبيل تنوير عقول جيل القرن الواحد والعشرين بمنهج حضاري فاعل وبناء. لم لا أخطّ كلمة شكر لهذا المفكر الذي استطاع بإصرار قلمه السيال أن يوصل هذا الخير العميم إلى أرجاء تركيا والعالم بأسره، حتى أصبح الأوربيون والأمريكيون يعقدون المؤتمرات دراسة لعمق فكره ومنهجه الحضاري؟!

القلم في يدي.. ولكنه لم يسعفني في خط السطر الأول من هذه الرسالة.. فكرت كثيرا في أسرار القلم.. كيف يعلن عصيانه إن توقف عالم الأفكار.. وكيف يخضع بمداده وينساب، إن نحن رتبنا وهندسنا له عبارات الأفكار.

فالقلم حين نسخّره في إزالة الانحراف المتكلس المتراكم عبر عصور جيولوجية عديدة، ونوظفه في المعرفة، يوجه شوكة مداده نحونا، ويدفعنا نحو البحث عن اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذواتنا، وإثارة إرادة تفعيل جهد متواصل، وهمّة أصيلة، وصبر غير نافد، وأمل حيوي، وإرادة صلبة، وتأنٍّ بعد تأنٍّ لزمن طويل؛ حتى نخرج درر أسرار وحكم الدنيا بالقلم، هكذا قال لنا ربّ العزة والجلال: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العَلَق:٥).

فبالقلم نستشعر التعقل، ونكتشف أسرار الكون والإنسان والحياة، وكأنها نغم مسبوك من أصوات متنوعة بسنفونية واحدة تعبر عن ألوان موسيقية، أو نقش مركزي تحيط به نقوش أخرى، وكلها روابط تشدّنا نحو المركز.

وبالقراءة يحمل الإنسان العقل والفكر إلى تفهم هذه الأسرار، بمعانٍ ومحتويات وحكم لا تحصى، فيسجّلها برسائله كتابا لمنظومة حِكم غير متناهية. القراءة أثر فنّي يعكس ملايين الألوان للعلوم الكونية والربانية، فيغرق العيون ببريقه وتلألئه، وبرؤية فنّه المبهرة.

القلم حامل رسالة الفكر والحركية.. به ننطلق لننقش على قماش روحنا ومعنانا زخارف متنوعة تناسب أذواقنا وأعرافنا وحضارتنا.. القلم خط في الحياة ممتدّ على مدى فصولها لإعداد مهندسي العقل وعمال الفكر.. أضاء بمداده قناديل تشع ضياء.

في تلك الليلة لا أدري ما استشعرته من نشوة في الاستمتاع بصفات القلم. وفجأة أعدت النظر في قلمي.. تأملت فيه كثيرا، وقررت البدء في خطاب للأستاذ فتح الله كُولن.

لا أدري من أين أبدأ وإلى أين أنتهي يا أستاذي فتح الله؟ يا من في محبة المولى بذلتَ روحك وهواك! فأهل المحبة بالمحبوب قد شغلوا، لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها.. لا أعلم كيف أخطّ رسالة لمن هاجر في البلدان حين سباه هوى المولى وبات بأوجاع حبه يتقلب.. لا أعلم كيف أخاطب

مَن لو كان له قلبان لعاش بواحد، وترك قلبًا في حب المولى يُعذَّب.. ما عساي أقول لمن هام على الكون من وجد ومن طرب، وما استقال به ربع ولا طلل...

من إزمير بيت الربيع قد سارت عزائمه، وفي خيام حمى المحبوب قد نزل. ما عساي أكتب يا أستاذي، والقلم يخبرني قبل سيل مداده قائلا:

– هنيئا لك يا مريم بشرف خط رسالة لمن تنسم مدادي عطر نسيم

شرف وصال الأحبة.

فقلت له:

- نعم هم الأحبة، صوتهم ناداني عبر الزمان والمكان، فانحنيتُ إجلالا ووقارا لسماع ندائهم. كيف لا، وهم عن خدمة الصمد المحبوب ما غفلوا. فسبحان من خصّهم بالقرب حين قضوا في حبّه وحب عباده، وعلى مقصودهم حصلوا.

إن ميلادك كان مفخرة للأمّة، وبشائر وصال المحبة بين أهل الخدمة.. فيوم الاحتفال بعقيقتك -يا سيدي- كان ليلة ميلادي.. ومن زمن ابتهاج مناسبات أعياد الميلاد في أماكن مختلفة وبأزمنة متباعدة، كنتَ هناك بروحك الفانية في محبة الله تطلّ على مواليد من أقصى شمال المغرب. من إزمير إلى تطوان، إلى موقع رباط المجاهد سيدي طلحة الدريج الأنصاري، رفيق دربك ودرب فرسان التوحيد في توحد القبلة لتبارك له مولد حفيدته، ولتبعث في مهد روحها أمل حلم "عودة الفرسان" قبل أن تفتح أعينها على الدنيا، وتكحل مقلتها برؤية فضاءات المحبّة وصفاء العشق الإلهي... فحمدًا لله ربّي وخالقي ومولاي على كرم جودك وعطفك.. يا من هو خلَق فسوّى، وقدّر فهدى!. يا من لحق في كل شيء علْمه!. يا سرور العارفين، ويا أنيس المريدين، ويا من بذكره تزهو النفوس وتسعد!..

أستاذي فتح الله.. أبعث لك هذه الرسالة بمناسبة يوم ميلادك. لأنّك من الذين قضوا عمرهم في الإخلاص والوفاء والاهتمام بالعلم والمعرفة، لدرجة إيثار مشاعرك وعواطفك الإنسانية من أجل إحيائنا. وأستسمحك -أستاذي- في تجاوز لغة المجاملات، لأقول لك إنه من حقّنا عليك أن

نشاركك الفرح ونُسعِدك، ونَسعَد معك.. لأنك تجاوزت طاقتك الذاتية التي تنتسب إليها، وحولتنا إلى مركز محوري لطاقة قوة الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلية.. وكما سمحتَ لمحبتك وعلمك باختراق أرواحنا وعقولنا، نسعد اليوم -إن سمحت لنا- باختراق حدود البحار التي تعزلنا عنك، لنلف لك أرواحنا في وديعة مأمونة، ونجعلها هديتك في يوم عيد ميلادك. فإن كان للناس في كل عام عيد، فإن لنا بك وبفكرك وعلمك في كل يوم عيد...

أنا -يا أستاذي- لستُ ممن أؤمن باحتفالات أعياد الميلاد، لكن أصدقك القول إن أخبرتك بأنني ربما أنساه لكثرة انشغالي في هموم أمتي، ولكن عندما تأتيني رسالة تهنّئني من طالب درسته أو طالبة، تكون بلْسما لي، وأحسّ بأن البنوة تطرق فؤادي الفارغ، فأسعد بالسير في درب الأمّهات اللواتي يحتفظن في صدورهن بحيوية الفكر ومشاعر القضية وعزم حسن التربية والرقي... وكما قرأت لك، ينبغي أن يكون كل جهد وهمّة، كل قطرة دمعة بعد الآن، شفاء لجروحنا التي بدت مستعصية على الدواء، وضياء للمستقبل الذي يبدو مظلما في عيون البعض من أبناء جيلنا.

ولذلك يحق لنا أن نترقب نسيجًا مباركا بألوان الغد السعيد غزلته بمغازل صوف أفكار الخير والمحبة، ونقشته بنقوش المعرفة، بعدما لقحته بأمصال الوقاية المستخرجة من مختبرات أرواح الأبطال المتّقدة بحماس القلوب، والمتجدّدة بتجدد الزمان والمكان.

* * *

إلى هنا توقفتُ، وتوقف معي قلمي، اشتد نعاسي، واستسلمت لنداء

النوم.. فاليوم كان مملوءا باللقاءات العلمية والزيارات للمؤسسات. لم أشعر إلا وأنا أسترخي برأسي فوق مكتب فاطمة نور، في غفوة منامي التي امتدت لبضع دقائق.. رأيتُ حارس إقامتي في الرباط يرنّ علي في شقتي، ويخبرني أن ضيوفا يريدون مقابلتي.. فطلبت منه أن يوصلهم للشقة ريثما تتأهب العائلة لاستقبالهم. سألته:

- هل هم من عائلتي؟.

فأجابني:

- لا سيدتي، هم غرباء، وكلامهم غريب.

قلت له:

- كلامهم غريب؟! ماذا تقصد؟

فأجابني:

- نعم، يتكلمون بلغة لا هي فرنسية، ولاهي عربية.

والدي:

- طيب، خيرًا إن شاء الله... ربما هم العائلة من سوس. أنا سأنزل لاصطحابهم للبيت..

بعد أقلّ من خمس دقائق كان الكلّ جاهزا لاستقبال الضيوف في الصالون.. لم أصدّق عيوني حين رأيتُ أول الوافدين "زياد" قائد الرحلة النورانية، ومعه الأستاذ مصطفى، والأستاذ جمال، يرافقها إبراهيم المصور.. وهو يحمل صندوقا كبيرا مزخرفًا بالصدف الإسطنبولي والنقش العثماني الأصيل... كل الوجوه تبتسم.. يبادرني الأستاذ "زياد" قائلا:

- مرحبا أستاذتي مريم.. جئناك بالبشرى.. جئناك بردّ الأستاذ فتح الله عن رسالتك مع هدية صندوق بداخله قلمه الخاص مع مفتاح اختارهم

الأستاذ خصّيصا لك.

أجبت في اندهاش:

- أي رسالة تقصدون؟!

أنا فعلا بدأت أخطّ رسالة للأستاذ.. لكن لم أتممها بعد؟!

الأستاذ مصطفى:

- لا سيدتي مريم.. رسالتك أنهيتها، ووصلت للأستاذ.. فكانت بلسما له في عزلته.. وأدخلتِ السرور إلى قلبه... فبعث لك بالردّ معنا في هذا الصندوق، ووضع لك فيه مع الرسالة مفتاحًا وقلمه الذي خط به العديد من مقالاته.

- يا الله، ما أكرمك!. صندوق وقلم الأستاذ؟!

فتحوا الصندوق، بينما كنت أرتجف في منامي من شدة فرحتي، بالمفاجأة...

الأستاذ فتح الله توّج رأسي بسطور أشاع نور مدادها في قلبي قبل أن يرتجف بها لساني وقلبي وجوارحي... كنت أقرأها وأنا أسمع همس صوته الحاني... يتلو عليّ ما لم أستحقّه من جود كرم مشاعر نبيلة وصادقة، كانت تلامس روحي ويرتجف لها قلبي قبل أن تصل إلى ذهني... كانت السطور معطّرة بمسك أدعية من نسيم ورد وياسمين.

الزمر.. مقاولات هندسة الأفكار

من فيض مشاعر رسالة الأستاذ فتح الله أيقظتني فاطمة نور، فأدركت أنني نمت فوق رسالتي التي وجدتُها مبللة بالدموع.. توجهت كطفلة فرحة بهدية العيد لغرفتي، فاستلقيت فوق سريري، ولم أستفق إلا صباح اليوم التالي، حيث الموعد مع الزمر.

لم أكن أعلم شيئًا عن الزمر إلا ما تلوته من الذكر الحكيم عن مصطلح "الزمر". كنت أحاول التحكم في سير قدمي، حتى لا أسبق بخطواتي السيد مدير مدارس النجاح المتأني في مشيه، وأحاول استدراك ما يقول:

– أستاذة مريم، الحديث عن حل المشكلات التعليمية في مدارسنا لا ينطلق من استيراد مقررات معلبة جاهزة للاستهلاك، وإنما ينبثق من معاني آيات قرآنية؛ فـ"منهج الزمر" سيدتي، مستلهم من مفهوم قرآني، وفي الرياضيات والجبر التجريدي، هناك نظرية الزمر الإنجليزية (Group Theory) وهي فرع من الرياضيات يهتم بدراسة الزمر وخواصها. الزمرة أستاذة، تعني "مجموعة" أو "جماعة مشتركة في صفة أو عدة صفات". ولكي تشكل مجموعة ما زمرةً يجب تحقق عدة شروط: الاشتراك في المنطلق والأهداف، لتحريك وتفعيل هندسة مشاريع الأفكار في كافة التخصصات.. لجان هيئة الزمرة تجتمع أسبوعيًّا، للبحث في المشكلات التعليمية، وتنجز الخطط والبرامج الضرورية الكفيلة بتنمية مهارات

وكفايات الطلاب.

كنت أنظر إلى إشارات حركات السيد المدير، وهو يشرح برامج أعلام أهل الخبرة والاختصاص في فنّ هندسة البرامج التعليمية، وتأثيث فضاءات مناهج وطرق التدريس، وأنا أقرأ بسرعة أوراق تاريخ أرباب القلم، من أعلام علماء الإسلام الذين خلّدوا بمداد مخطوطاتهم، تنوعا في دائرة مناهج العلوم، وحل المعضلات الفكرية والاقتصادية لمجتمعاتهم.

إن دنيا رجل الفكر في عالم الزمرة، لا بداية لها ولا نهاية لها.. شعارها التميز والتفرد. تميز بأصدق القرارات وأخلص التوجيهات، لتكتمل المكتسبات عبر جسور الاحتضان الأسري والتبنّي التربوي، في قوالب العقل المنظم لسير المنهج.

المدير:

- إن التعليم في منهجنا -سيدتي- هو واجب خدماتي.. فالفكر المنظم لبرامجنا هو فكر ينطلق من فرضيات التساؤل عن مشروع بناء الإنسان الهادف الإيجابي وتفعيل إحساس قيمة شعوره بمسؤولية البحث عن حقيقة ثلاثية العلاقة بين "الذات" و"الله" و"المجتمع"، في لسان كل شيء، وفي كل مكان. فالفكر -يا أستاذتي الكريمة- وكما استلهمناه من أستاذنا، هو ما يتآلف مع العالم، ويمزق قوالب العقل الضيقة ليفيض بمخرجاته خارج حدود الزمان والمكان.. يتحرر من الأوهام المنسلة إلى أغوار الروح، فيوائم الحقائق التي لا تزيغ ولا تضل.. الفكر -كما أوضح الأستاذ فتح الله- هو تفريغ داخل الإنسان من أجل أن يتسع المكان للتجارب الميتافيزيقية في أعماق داخله، ليرتقي نحو مدارج الفكر المتحرك الفعال.. هذا هو منهجنا ودربنا وسر تميزنا. نحن لا نجثوا أمام

برامج موهومة، ولا نجدد العهد مع مناهج تعليمية مزيفة مستوردة جاهزة للاستعمال!.

نعم سيدي، الحقّ معك.. أقولها وأنا أردد مع نفسي: "هذا هو سبيل دعاة تبليغ الرسالة.. ترك المقامات والمناصب الدنيوية.. الاستغناء عن المآرب الذاتية.. استبدال الأوراق المالية بقطع ماسات تربوية.. البعد عن بيع الوهم في دكاكين صنع المناهج التعليمية"...

وصية حكيم... زمن غياب الفعل

وقفتُ لهنيهة قصيرة قبل أن أستقل الحافلة.. ألوح بيدي.. أجدّد شكري لمن حملوني عبر رحلة نورانية إلى عالم حقيقي المكان، أسطوري الزمان... أشكرهم وأنا أردد وصية كلّفني بحملها الأستاذ فتح الله، ليلة رؤيا نداء الروح.. ليلة سر فضاءات عوالم سماء الخامس.. وما أدراك ما سر هيبة الفضاء؟! إنه المكان الذي يتربع على عرشه فارس المعرفة ومجدد القرن.. هناك حيث تنزل على الرؤوس الشهب بالفلك، وتحمل الأسفار، وتملأ خزائن حافظة الإنسان بمئات الكتب والمؤلفات... في تلك الليلة أوصاني الأستاذ فتح الله قائلا:

- يا مريم، يا حفيدة الأنصاري عبادة بن الصامت، طلحة الدريج الأنصاري.. أوصلي سلامي لأبناء وأحفاد يوسف بن تاشفين وطارق بن زياد وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار ومالك بن نبي الذي أحببته كثيرا، وأوصيهم بأن يعيشوا أعزاء كرماء، مستغنين دائما، أنصار الكلمة.. فمناصب الدنيا زائلة، وتأثير الكلمة قوي ثابت. احذروا الأنانية في المجادلة.. ابتعدوا عن المراء والعناد.. استعملوا العقل والمنطق والبلاغة، والفصاحة، مع ما يناسب بيان الحكمة. فكما أن التبليغ والإرشاد وظيفة، فإن معرفة فنّ التبليغ وظيفة أسمى.. إن الانشغال بمظاهر الجيل الحاضر وبملابسه وأغانيه ومسلسلاته وملاحقة فيسبوكه، بدلا من ترشيده وضمد

جروحه، يدفعه للنفور والهروب من تحقيق سعادة الإنسان الأبدية...

قولي لهم يا مريم: من لم يقرأ علوم الحياة لا يخفق قلبه بحاجيات الشباب.. والمفكر هو البطل الذي يدرك عصره ويستهين بتفاهات الدنيا كلها.. وكما أن إعطاء الدواء قبل تشخيص المرض خطأ بيّن، كذلك القيام بالتدواي، قبل تشخيص المرض خطأ بيّن.. إن هذا الجيل المفتون بشاشات سلب الروح، لا يشبعه أي فكر مزخرف مزركش ما لم نرعاه، ما لم نرشده تربويا وعلميا وروحيا ومعرفيا... أخبريهم بأن علاج أزمة اضطراب جيلنا الحاضر بالحلول المالية دون تأهيلهم، هو الغفلة بعينها.

فالجيل الحاضر والمقبل هم شعلة التوقد الدائم في دم الشعوب والأمم.. هم دواء يفتت حصى عَفَنَ الزمن المتراكم على جمود العقول وشلل الأرواح.. احترموا عقولهم، فهي تزخر بمعين فائض من شلالات ينابيع الحياة، وتفجرات الأفكار.. استرشدوا بأفكارهم، فهي تتعاقب في منابع براكين أدمغتهم حدّ الانفجار.. اعطوهم فرصة لتتفجرمعارفهم بينابيع الخير، وتتوزع إبداعاتها على جداول سفوح البساتين المخضرة.. لا تمنعوهم من التفكير، لأن أفكارهم الفتية إن لم تتحول إلى شواهد حياتية متميزة ومرجعيات فكرية فاعلة، ستموت وتتدحرج من قمم الجبال على السفوح اليابسة، فتضمر النار في سهولها، وتلتهب اخضرار أغصانها ونباتها... حافظوا على شبابنا من الإحباط واليأس وزرع عدوى الشلل العقلي، والاتكال والموات الفكري...

أنت يا مريم، كنت تجوبين عوالم مختلفة من الدنيا، تحاضرين وتشاركين في المؤتمرات، أتيح لك أثناء وجودك بتلك البلدان زيارة أبنائي في مدارس المستقبل، بإندونيسيا وأمريكا وفرنسا وبلجيكا، والمغرب

وألمانيا وماليزيا.. ووجدتهم في سعي دؤوب، وبحثٍ جادٍ للوصول إلى قلب عقل الأمة.. طاقات شابة، أودعت في مدارس وجامعات المستقبل، أمانة كل ما في أرواحها من أسرار مقدّسة، وكل ما في عقولها من أفكار واعدة...

جددي لهم وصيّتك -يا مريم- التي أوصيتهم بها ذات يوم في جامعة الفاتح حين قلت لهم: "أفكار الأستاذ فتح الله ملهمة القدرات الإدراكية، محفزة على بعث الإنسان الجديد.. قراءاته المستقبلية مجددا للقرن الواحد والعشرين رسمت لكم معالم طريق نهضة حضارية، تتلمسون سبلها من بين عشرات الطرق.. فلا تحفظوها عن ظهر قلب حبا في شخص مجددها، وإنما حاولوا استيعابها.. اقرؤوا ما بين سطورها.. دقّقوا في رسائلها الحاضرة والمستقبلية... لأن الحفظ من دون فهم قد يوديها ويحبسها عند جسر العبور..

القرآن ذاته -وهو كلام الله المقدس- لما حفظناه في الصدور، من غير فهم وإدراك، يتمْناه وهجرنا معانيه، أوقفنا امتداد نوره الفياض، عبر جسور عوالم الدنيا... يا ابنتي مريم، أوصي الشباب المجدد، بأننا في حاجة إلى إصلاحات؛ فالشباب المجدد في قلق دائم زمن الثورات. قولي لهم بأن الإصلاح لن يأتي من غير اللحاق بثورة الروح والفكر، ثورة التعلم، محاربة أمية تأهيل القدرات الذاتية، بالإرادة بالفعل بالإنجاز..

فاللغة الثورية الحقيقية، تبدأ مع تغيير عنصر الخمول في الذات، والتأهب بسلاح العلم والمعارف والتحصيل.. هذه الثورة هي التي على الشباب المجدّدين اكتشافها يومًا بعد يوم.. عندما ينشقّ فجر ثورة الذات، تنطلق أصوات التفعيل والعطاء، مذوية تشد خيالكم، تحت سحر أحاسيس

غامضة، لتطير بكم في جو روحاني نحو أعماق الإخلاص في الإنجاز.

كنت أتلو هذه الوصية وصوتي يرتجف، ويئنّ بحنين حكمة الكلمات، التي تبعث قشعريرة في الجسد.. مشاعري مفعمة بروح وصال تبليغ وصية الأستاذ فتح الله كولن. عشتُ سحر لذّة وصال فكري وروحي في الرؤيا.. ارتشفت من ينابيع حكمها الفياضة.. تلبست أحوالي...

فكلّ ما شاهدتُه، وكلّ ما سمعته، وكل ما أحسست به، سجلته في رسالة أرسلتها في رؤياي تلك الليلة مع هدهد نداء الروح، ليخترق بها أنفاس رائحة تلك الحكم النقية، ويلقي إلى الحكيم السلام مع السمع، مبلّغا إياه أنني استنشقتها بعشق امتلأ به صدري، وأن نديم الوصية سيجمل حياة من أرسلت إليهم بتلونات عديدة.

إن سر الكلمة ينطق بجمالية، لفظ عباراتها الرقيقة، الناعمة كالحرير، والدافئة بالمحبّة دفء عش الطير، والمملوء بالحيوية كما يريدها جيل القرن، جيل مجتمع المعرفة، جيل القرن الواحد والعشرين... سر معانيها يمثل مخزون صفاء المشاعر وراحة الوجود والاطمئنان، وغاية العمران، ومغامرة المبادرة والجاهزية، وجذور تطور المعاني لبناء نهضة حضارتنا.

في رحلة الانتظار لعوالم الأمل، تزاحمت صرخات الصمت، بعد جهد الرواد الذين ربطوا حياتهم بإحياء نفوس الآخرين.. أطل علينا صوت مفكر، فتح لنا أبواب عالم رؤى المستقبل بلغة الفعل التي أنزلها من الكتاب المبين، وسار بها متجولا في القرى والأحياء والمدن، إلى أن همست بصواب هذا الفكر. ربط التنظيرَ بالواقع، فعبرت إلى منافذ القلوب وأعماق شواطئ المشاعر.. مشاعر عبّرت عنها رائعة سيد العارفين أبو مدين الغوث في مطلعها:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسداد والأمرا
فاصحبهموا وتأدب في مجالسهم وخل حظك مهما خلفوك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائما معهم واعلم بأن الرضا يخص من حضرا
ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا
ولا تَرَ العيب إلا فيك معتقدًا عيبًا بدا بيِّنًا لكنه استترا
وحط رأسك واستغفر بلا سبب وقف على قدم الإنصاف معتذرا
إن بدا منك عيب فاعتذر وأقم وجه اعتذارك عما فيك منك جرى
وقل عبيدكموا أولى بصفحكموا فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا
هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم فلا تخف دركا منهم ولا ضررا
وبالتغني على الإخوان جد أبدًا حسًّا ومعنى وغض الطرف إن عثرا
وقَدِّمِ الجِدّ وانهض عند خدمته عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا
ففي رضاه رضا الباري وطاعته يرضى عليك فكن من تركه حذرا
واعلم بأن طريقا لقوم دارسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى
متى أراهم وأنى لي برؤيتهم أو تسمع الأذن مني عنهموا خبرا
قوم كرام السجايا حيث ماجلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طرفا حسن التآلف منهم راقني نظرا
هم أهل ودي وأحبابي الذين هموا ممن يجر ذيول العز مفتخرا

على مشارف تل العرايس

عند بلوغي آخر بيت في القصيدة سألني الأستاذ زياد، وكأنه كان يختلس سر معانيها من خلجات أنفاسي وهمسي:

- أستاذتي، سمعتِ بتلّ العرايس، الموقع السياحي الشهير في إسطنبول؟

قلت:

- لا، سمعت عن جزر الأميرات، هل هي نفسها تلّ العرايس؟

زياد:

- تل العرايس من أروع المناطق، ذات التميز الطبيعي الخلاب بشرفتها وإطلالتها على البوسفور.. سُمّيت بـ"تلّة العرايس"، لأنها محط زيارة كل العرسان الجدد. تل العرايس نالت حظها الوافر من مداد شعراء تركيا، فهي كالمرأة الفاتنة تستحق أن تطرى ويتغزل المرء بجمالها.

فعلاً كان المنظر أكثر من رائع، وكانت المنطقة فاتنة. مربعات الأشجار ومساكب الأزهار المحيطة بجوانبها، تبرز نفسها نحو الضياء الممتد نحو الشمس الساحرة بأشعّتها الذهبية.. الأغصان بدت ناظرة بإشراق الظهر.. الطيور المغردة تطرب الآذان وترفرف بأجنحتها الصغيرة على ارتفاع منخفض.

نزلت من الحافلة، وبدأت أستنشق ريح سعادة المكان.. الجو صاف،

وطبيعة الفضاء كلها تتنفس بسلامة النية والمحبة والإخلاص. كان بهو المنتجع السياحي الذي نقصده نقيًّا، ملأ صوته بألحان هبوب ريح التلّة.. ريح تسمع بصوتها جبال الضفّة الأوروبية الشاهقة، لتشعرها بالعزيمة وقوة الإرادة.

الهواء النقي يتنفسه الإنسان، فيخرج بالأوكسجين سموم همّه وآلامه.. يحفر تموجات داخلية في روحه، فيشعره بالدفء والأمان والقوة والصبر ومواجهة هموم الحياة.

كنت أحسب أننا وصلنا للمحطة السياحية، في هذه الرحلة العلمية النورانية.. فالمكان يوحي بجولة استجمامية التل الشامخ الذي يطل على كل أرجاء مدينة إسطنبول الساحرة، اسم "العرايس" يوهم بأن المحطة سياحية بامتياز.. الهواء النقي والطبيعة الخلابة.. المركب السياحي الضخم الذي نتوجه نحوه، مساحات خضراء شاسعة.

فيلات متفرقة، تتخللها ساحة رياضية واسعة. المسجد الكبير المحيط بالمنتجع.. الحافلات المصفوفة في انتظام أمام مدخل المنتجع. سألت زياد:

- هذا المنتجع مشهور في منطقة تلّ العرايس؟

زياد:

- سيدتي هذا ليس منتجعًا، وإنما هي مجموعة مدارس؟

أجيب:

- مدارس؟! وفي تل العرايس؟!

زياد:

- نعم سيدتي، هي مدارس وفي تل العرايس، أغلى منطقة سياحية

بإسطنبول؟

أتساءل:

- مدارس في أغلى وأرقى موقع سياحي في إسطنبول؟

زياد:

- نعم سيدتي. لا تستغربي كثيرا، فأنا سأقصّ عليك قصة هذه المدراس. هذه مجموعة فيلاّت صمّم بناءها رجل ثري، وجهزها في أفخم مواقع العاصمة، بعدما أنفق عليها أموالا، ترقى بمستواه ومستوى أبنائه الاجتماعي والاقتصادي في البلد.. بعدما أكمل بناءها وصيانة حدائقها، وأصبحت جاهزة للسكن، وضع أساسات مسجد فخم مجاور لمركب الفيلات. تغيرت رؤيته لهذا المشروع السكني، فحوله إلى مشروع علمي، وأهدى مفاتيحه إلى أهل الدراية، وبهمّة بالغة السموّ وعد القائمين على مجموعة المدارس التي وهبها في سبيل العلم والمعرفة، بأنه لا يريد ذكر اسمه للناس، وأنّ قدَماه لن تطأ هذه المؤسسة، بعد تسليمه مفاتيحها.

أسأل:

- ولماذا كل هذا أستاذ زياد؟

زياد:

- أراد ذلك سيدتي، حتى لا ينْتابه أيّ غرور، أو يزين له الشيطان الاستمتاع، لغة الشكر والاطراء في حقه، فيمحى أجر صدقته الجارية..

كنا نتوجه نحو قسم مديرية المؤسسة، بإحدى المساكن، وهو المسكن المرقّم برقم "١". شرفته واسعة ممتدة الجذور، ذكّرتني بشرفة دار الأرقم بن الأرقم.. نوافذه متنامية الإشعاع في منابت الحياة، تنفخ طلتها نسيمًا ينعش أوصال الأرواح الميتة، لتتحول إلى حياةٍ تشعر النفوس بالأذواق

الرحيبة لغاية الوجود.

يتابع زياد، وهو يداعب الطفل "جمال" بلغة حنان تركية تحتضن لقاح طفولته:

- أستاذتي، هذا الرجل هو من صنْف "حفنة المجانين" التي تضرّع بها الأستاذ فتح الله، سائلا المولى ﷻ أن يرزقه صحبتهم.. هذا الرجل من أولئك "الأبطال المجهولين" و"صروح الروح" المتحركة على ساق وقدمين، الذين يسبقون للأمام أبدا، ويظهرون في الخلف دائما.. الذين يعيشون حياة مَن يترك ذكرى لطيفة للأجيال، ولكنهم يجتهدون في تحقيق متعة عناق الموت ليسمعوا في قبورهم الناس وهم يرددون: "مات مسكين، فتهنأ أرواحهم".. هذا الرجل -يا سيدتي- بطل مجهول، لا يريد الإفصاح عن عنوانه ولا التعريف باسمه، قدم مفاتيح هذا المركّب الفخم في سبيل بناء فكر الإنسان، أوقف في سبيل خدمة إنسانية وكرامة الإنسان. هذا الصرح الذي لا يقدّر سعره بثمن، في منطقة راقية وسياحية لخمس نجوم.. ورحل بعيدا متوعدا أن لا تطأ قدماه شارع هذا المكان، حتى لا تغترّ نفسه وتزكي منافذ أعماق ضميرها يوما باستحسان صنيع العمل.

منافذ الخير شلالات.. تبحث عن جداول انسيابها

بلداننا الإسلامية، فيها أعداد من أمثال هذا الرجل، وجدت منها في الخليج، إندونيسيا، وماليزيا، وبلدي الذي أعشقه المغرب. فكرم أهله من المحسنين فياض، تشهد به مساجد عامرة، شيّدت من غير ذكر أسماء، تجهيزات مستشفيات، دور أيتام وعجزة، مؤسسات خيرية، جمعيات مجتمع مدني...

المغاربة شعب كريم، مضياف.. قلوبهم خيرة مفطورة بفطرة تراب الأرض.. أراضيهم فلاحية، وارتباطهم بالتراب يحيي في أرواحهم نبت حب الزرع الطيب.. أموالهم جاهزة للعطاء.. الضيف إن حضر، استلف الفقير من البقال، لإكرام ضيافته، فما بالك بالغني إن طرقت بابه؟ كذلك هي شيم أهل مصر والشام والحجاز والسودان والخليج والمغرب العربي وعمان، بل هي شيم المسلمين في كل بقاع الدنيا، كرم جود وعطاء...

الخير في أمّتنا كثير، وأهل الاحسان يحتاجون فقط تغيير مسلك عطاءاتهم من الاستثمار في بناء الجدران الخيرية إلى التوجه قليلا نحو الاستثمار في بناء العقول ودعم مراكز البحث العلمي. يا ليت قومي من مسلمي العرب والأمازيغ والعجم، يعلمون بسرّ تلّ العرايس الذي تحول من مشروع سياحي، إلى مشروع علمي!. يا ليتهم يشاهدونه فتفور مشاعرهم بالعبادة والطاعة، وتتدفق معها أحاسيس القابلية في الاستمتاع

بالعيش مع الشعور بمسؤوليات معرفية أخرى.. يا ليت أموالهم ترتقي إلى ذروة البحث عن النجباء والأذكياء، والاستثمار في مواهبهم ومهاراتهم بمشروع "اقرأ.. تعلّم.. ابحث.. ادرس.. طور.. جدد.. استشرف المستقبل".. ساعتها ستكون استثماراتهم قد احتضنت كل شيء، وأطلّت بأسهمها وشركاتها ومقاولاتها على الوجود بأكمله.

آه يا زمن الأبطال من أغنياء مستقبل الغد.. يا من بدبيب تحرككم الصغير ينمو كيان علمي وصرح معرفي كبير.. يا من باستثماركم في بناء الانسان تنسجون نسيجًا مباركا بألوان الغد السعيد.. تنقشون مقاولات أفكار صغيرةٍ تكبر بتشييد طوابق أفكار خير المستقبل، فتنتجون عقول أجيال محظوظة في الزمن الحاضر.. توشحون صدورها بميداليات الفوز والتألق في ميادين السباق الحضاري العالمي...

كنت أسأل عن سر سعي خطى فارس القرن الواحد والعشرين، نحو إدامة حيوية عواطف الهمم الجياشة، والأحاسيس المنسجمة في إيقاد جذوة الحماس، باتحاد العقل والقلب، وتهيئتها لمواكبة شروط الزمان والمكان..

ونحن ننحدر أسفل تلّ العرايس، في اتجاه أكاديمية البحوث والعلوم، كنت أجيب في صمت عن سؤالي: "نعم يا مريم.. إنه سر مكنون لمن يعيش تحت وطأة يوم، يسأل فيه عن عدد أنفاسه.. إنه درب الأنبياء والصدّيقين والأولياء والشهداء الأبرار. فيا حسرة من يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.. يا حسرة الحسرة على من يقولون ما لا يفعلون.. إنّ مَن لا يراقب مشاعره وتصوراته لا يمكنه أن يحرر سجون الأرواح ومساكنها..

كان المدخل مزيّنا بلوحات فنّية لرموز أبراج مخزون بنات أفكار، هذا

الصرح الأكاديمي البحثي العلمي: "برج"، "دفينة"، شَهْدَمار"، "إيشِيق"، "أكاديميا"، "قايْناق"، "كُولْ يُورْدُو"، "خزينة"، "لاَيْت" للنّشر، مجلة "يَنِي أُومِيد" الدينية، مجلة "يَعْمُور" الأدبية، مجلة "كُونْجَا" للأطفال، مجلة "فونتين" الإنجليزية، "سُتُونْ"، مجلة "حراء" العربية، دار "النيل"..

سألت الأستاذ "جمال" مدير المعهد:

- كيف تمكّنتم من جمع كل هذه المجلاّت العلمية، ودور النشر تحت مؤسسة واحدة؟

الأستاذ جمال:

- اسم المؤسسة يوحد مسارها، والعمل الذي ينسلخ عن المجهود الجماعي يخرج بحلّة غير منسجمة وغير موحدة الأهداف. المثقف إنسان علم ومعرفة، وموقفه في الإنتاج المعرفي لأفكاره ينبغي أن يساير التوجه الحضاري العام لمجتمعه وعصره.. من شيدوا أول لبنة في هذا المعهد -أستاذة مريم- هم أناس تحرقوا في سبيل إحياء لغة الحراك الثقافي، وتفعيل قدرات الإرادة الذاتية، تعاهدوا على أن يملأوا النهر بقطرات منتظمة من شلالات المعرفة، فغرسوا بذرة شجرة أرز صغيرة، وأحاطوها بالعناية والسقاية والرعاية، إلى أن كبرت وامتدت أغصانها عبر أرجاء العالم.. استطاعوا لبعدهم عن لغة قداسة الذات الـ"أنا".. أن يشيدوا صرح ثروة معرفية متلونة الاختصاصات والعلوم.. فنالوا التوفيق من رب العالمين بما صدقوا وأخلصوا..

في رحاب حراء

التجول في أروقة مكتبة الـ"أكاديميا" للبحوث والعلوم والانترنت، يوحي براحة امتداد فكري عميق.. من أرجائها انطلقنا نحو ممر طويل، ليوصلنا إلى مجلّة حراء... باحث مغربي يجلس فوق كرسي بباب المكتب، ملامحه مغربية، ترددت في سؤاله، سبقني بالوقوف وإلقاء التحية:

- أهلا أهلا أستاذة مريم..

سألته:

- هل تعرفني؟

قال:

- طبعا أعرفك، حضرتُ لك ندوة، سنة ٢٠١٠ تحت عنوان "الإسلام من هنا وهناك"، كنتِ تتحدثين عن مستقبل الجيل الجديد في البناء الحضاري.

أجبته:

- صحيح، كان هذا في الرباط، حيث اجتمعنا مع نخبة مفكرين من حول العالم.. وماذا عنك، ماذا تفعل هنا في مكتب مجلة حراء بإسطنبول؟

سعيد الباحث المغربي:

- جئت لتعلّم اللغة التركية، وهي تقدم هنا مجّانا لمدة سنة كاملة.

أعقب:

- معنى هذا أنك تريد إتمام دراستك بتركيا؟

سعيد:

- صحيح أستاذة مريم، أنا طالب باحث، أكمل الدكتوراه.. وموضوع بحثي "العلاقات التركية المغربية".. جئت قاصدا تركيا، بحثا عن المراجع والوثائق التاريخية.

ودّعته وأنا أدعو له بالتوفيق والسداد.. فهذا المشروع العلمي نحتاجه حقيقة في استشراف أبعاد هذه العلاقة المستقبلية.

تابعت سيري نحو مكتب مجلة حراء التركية العربية. الأستاذ زياد -وبابتهاج الأطفال ليلة العيد- يجوب بنا أرجاء حراء، بيت العرب المعرفي والعرفاني.

"حراء" الصادرة عن مجموعة "قَايْنَاق" للنشر، يرأسها الأستاذ نوزاد صواش.. بالصدفة وفي زاوية من قسم مطبعة حراء وقفت أمام مهندس البرامج، وهو يرتب ويصنف محور العدد الذي شاركت به تحت عنوان "سؤال العلاقة مع الآخر". فالرجل لا يعرف العربية، ولا يعرف مَن أكون، لكن شاءت الأقدار أن أزوره في مكتبه وهو يصمم لوضع صورة معبرة تتناسق مع محور بحثي.. فرشح المفتاح، كرمز لإكسير حياة المجددين.. وضع المصمم الفني صورة لمفتاح في راحة يد، وكأن حدسه أخبره بأنني سأحصل بعد حين من الزمن على مفتاح صندوق وقلم فتح الله بفضل من الله ونصر.

إشارة المعنى هنا وصلتني.. فدعوت في نفسي قائلة: "إلهي، أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك، وأنت الجواد بالعطاء من قبل الواقفين بباب رحمتك.. إلهي، إني أسألك بكتابك المبارك، وبجميع

ما فيه من لطائف الأسرار، أن تجعل حبك وحب رسولك أحب إليّ من نفسي وأهلي، وأن تحيي قلبي بنور المعرفة، وأن تنوّر فؤادي بضياء الهمة".

حان موعد صلاة العصر، فاستأذنت في السماح لي بالصلاة.. كان نصيبي وافرا من حظ إقامة الصلاة في حراء، اسم موضع نزول الوحي. حراء جبل النور، وحق له أن يسمى كذلك. فالجبل نور، واتصال وحي السماء بالأرض نور، وخير خلق الله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام نور، والتفكر في ملكوت الله بحثا عن الحق نور، وأول آيات الفرقان نور حقّ وبيان للناس... على هذا الجبل كانت لحظة من أجلّ وأعظم لحظات التاريخ، إن لم تكن أجلها وأعظمها على الإطلاق... لحظة نزول الوحى لأول مرة بفرض العلم والتعلم، بأمر القراءة ﴿اقْرَأْ﴾.

حراء المجلة العربية الأولى في تركيا.. حراء التي أبت إلا أن تحل ضيفة كريمة بغنى هداياها العرفانية والأدبية والعلمية على كل بيت عربي من طنجة إلى القاهرة فعمان فالسودان فسوريا فلبنان فالجزائر فالخليج، إلى كافة أرجاء العالم العربي.. حراء تسعى -جادة- لبناء جسور التواصل والتلاقح الثقافي والفكري والحضاري بين الشعوب، تعزيزا للعلاقات التركية العربية.. حراء قَيْنَاق تهذيب الأرواح، نسج خيوط نور رسائل المحبة النورانية تحت ظلال الأحاسيس.. حراء فتح الله لإقليم النور العربي بلسان عربي، حوصر منذ عام ١٩٢٤ ليتسع بإعلامه العلمي والإنساني في أرجاء واسعة من جزر التصورات.. حراء كما قال عنها مدير هندسة أفكارها "هي جسر ممتدّ لمحاورة بين أسرار النفس البشرية، وآفاق الكون الشاسعة".. حراء جسر تركيا العربية، الممتد نحو آفاق رفع

راية الإسلام، بكلمة الشهادة العربية: فالتركي والإندونيسي والهندي والأمازيغي والأعجمي حين يردّدها إعلانا عن توحيده بلغة القرآن، يردد "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله".. والمآذن من حول العالم حين تعلن نداء الرحمن، لا تعلنه بلهجات أقوامها، وإنما ترفع تكبيرة الأذان باللغة العربية: "الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله".

نعم إنها حراء... محراب اعتكاف العالم الناسك، المسبّح بحمد ربه، المتدبّر في ملكوته.. محراب قُدّر لي من أقصى شمال المغرب أن ألبّي فيه نداء الأذان التركي "حي على الصلاة، حي على الفلاح"، لأصلي فيه صلاة العصر.. فاستقر في محراب دعائي بلوغ اليقين في سجل دفتر عزم أبناء الخدمة...

* * *

كانت عودتنا إلى الحافلة مغمورة بسعادة عواطف عميقة تتلاطم في جوانبنا، لتنتشلنا إلى عالم سحريٍّ يبعث رجفة في سواحل قلوبنا ويجدّد أمَلنا في صرخة إحياء عوالم القلم المكتومة.

تركنا مقام المعاني في تجديد ربط صفوة المعاني، ونحن نربط الماضي بالحاضر لنستعيد ذكريات أمجاد بناة التاريخ وفرسان التغيير والإصلاح.

الفصل السادس:

بيت عرس.. فتح الله

عرس شيخ العزاب

من على تلّ العرايس، قدّر لي أن أزور عرس شيخ العزاب، الذي فتح الله عليه بأجمل جميلات المعاني، أحلى وأرقّ بنات المعرفة، أروع وأعذب فتيات صحبة التربية.

نعم قدّر لأهل المغرب، بعدما زاروا قصر إقامة عرسك سيّدي، أن يزفوك لعروسك المتربعة على تلّ عرسان العرايس، بزغاريد مَغْربية أندلسية، وبأهازيج أمازيغية جبلية حسانية أطلسية أصيلة، يقدموا التهاني القلبية لشيخ عزاب الفكر والتفعيل والإرادة، يزفون شاعر الوجدان التركي بشعر أهل العرفان الأندلسي الإشبيلي، وينشدون قصائد وصال الروح للعارف مولانا أبو مدين الغوث، في مديح سيد الخلق، خير البرية صلوات الله وسلامه عليه:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنّكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظرا حسنا كأنكم في عيون الناس أزهار
ونوركم يهتدي الساري برؤيته كأنكم في ظلام الليل أقمار
لا أوحش الله ربعا من زيارتكم يا من لهم في الحشا والقلب تذكار

* * *

فسيأتي هذا الحي غير سراكم واسمع من تلك الديار نداكم
ويجمعنا الدهر الذي حال بيننا ويحضا بكم قلبي وعيني تراكم
أنا عبدكم بل عبد عبد لعبدكم ومملوككم من بيعكم وشراكم
سقاني الهوى كأسا من الحب صفيا فيا ليته لما سقاني سقاكم
كتبت لكم نفسي وما ملكت يدي وإن قلت الأموال روحي فداكم
لساني يمجّد وقلبي يحبّكم وما نظرتْ عيني مليحا سواكم
وما شرف الأكوان إلا جمالكم وما يقصد العشاق إلا سناكم
وإن قيل لي ماذا على الله تشتهي أقول رضا الله ثم رضاكم
ولي مقلة في الدمع تجري صبابة حرام عليها النوم حتى تراكم
هزوني عظاما محملة أين صرتم وحيث حللتم فادفنوني حداكم
ومروا على قبري بقعر نعالكم فتحيى عظامي حين أصغى نداكم

* * *

في طريق عودتنا كان الجسر مكتظّا بالسيارات، وهذا أمر عادي بالنسبة لإسطنبول عاصمة المدن في تركيا، أجمل عواصم الدنيا، وخامس أكبر مدن العالم، من حيث السكان ١٧مليون نسمة.

إسطنبول المعروفة تاريخيًّا باسم بيزنطة والقسطنطينية والآسِتانة وإسلامْبول... سحرتني الحديقة الزاهرة التي تقع على مضيق البوسفور، وتطوق المرفأ الطبيعي المعروف باسم "القرن الذهبي" بالتركية (Haliç) أو (Altın Boynuz) الواقع في شمال غرب البلاد.. فترنّمت بأنشودة العاشقين في حق هذه المدينة الساحرة، سلطانة المحاريب، وحظيرة مطاف الأرواح المقدسة.. مساجدها سترة مراقد القلوب، العاشقة لحدائق الجنة.. مآذنها ممتدة نحو الجسر الفاصل بين قارّتين، مترفعة عن

الأرض، ترفع ترانيم مجد مسيرة البطولة التوحيدية.. إسطنبول الممتدة بحسن طلعتها البهية، على طول الجانب الأوروبي، من مضيق البوسفور المعروف باسم "تِرَاقْيَا"، والجانب الآسيوي المعروف بـ"الأَناضول".. إسطنبول التاريخ والجغرافيا، عروسة مسحورة، من مدن ألف ليلة وليلة، رومانية لاتينية، عثمانية... سهولها المشرقة، ساحاتها الفيحاء، فتنت من قبلي ملوكًا وأدباء وعلماء ونسّاك، أنطقت بالشعر أناسا لم يكونوا شعراء، وأشاعت بحسن جمالها وبحلّة عرسها الماسية في الناس فرحة لا تنقضي... هذه العروسة، رأيت جانبا منها في رحلة الصيف، وجانبا آخر في رحلة الشتاء، وأرنو لرؤيتها وهي مياسة في حلل الزهر، تختال في أفراح الربيع عرس الدهر، لتزف لعريسها المتغرّب الآتي من وراء المحيط، فتملأ الدنيا بالعطر والسحر، وتقرأ على قلوب العاشقين أبلغ الشعر. تزفه بقصائد عشق الواصلين، وتنشد له لحن الوجد والفراق:

يا فارس الفرسان!
قل للذي عن الوجد أهله،
إذا لم تذق معنى شرب الهوى دعنا،
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقاء،
ترقصت الأشباح أيا جاهل المعنى..
أما تنظر الطير المقفص يا فتى،
إذا ذكر الأوطان حنّ إلى المغنى،
يفرج بالتغريد لملل في فؤاده،
فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى،
كذلك أرواح المحبّين يا فتى،
تهزها الأشواق للعالم الأسمى...

مراسيم زينة العروس "نداء الروح"

كانت الحافلة تتوقف عند بيت زياد، بينما كنت أستمتع في نشوة بمراسيم زينة أعياد زفة ينشدها أهل العريس، فرحًا بقدوم شيخ العزاب، المتحرق شوقا لزيارة عروسه التركية.. فطالما انتظر لقاءها، وحلم بزقاق حيّها، والمساجد المطلّة على ساحات بيتها، ورائحة القهوة المنبعثة من مدخنة المقاهي المجاورة لشرفتها!.

هذا العريس الذي عزف عن اللقاء بعروسه وهو في سن الثلاثين، ورفض إغراءات أستاذه الذي أحبّه كثيرا، وهو يعرض عليه الزواج بأجمل الجميلات، في مسجد" كَستانة بزاري".. هذا الشاب الذي حلم والداه برضاه عليها وهو في سن الأربعة والأربعين.. أعلن رسميا الزواج بحبيبته.. "نداء الروح" من بلاد الأناضول التي عشقها وافتتن بحبّها كل من تنفس عطر رائحة ترابها.. ومن فرط عشقه لها حكم عليه بالإدانة والسجن، بتهمة حبها... أولياء أمرها في تلك الفترة خيّروه بين الموت والتعذيب في قباب السجون، أو الهجرة حفاظا على سلامتها.. فاختار الغربة حماية لعرضها، وصونًا لأمان أهلها وعشيرتها... هاجر العريس ليلة زفته بعروسه التي أحبها، وافتداها بقلبه، بروحه، بوجدانه.. متغربا في أرض بلا زوجة، ولا ولد، ولا أهل، ولا رصيد أموال... عاش هائما في عشقها.. وبادلته الوفاء بالانتظار.. بلغ العريس الخامس والخمسين،

وهي لا تسأم من الانتظار.. صبرت، وفوضت أمرها لله.. عسى الزمن يغير مجرى عذابات القهر والبعاد...

كبر أبناء الجيران

قصص عشق العريس فتح الله، كانت تحكى لهم وهم أطفال تقلد أبناء الحي والقرية والمدينة مناصب كبيرة في بلد العرسان... أحبّوا العريس في غربته، وحنوا للتواصل المباشر معه، بعيدا عن الشاشات وحكي الآباء.. أرادوا إكرامه بهدايا تحمل نفقات جهاز وزينة عروسه "نداء الروح".. جابوا البلدان بحثا عن أرقى أثواب حرير لجهاز عرسها.. سألوها عن ألوان الفساتين التي ترغب ارتدائها ليلة عرسها.. أجابتهم "اسألوا العريس، هو من خوّلت له حق الاختيار.. هو الحبيب الذي سيرى حلة فساتيني بعد الوصال"..

حار الأبناء.. فحجوا إلى بيت العريس في غربته، وقطعوا البحار والجبال والوديان.. أوصلوا له رسالة تضمّ لائحة جهاز عروسه "نداء الروح" فأجاب:

"كم عشت أسأل،
متى ألقاها، ومتى يحين الوصال؟!
أحنّ إلى دفئ جدران بيتها،
لا شيء يبدو في السماء أمامي،
غير ظلم أولياء أمرها لي...
عشت أصرخ بينهم، وأنادي نداء روحي،

أبني قصورا من تلال محبة،
أهفو لأرض،
لا تستبيح كرامتي، ولا تساوم فرحتي،
أشتاق لأطفال تركتُهم يتراقصون،
يمرحون في فناء بيتي،
كقطر الندى مع الصباح النادي،
أهفو لرؤيتهم وهم يمتطون جياد الخدمة،
وينيرون أضواء فرحة الأعياد...
اشتقت يومًا أن أعود إلى مقهى حيّي،
الذي غاب عني وغبت عنه، زمن البعاد..
تمضى بي الأحزان مع نسيم عطر فنجان قهوتي،
وتزورني دوما، بلا ميعادِ..
غاب أصدقائي وشيوخي عن عيوني بعدما،
ضاق الزمان بعزتي ونضالي..
أحببتها (نداء الروح)، حتى الثمالة بينما،
أراد الحساد قهر صباها الفتان..
لا تسألوني عن دموع "نداء الروح"،
لا تسألوني عن حزنها، في زمن استبعادي..
تتلاطم أمواج الحنين فوق رأسي،
والبحر لم يرحم براءة حبّي وحنيني..
وقفت لحبّي الرياح كما تقف للصخور العتاد،
رفعت أكفّ الضراعة لخالقي،

نمت على الدعاء في الأفق،
ودعاء أمّي ماء زهر يروي عطشي..
حلمت بثياب أمّي تغطّيني،
ليلة وداع أحباب بلا ميعاد..
استيقظت فجرا لأوصي أحبّتي،
برغبتي في لمس رداء ثوب أمّي الأبيض،
أعانقه بوجد، وأتنسم رضى قبلة القدمين،
وأشكو لها أحزاني..
أمي، حبيبة قلبي الصقيع، جمد أصابعي،
تزاحم البرد والحر على جسدي،
حتى كادت المنية تلاحقني..
أمي، الشوق يبكي، والحنين ينادي،
ما بين عمر، فررت منه هاربا،
وحكاية، لم يزهو بها أولادي من صلْبي...
تعلمين أنّني لم -ولن- أسعى يومًا وراء مالٍ ولا جاه،
فما عساي أجيب لحْظة، دعاني أبناء حيّي وعشيرتي؟
سكن الوجود ستة وستون عاما مع نبض القلوب،
تناثرت حولي مرايا الحبّ والميلادِ،
على امتداد المحيط، حتى بكى الوادي،
وتعالت أصوات أسراب طير عصافيري،
وبدت لي "نداء الروح" في كل نجم يضيئ حلمي..
عذرا حبيبتي "نداء الروح"،

فقد آثرتك مرة أخرى على نفسي"...

* * *

آه كم هو صعب التحرق شوقا للمحبوب؟! وكم هو قهر وعذاب بعد دعوة الوصال؟! كم هو عسير، على العريس أن ينسحب بلغة المسكوت المنكوي قهرا من بيت عروسه، بعدما غلقت الأبواب وقالت "هيت لك"؟! كم من الصلوات يحتاج المتنسّك ليستخير ربّه في أمر العودة لأحضانها بعدما كاد يهمّ بها وتهمّ به؟

يتألم الحبيب مرارة الفراق كل ثانية، ولحظة وساعة ويوم وشهر وسنة.. فلا يجد طريقا أقرب إلى التحرّق بصمت الناسكين.. تحن له بعد حين من الزمن، فتدعوه رفقة وليّ أمرها، تتوسله للعودة.. فيأبى إلا أن يزداد تمسكا بها، وحبا لأطلال ديارها.. يعتذر مرة أخرى عن شوق حضنها، ويوصي جيرانه هناك أن يحملوه -بعد عمر طويل- إلى حضن ترابها، ويمددوه تحت قدم أمّه التي اختارتها عروسة له، لينال من لطائف نعم بنانها...

* * *

كنت أحاول فهم معاني التضحية الحقيقة، وأنا أسرد مع نفسي حكاية عاشق ولهانٍ أحب عروسه "نداء الروح"، لدرجة حرمان نفسه من متعة اللقاء بها، خوفا عليها من الأيادي المتربصة...

إن المحبة الحقيقية تنسي الحبيب مشاعره الذاتية وأنانيته، لتنتظم مراتب الصبر في سلّم الارتقاء، نحو مدارج السالكين.. فتعود إلى أرض اللقاء بسلامة الروح من الذاتية، وتسلم بكل خشوع مشاعرها الرهيفة في طبق مزين بأزهار الياسمين، للمحبوبة (الأرض والوطن)..

خصال هذا العريس ذكّرتني بخصال العرسان المغاربة... جدي المجاهد طلحة الدريج الذي افتدى بماله وأولاده تحرير أرض سبتة من الغزاة بداية القرن السابع، وأبي أحمد بن المانوزي من قبيلة آوالا بتافراوت الذي ضحى بعروسه بنت المجاهد طلحة الدريج وجعلها تحمل السلاح معه ليلة عرسه فداءا لمحبوبته "نداء الروح" (أرض وطنه المغرب)..

* * *

لم أنتبه لشرودي الذهني إلا ساعة دق زياد نافذة الحافلة ليودّعني، ويكمل دور خدمة الخدمة في تداول الأسرة.. ينزل مع الأولاد لرعايتهم في البيت، وتستلم أم سداد قيادة المركبة النورانية نحو وجهة جديدة.

تغريدة طائر الفجر في حقول الكلمات

في الطريق السيار كنت أقاوم تمايل رأسي من فرط التعب، وأحاول تجديد نشاطي بالحوار، والسؤال:

- هل نحن متّجهون في طريقنا لنزل باران؟

أم سداد:

- لا أستاذتي، نحن على موعد مع بيت طالبات ينتظرن مجيئنا للعشاء، وسيسعدن كثيرا بزيارتك لهن..

أتابع:

- أهو قريب من باران؟

أم سداد:

- ليس بعيدا منها.

يا سلام أردد مع نفسي، هؤلاء الناس لا يتعبون، ولا يكلون، ولا يتهاونون.. من أين لهم بكلّ هذه الطاقة الروحية؟ من أين يستمدون صلابة قدراتهم الذاتية؟!

كنت أسأل أم سداد، عن سر هذا التحمل في العطاء، أهو دور الإيمان في تربية أبناء الخدمة على الإحسان، أم هو الإخلاص؟ ذلك الخيط الرفيع المتسع الآفاق، الممتد النور.. يسري في دم وتيرة إرادة خلايا النحل الملكية، وينبض في عروق حياتهم، لتنبع إرادات شبابية عظيمة،

تتسم بعمق الأستاذ محمد فتح الله كولن، ورحاب السَّرهِنْدي، وحماس وعشق مولانا جلال الدين الرومي، وصلابة رسوخ إيمان بديع الزمان النورسي.. ونأتي نحن أبناء طارق بن زياد، ويوسف بن تاشفين من رباط الفتح، شهداء على نفحات روح أنسام الجودي في إنسان زمن القرن الواحد والعشرين...

وصلنا إلى مقربة موقف بيت الطالبات.. بالباب وجدنا أمامنا جمعًا من السيدات الأنيقات بقدهن الممشوق، ولباسهن الأنيق، يقفن للترحيب، وبصوت جماعي يرددن تحية السلام:

- هُوشْ كَالْدِينِيز مريم أَبْلاَ...

دخلت البهو، فاستغربت رقي آثاث هذا البيت.. زرابي فخمة، صالونات فاخرة ممتدة بألوان زاهية، لوحات فنية راقية، مطعم مجهز بأرقى التجهيزات، ذكرني بمطعم جامعة لاوفان لانوف البلجيكية، قاعة مسرح ضخمة، تضم ١٠٠٠ مقعد للطلاّب، الغرف ممتدة على طول ممر واسع، يزينه سجاد أحمر بزخرفة عثمانية، تخصص في مقدمته خمس غرف مجهزة بصالونات وأسرة، خاصة باستضافة الزوار من أهل الطالبات، مفارش أسرة وستائر غرف البنات وردية اللون.. أمرّ عليهن، أحيّيهن، وأستغرب تهافتهن على تقبيل يدي، وأنا أخطفها في خفة واستحياء، وبحرج شديد أضع يدي فوق صدري، وأردد:

- أستغفر الله، أستغفر الله.. الله يرضى عليكن ويحميكن...

منكر في عُرف جيلنا.. عرف في ثقافة غيرنا!

استوقفني تقبيل الطالبات لأيدي الأستاذة.. الأمر الذي شاهدته بين طلاّبنا الإندونيسيين والماليزيين والأتراك بالمغرب، وعاينت عرفه في بلدان آسيا وماليزيا وتركيا لمّا زرتها، وجدت أن حبّ أهل إندونيسيا للمغاربة، كحبّ الأتراك الذي حكا لي عنه جدّي ذات يوم.. فحبهم للعلماء يدفعم الى التسابق تباعا لنيل شرف وبركة تقبيل أيديهم.

ظننت أن الأمر خاصّ بكبار السنّ، لكن السنة الماضية كنت في زيارة لتوقيع شراكة علمية بين جامعتي وجامعة الشافعية بـ"جاكارتا"، فأبت رئيسة الجامعة توتي علوية شريفة، إلا أن تنال هذه الشراكة، شرف بركة التوقيع بإحدى المساجد الضخمة التي بنتها حديثا على نفقتها، وآوت في البيوت المحيطة به مئات من أطفال يتامى كارثة التسونامي الإندونيسية.

كان موعد التوقيع يوم ١٩ يوليوز ٢٠١١، تحرّكت من موقع إقامتي ببيت السفير الإندونيسي بالمغرب توساري ويجايا، وحرمه التي لاقت ربها بداية السنة الماضية بأرض المغرب، المرحومة مخصوصة ويجاياتي.. المسافة غير بعيدة عن بيت السفير، لكن هناك في جاكارتا عاصمة العشرين مليون، تقتضي منا الحبو بالسيارة لأكثر من ساعتين.

دخلت المسجد، ففوجئت بالمئات من النساء، يجلسن متربعات، فوق زرابي المسجد الحمراء، لباسهن أخضر موحد، حجابهن أبيض

مزركش بحبات حرير وردية، جو الاحتفال بهيج، لدرجة توقعت أنه عرس سيقام في فضاء المسجد الجديد.. الحلويات الإندونيسة المحشوة بالرز الملون، تطوف بها بنات ممشوقات القدّ، كأنهن فراشات يترقصن فوق أزهار الربيع.. أخذتُ حصتي من الحلوى والعصير والفواكه الشرق آسيوية المميزة في طبق صغير، تربّعت على سجاد أصفر وضع خصوصا للضيوف، أنتظر بدء مراسيم هذا الاحتفال الذي لم أجد عنوانا له.. فتوقيع الشراكة العلمية بين جامعتين، يقتضي جمعًا من عشرة أنفار أو يزيد، لكن هؤلاء النسوة مئات ومئات.

كان السفيرالإندونيسي بسوريا يجلس بجانبي، فبدأ يحدثني بالعربية:

- مرحبا بك يا مريم.

فأجبته بما عرفت من لغته:

- "تريماكاسي بو".. ومعناها "شكرا سيدي".

بعد هنيهة أومأ لي بإشارة الصعود للمنصة لإلقاء كلمة للضيوف. صعدت المنبر والجموع تصفق. أنا من فوق منبر المنصة مازلت أرد التحية بابتسامتي، وأهندس رسم خطوط أفكاري. بدأت بالتحية، وانطلقت في الحديث عن جدّي ابن بطّوطة الطنجاوي، من جهة عروبة والدتي التطوانية، وعن أجدادي الإمام الصنهاجي، والإمام الجزولي من جهة والدي الأمازيغي.. فوجدت أن الناس تعشقهم وتعيش معهم يوميًا في تلك البلاد..

يذكرون ابن بطّوطة المغربي الذي جاءهم بالإسلام لسوماطرا.. ويحفظون قصيدة الإمام الجزولي عن ظهر قلب.. ويثنون خيرا على الإمام الصنهاجي الذي علّمهم بآجروميته حروف تلاوة كتاب الله...

أنهيت محاضرتي على هتاف التصفيق والتكبير.. أردت النزول من المنصة فوجدت نفسي أمام صفوف طويلة عريضة تتشابك حدودها وزاوية المسجد.. النساء يقفن تباعا للتبرك بالسلام على صاحبة المحاضرة. توقعته سلاما في الوجه، فإذا بي أفاجأ بأن أغلبهن ترغبن في تقبيل يدي!

يا الله، أنا في موقف لا أحسد عليه.. العرق يتصبب من جبيني، والصفوف ممتلئة.. أنا لست بالشيخة العالمة التي تستحق هذا التبجيل.. أنا فقط "أستاذة مريم" طالبة علم من أهل المغرب...

اعتذرت لهن، وأصررتُ على وضع يدي فوق صدري. قليل من تفهمن شدة حرجي، وكثير كن يجذبن كفة راحة يدي بقوة، وهن يسألنني دعاء التبرك بشرف حب أحفاد أبطال التوحيد الذين جاءوهم من أرض المغرب بالخير العميم.

عدت من إندونيسا إلى المغرب.. بعد مرور شهرين أو أزيد، دعيت لإلقاء محاضرة للطلبة الإندونيسيين في المغرب.. قاعة الاستقبال مزينة بأعلام أندونيسا والمغرب. جلستُ مع ضيوف المؤتمر، فطاف بنا جمع من الطلاب، وكعادتهم في الاصطفاف نحو وجهة المعلم، بدأت مراسيم التحية كما شهدتها في إندونيسا.. تحرجت ومن معي من الأساتذة، وبين شد وجذب حاولنا تفادي الحرج.

في اليوم الموالي، وضع طالب إندونيسي صورته على حائطه في الفيس بوك، وهو يحاول التسليم عليّ بتقبيل يدي... فوجدت تعليقًا من أحد طلابي المغاربة يقول:

- ما هذا؟!

وهذا من حقه.. فجيلنا لم يتعوّد تقبيل الأيادي، لا يد الأستاذ، ولا يد

الوالدين، ولا كبار السن في العائلة، ولا الشيخ في الحي، ولا الأم التي تقف طول اليوم، في خدمته، ألخ...

فرددت عليه قائلة:

- هذا يا بني، منكر في عُرفك، عُرفٌ في ثقافة غيرك، من أهل إندونيسا وماليزيا وتركيا.. مرتبة الأستاذ والوالدين عندهم واحدة، الطالب ينحني لتقبيل أيدي أستاذه في حياته، ويترحم عليه كما علّمه صغيرا في مماته.. كذلك الابن يقبّل يد والديه كما تعبوا عليه صغيرا، ويرحمهما في كبرهما، فيخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة كما ربّياه صغيرا.. يا بني العزيز، يا من علقتَ باستنكارك هذا العرف!..

سألت يوما الشيخ ميمون الزبير، كبير هيئة العلماء بإندونيسيا، وكنت قد التقيته في مؤتمر مسلمات نهضة العلماء بلامبونج، عن سر حسن سلوك وأخلاق الإندونيسيين، فأجابني:

- يامريم المغرب، ربّ المشرقين والمغربين، أنزل لنا سورة القلم، وأمرنا بالقراءة والتعلم، فكيف لنا أن نتعلم بدون معلّم؟! يا مريم، لولا المعلم، لما استطعنا رفع القلم، لما أحسنّا استعماله على الورق.. لولا المعلم، لما تعلمنا أصل الحروف ومعانيها التي أبحرتنا لعوالم المعرفة.. لولا المعلم لما خرجنا من كهوف الجهل إلى سموّ نور المعرفة... ثقافتنا الإندونسية في مبدإ القيم مبنية على محبّة الله، الوالدين، المعلم، الوطن...

تذكرتُ ساعتها، ثقافتنا المغربية في التنشئة الأسرية التي كانت ذات يوم تحتفي بالمعلم، أمّا اليوم فقد أصبح التلميذ أستاذا والأستاذ تلميذا...

بالله عليكم أبناء قومي، لا تقبّلوا أيدي أساتذتكم رجاء، لا تفعلوا.. ولكن احترموهم، أحبوهم، أكرموهم، صلوا رحمهم... فوالله لن تحركوا

مخزون طاقاتهم المعرفي والروحي إلا بتحريك أسرار حنان البنوة، ودفء المحبة في قلوبهم...

اللهم ارحم من علّمنا، حتى لو كان ذات يوم قاسيا معنا.. ارحمه رحمة من عندك تهدي بها قلبه في الدنيا، وتنوّر بها قبره في الآخرة...

الأم... مدرسة في التربية

ذات يوم كنت رفقة أمي، حيث اصطحبتها لزيارة بيت خالي. في طريق عودتنا التقينا بمعلّمتي، فسلّمتْ عليها بنفس طريقة سلام أمي.. كانت أمي تبتسم وهي تسأل معلّمتي عن أحوالها، وتنظر في اتجاهي بعيون توعد، أردتُ أن أمسك يدها، فجرّتها بطريقة خفيفة نحو حقيبتها، ساعتها علمتُ أن العقاب سيأتيني بعد حين.

أمي لم تضربني أبدا، لكن نظرة عيونها وحكمة تغيير لهجة خطابها كانت أشدّ وقعا على نفسي من الضرب.. تعاقبني أمي بالتأنيب تارة، بالتوجيه تارة أخرى، وبهجر الكلام في أقصى المراتب.

في ذلك اليوم، لم يخب حدسي، فقد حصلت على عقاب أقصى المراتب، هجران الكلام لمدة أسبوع كامل.. أسبوع من الترصد والترقب والاعتذار، وتقبيل الرأس والأيدي بلا جدوى.. وفي يوم جمعة فكّ الله ضيقتي وفتح علي بقصيدة المنفرجة...

أخيرا نطق لسان أمي، حضنتني، وقالت:

– صغيرتي مريم، لن يرضى عليك قلبي أبدا ما حييت، مادام في قلبك ذرة من الكبر. أجيبيني بالله عليك، كيف تترفعين على معلّمتك، وتعطيها يدك ندّا بند، بلا تواضع ولا حياء؟!.

أخفض رأسي قليلا، وأنا أتمتم:

– لكن اسمحي لي أمي، أغلب التلاميذ لا يقبّلون يدها، لم عليّ فعل ذلك؟!.

أمي الحاجة ربيعة:

– التواضع صغيرتي، هو احترام الناس بما يليق بإنسانيتهم ومعاملتهم بمقامهم. بالتواضع نتربّى، وبالتواضع نتعلم.. أنت يا مريم ابنة بيت علم وجهاد ومجاهدة، وقد علّمتك سابقا أن معاني المجاهدة تتلخص في مجاهدة النفس من الغرور والترفع عن أصحاب الفضل عليك.. نسجد لخالقنا حمدا وشكرا على نعمه، ونقبّل أيادي أجدادنا احتراما لقدرهم.. نقبل أيادي آبائنا وأمهاتنا إكراما لفضلهم علينا.. ونقبّل أيادي أساتذتنا وشيوخنا الذين علّمونا، اعتبارا لجميل شموع ضوء المعرفة التي أناروا بها طرق جهلنا.

تتابع أمي:

– هذه المعلمة التي ترفّعتِ عن احترامها بما يليق بمقامها بنيّتي، هي أمك الثانية التي سهرت على تعليمك لساعات وأيام، بل لسنوات. فكيف تخجلين من تقبيل يدها؟! اليوم تتنكرين لفضلها، وغدا إن تركتكِ بلا تربية تتنكرين لفضلي، فترفّعين عن تقبيل يدي!

أبكي وأنا أردد:

– معذرة أمي فقد أخطأت. أعدك بحبّ العلماء قدر محبتي للعلم، وأعدك أن أحترم أساتذتي طول حياتي، عسى أن يفتح الله عليّ فتوح العارفين بالعلم والمعرفة.

* * *

الطالبات التركيات يحطن بي، وأنا أتذكر كلام أمي، وأربطه بموقف

طالب درسته بالجامعة.. وذات يوم التقينا بالصدفة، فقال:

- أنت مريم؟

بكل لطف أجبته:

- نعم بنيّ، أنا الأستاذة مريم، وقد درّستك مادة الحوار لسنتين متتابعتين، فهل تظن أنك استفدتَ من دروسي؟

قال:

- طبعًا، استفدتُ كثيرا.

أجبته:

- أحقًّا استفدتَ، وأنت تناديني كصديقة، أو كابنة الجيران؟

قال:

- عفوًا أستاذتي عفوا، فحبك من حب أمي، ولكن هذا نتاج سلوك تعودناه في المجتمع.. عفوا أستاذتي العزيزة، فأنا لم أتعلّم دروس احترام الأستاذة.

كنت أبتسم وأنا أودّعه، وأردد مع نفسي في صمت:

- لا عليك بنيّ، فالخطأ ليس خطأك، وإنما خطأ بعض الأمهات اللواتي يحرصن على إهانة الأستاذ، يرمونهم باللعن مئة مرة لو بلغَتْهم شكاية عتاب من أبنائهم!.

مدرسة الفتح التركية، ذكّرتني بمدرسة عبد السلام المغربية

عدتُ لذكرياتي، والوعد الذي قطعته مع أمّي بعدم التكبر، وحب أهل العلم والفقراء.. فوقفت عند محطة تخرجي، حيث كان موعدي مع حفل بالجامعة.. قبله بيومين استأذنتُ أمّي في دعوة ضيوف لتناول الغداء، احتفاءا بتخرجي، وحصولي على درجة الماجستير في العقائد والأديان المقارنة.

وافقت أمي، وبدأت مراسيم تجهيز وليمة الضيافة.. أعدت أمي أطباقا وألوانا من المشاوي والسلطات والبسطيلاّ والطاجين المغربي باللوز والبرقوق.. سمك محشي بالشعرية الصينية والمشروم والجمبري.. فواكه من كل الأصناف.. حلويات كعب الغزال.. والمحنشا المحشية باللوز والعسل، الطابع المعسل التطواني.. كل شيء أصبح جاهزا لاستقبال الضيوف..

لبس والدي جلبابه المغربي الأنيق، وطربوشه الأحمر، وبلغته الصفراء مزهريات الصالون زينت بباقة من ورود تطوانية. حان موعد الغداء.. وصلت البيت صحبة ضيوفي، وجدت الكل ينتظر على باب مدخل الصالون:

- مرحبًا مرحبًا، تفضلوا... أهلاً وسهلاً...

فإذا بالضيف رجل واحد.. الكلّ يعرفه، وبصوت واحد:

- عمي عبد السلام!.

أمي:

- مرحبا مرحبا بك سيد عبد السلام.

دخل عمي عبد السلام صالة الضيوف، رافقه أبي وأخي، بينما دعتني أمّي للحاق بها في المطبخ. لم تكن عيونها مترصدة كما أعرفها في شراسة غضبتها، ولكن بهدوء يشوبه القليل من التوتر، أخرجت صينية البسطيلاّ من الفرن، وهي تقول لي:

- مريم ابنتي، ليس عيبا أن تستضيفي عمك عبد السلام، فهذا بيت الزاوية والإكرام. لكن لِم لم تُوجّهي الدعوة لضيوف آخرين؟ فالأكل ما شاء الله كثير!.

قلت:

- معذرة أمي، لو سمحت لي هكذا أحببتُ، أن أجمل فرحة عيد نجاحي. اعذريني أمي، فقد نذرت أن يكون عمي عبد السلام ضيف شرف حفلة تخرجي. ربما كانت مفأجاة لك ولأبي، لكن دعوني أخبركم عن سر أحوالي مع عمي عبد السلام.. عمي عبد السلام الذي أكرمني بالدعاء طوال سنوات طفولتي، إلى أن كبرت وصرت اليوم أحمل شهادة الماجستير.. عمي عبد السلام الذي جاد لسانه بالتضرع والدعاء لي بالنجاح كلما رآني.. عمي عبد السلام -يا أمي- لم يذق طعم البسطيلاّ (الأكلة المغربية الشهيرة) وهي كاملة، لم يملأ عينيه بجمال حجمها الحقيقي، لم ينعم برؤية صحن مملوء باللحم والبرقوق المجفف، واللوز المقلي، لم يقدم على شرفه صحن بسطيلة كاملة، غير مهروسة ولا مقطوعة، لم يتذوق لذة سمك الباجو الرفيع المحشي بشعرية صينية ومشروم وسمك جمبري، لم يسعد في حياته كلها بتقديمه للجلوس فوق سفرة مزينة بألوان

المفارش الرباطية المطرزة، لم توضع فوق حجره مناديل مطرزة بطرز فاسي أنيق، لم يأكل بالشوكة والملعقة الذهبية، لم يشرف بكرم ضيافة فاخرة تكون باسمه.. أما الضيوف الذين ترغبين حضورهم، فقد سئموا من الدعوات بكروط رسمية... أما عمّي عبد السلام، فلم يحْظ -ولو لمرة واحدة- بحسن كرم الضيافة، ننعم عليه بصحن من بقايا بسطيلة، ولحم أعد لأصحاب الدعوات الرسمية.. عفوا أمي، عفوا أبي، معذرة إن كنتُ استدعيتُه اليوم ليكون سيد هذه الضيافة...

كان الكلّ متأثرا بكلامي الذي نطقتُ به من وراء حجاب.. بينما كان عمّي عبد السلام يتربع في بهجة عارمة، في زاوية الصالون المغربي المفروش بالتفريشة التطوانية.. يجلس بسرواله العربي القصير، المرقّع بألوان داكنة.. ويتربع في بهجة عيد، تشده ألوان الشوك والملاعق الذهبية.. يسرح منديله البنفسجي استعدادًا لبدء مراسيم احتفال أعدت على شرفه، ومع ذلك شفتاه مشغولة بالاستغفار كما عهدته...

أكيد كلهم يعرفون مَن هو ضيف الشرف، لكنكم لا تعرفونه أعزّائي... دعوني أحكي لكم حكاية عمّي عبد السلام ألف رحمة ونور عليه. كان المرحوم عمّي عبد السلام رجلا فقيرا، يسعى لقوت يومه، يجلس في زاوية أمام مدرستي الابتدائية، المجاورة لثانويتي.. وضع كامل أسهم استثماراته في قفة حجمها لا يوازي حجم دلو صغير، رأسمالها كيلو من الحمص، ونصف كيلو من الفول السوداني.. يوزع حبات سلته الصغيرة بالتقسيط، حسب طلبية الأطفال، من درهم لثلاث دراهم. صيفه كخريفه، وشتاؤه كربيعه، تشهد عدد حبات الحمص على عدد أذكار تسبيحاته. لسانه لا يفتر عن ذكر الله بالاستغفار..

ترى لملمة رشفة لسانه بأنين اسم الجلالة، "الله، الله".. حتى في لحظة تزاحم صفوف زبائنه من أطفال المدرسة، يزن الحمص بميزان كأسه الصغير، ويلفه في حشوته الورقية، ولكن أبدًا لا يفتر عن الاستمتاع بنشوة عطر التسابيح... منذ صغري وأنا أمرّ عليه في طريقي للمدرسة، أقف للشراء منه، أحاول إشراكه مرات في وجبتي التي تعدها لي أمي، فيقول:

- ابنتي، لا تحرجيني بكرمك، فأنا عاهدت نفسي على صيام الاثنين والخميس إلى أن ألقى ربي، وأرجو أن يتقبل مني...

تطوان، مدينة معروفة برياح الشركي الشديدة، خاصة في فصل الشتاء.. الزاوية التي يجلس فيها معرضة لتيارات شركية قوية، ومع ذلك لا يغيرها.. ترى الرياح تهب في وجهه، وهو مرابط في مكانه، لا يتحرك، لا يتململ، وكأن المكان أصبح دكانا يحمل عقود ملكيته في جيبه.

مرت سنوات وسنوات، كبرتُ وانتقلت إلى الإعدادية، ثم الثانوية، ثم الجامعة.. وعمي عبد السلام كما هو، لا يتغير في سلوكه، لا يتبدل من موقعه، لسانه لا يفترعن الذكر، قلبه مشبع بحبّ الرحمن، قناعته تملأ خزائن أرصدة ربانية، لا تضاهيها أرصدة الناهبين السارقين، لحقه وحق المساكين من الفقراء أمثاله...

أحببت هذا الرجل العجوز حب طفلة لجدّها. كنت أسعى للشراء منه، والتنعم بفيض روحه النقية، وسماحة وجهه البشوش.. دعاؤه كان بلسما لهموم أحلام طفولتي الصغيرة، وكما أن مكانه لا يتغير، فكذلك هو دعاؤه لا يتغير.. كلما طلبت منه الدعاء، يرفع يديه المشبعتين بأسرار نعيم الحمد والشكر لله ويقول:

- بنيتي مريم.. جعل الله القرآن مؤنسًا لك في ظلم الليالي، وحابسا

لأقدامك عن نقلها إلى المعاصي، ومخرسا للسانك عن الخوض في الباطل، وزاجرا لجوارحك عن اجتياز السيّئات.. شرح اللهُ به صدرك، ويسّر به أمرك، ووهب لك به الصبر الجميل عند حلول الرزايا..

ثم يختم دعاءه بالصلاة على النبي.. وبلهجة دارجة تطوانية يقول:

- الله ينجيك من الأعداء د الوقت...

رحمك الله يا عمي عبد السلام.. كم كانت بصمة محبّتك وقناعتك ودعائك لطلاب العلم نورًا نهتدي به في زمنٍ تحوّلت فيه القناعات، وتغيّرت فيه أقنعة الوجوه.. تغيرت ألوان العيون، تبدلت أحوال القلوب، فصرنا نسمع بمن يحفظ القرآن، ولا يحافظ عليه!..

أَبْلاَهات الخدمة أمهات بأسماء مختلفة

كنت أترحم على رجل القناعة، معلمي في مدرسة الحياة.. المدرسة التي تخرج منها أبطال وفرسان التوحيد، مدرسة عبد السلام المغربية...

بينما أعادني صوت بنات مدرسة الفتح التركية وهنّ يركضن بخفة نحو قاعة اللقاء، كأنهن فراشات يترقصن فوق أزهار بساتين الربيع.. جنسياتهن مختلفة: إفريقية، آسيوية، أوروبية.. تتناغم موسيقى ألسنة أرواحهن مع أبجدية اللغة العربية، لغة القرآن.

انتابني ذهول من حسن تلاوة وتجويد فتاة بلْقانية، غاية في الحسن والجمال. سبحان من أبدع مفاتن سحر جمالها، وزين بالإيمان حسن صوتها.. كانت نبرات مخارج حروفها العربية تصل مباشرة لتلامس شغاف قلوبنا.

بعد تلاوتها، تطوعت فتاة كازاخستانية بعيونها المميزة، لتنشد لي أنشودة المنشد يوسف سامي: "يا الله، يا الله، يا رب العالمين" التي اختارتها عنوانا للترحاب بنا.. كنت أشاركهن جميعا في سانفونية نوطات موسيقية "بلقانية، روسية، إفريقية، أوروبية".

وإذا بطالبة مغربية تقترب مني وتسألني باللهجة الدارجة المغربية:

- من أي مدينة أنت أستاذة مريم؟

أجبتها بعدما أنهيت أنشودة بهجة عيدهن:

- أنا من تطوان، وأسكن في الرباط.

قالت:

- مرحبا بك، أنا حسنى، من مكناس.. درست في مدارس الفاتح هناك، وجئتُ لأتابع دراستي في التسيير الإداري هنا في إسطنبول.

سألتها:

- ما الجديد الذي أخذته من تجربة مدارس الفتح بالمغرب؟

حسنى:

- المزاوجة بين التعليم والتربية محور وصلب العملية التعليمية.

تجيبني وهي تتمتم باللغة التركية مع إحدى الطالبات. استغربتُ.. "حسنى" وصلت إسطنبول من شهرين فقط، وبدأت تحاور وتتواصل بالتركية! فسبحان من أحيا اللسان المغربي، وفطره على سرعة إتقان نطق اللغات واللهجات، وإنا لذلك من الشاكرين...

التربية، وأنين صوت الفيس بوك

كنتُ أحاول فهم سر انسجام "حسنى" مع الأبلهات والطالبات وأنا أسألها:

- كيف تقضين يومك هنا؟ أأنت مرتاحة مع هذا التنوع داخل المدرسة؟

حسنى:

- بالطبع مرتاحة، لأن التعايش -أستاذتي- طبع المغاربة، ورثوه من أجدادهم الأوائل.. تعرفت هنا على طالبة فرنسية مسيحية، جاءت تدرس معنا.

أقول:

- غير مسلمة تدرس وتقيم مجّانا في مدارس الفتح؟!

حسنى:

- نعم أستاذتي، تتوقعين أن كل من يقطن في بيت الطالبات مسلمات؟!

أرد:

- نعم.

حسنى:

- أنا أيضا توقعتُ ذلك قبل مجيئي، ولكن عندما وصلت وجدت مسلمات وغير مسلمات.. فهناك مسيحيات من جورجيا وفرنسا والبلقان

وإندونيسيا، بل حتى من الهندوسيات من إندونيسيا وماليزيا.. وكلهن ينسجمن في نظام الصحبة بتلقي التربية الروحية والأدبية والعلمية، بغضّ النظر عن عقيدتهن وجنسياتهن أو أعراقهن.. هنا لا أحد يسأل عن الانتماء، فشعار الصحبة في نظام الخدمة الإنساني هو احترام إنسانية الإنسان وإسعادها بالمعرفة والتربية الروحية. هذا الإسعاد الروحي هو من يجعلهن يتسابقن على الدخول في الإسلام..

أسألها:

- وكيف يتم التوافق بينكن، وتنظيم برامج أوقاتكن؟

حسنى:

- هناك توزيع لأدوار الأَبْلاَهات، فكل خمسة طالبات تتابعهن أَبْلاَ متولية بالعلم أو بالدعم المادي، وهي تتصدر منزلة الأم الحقيقية، تراعي حاجياتنا، وتصطحبنا لشراء أغراضنا من السوق، وتوجهنا بالتربية ومعالجة مشاكلنا بصحبتها رفقة عائلتها أسبوعيا للمطاعم والنزهات...

تتابع حسنى:

- النظام هنا أستاذة يختلف عما كنت أتوقع. دعيني أخبرك، فأنت بمثابة أمي في الغربة.

أحضنها وأدعوها لمتابعة الحديث:

- تابعي "حسنى" فأنا حقًّا بمثابة أمك هنا.

حسنى تتأوه ثم تضيف:

- حملت معي جهاز الكمبيوتر المحمول، وتوقعت أنني سأستعمله في البحث العلمي، وسأسهر به إلى غاية متأخرة من الليل، أتسامر مع صديقاتي وعائلتي في المغرب.. ولكن الأَبْلاَ المشرفة أخبرتني بأن هذا

غير مسموح!. عند وصولي حددت لي الأَبْلاَ موعدا لنزول بهو قاعة الإنترنت، وذلك من الساعة السادسة إلى التاسعة مساء، من أجل البحث وتحضير الدروس.. لكن بعد التاسعة، يجب إخلاء القاعة، ويمنع علينا استعمال الوايفي، كما أن الغرف غير مزودة بنظام الوايفي.

أعقب:

- طيب لماذا هذا المنع؟ أكيد وراءه سبب وجيه..

حسنى:

- نعم حاولت الاستفسار عن السبب، وأنا أؤكد لها حقنا في الاستمتاع بالوقت الضائع قبل النوم بالتواصل الاجتماعي الفيسبوكي مع الأهل والأصدقاء، فأجابتني: "اسمعيني جيدا ابنتي حسنى، نحن نعتمد في منهجنا، على ركيزة التربية ثم التربية ثم التربية.. إن لم تستثمروا أوقاتكم في هذا السن بالمعرفة والاطلاع والقراءة ثم القراءة ثم القراءة، فمتى ستملئن خزانات معارفكن؟! كيف لفتاة شابة في مقتبل سن العمر مثلك حسنى، أن تترك طريق العلم والمعارف العقلية والروحية، وتفتح باب عقلها وروحها للتسامر في الفيس بوك مع رفيقاتها لساعات وساعات متأخرة من الليل؟! الوقت -يا بنيتي حسنى- كالسيف، إن لم تقطعيه قطَعك.. كذلك هو العقل، إن لم تسقيه في هذا السن بالمعارف والعلوم، فإنه سيصمت إلى الأبد.. وكذلك هي الروح، إن لم تنعشيها بموسيقى أنوار العبادات التي تسحرها دائما، وتلهمها العشق والوجد، فإن نبضها سيسكت إلى الأبد".

ذكرتني نصيحة الأَبْلاَ لـ"حسنى" بأبيات ابن مداد الناعبي في تحصيل العلم.. فارتأيت تهدئة روع حسنى وإسماعها فقرات من معانيها المرتقية

بالإنسان:

العلم كنز لمن أزرى به المال وحسن حال لمن ساءت به الحال
ما أشبه العالم المرضي سيرته بالنهر يجري وباقي الناس أوشال
فكن بعلمك عمالا تزد شرفا لا خير في العلم إن خانته أعمال
ولا تدل به في الناس مفتخرا مباهيا أن شؤم العلم إدلال
ولا تكن طمعا فيهم، وكن ورعا عنهم فإن هدايا الناس أثقال
وإن أتاك أخ للعلم مقتبسا فلا يكن بك إعراض وإملال
العلم أوله مرّ وآخره عذْب الشراب وصافي الماء سلسال
العلم لا يهتدي للنفع حامله حتى يساعده قول وأفعال
العلم لا يحتويه غير مصطبر قد ساعدته على التبكير اصال
مشمر لوذعي عاقل قطن له إلى شرفات العلم أرقال
لا يعدل العلم شيء عنده أبدا كل الذخائر لا أهل ولا مال

كنت أبتسم لحسنى وأنا أحضنها، مودعة إياها وكافة بنات النزل، وأنا أهمس في أذنها قائلة:

- اعلمي بنيتي حسنى أن نجاح المخرج التعليمي مرتبط بتقنيات توظيف المنهاج التربوي.. ومشكلتنا أننا ما زلنا نعاني من شبه قطيعة بين المنهاج التعليمي والبعد القيمي في التنشئة الأسرية والدينية والاجتماعية...

باران... مرقد المشاعر الملتهبة

تركتُ حسنى تُفكّر فيما قلت لها وانطلقتُ بجسد متعب وروح لا عياء تشتكي منه أبدا، ومن نزل بيت الطالبات إلى حديقة مدخل نزل باران الغيث، باران معاني المعنى.. كانت فاطمة وكأنها تشتمّ رائحة أنفاسي من قبل وصولي حي العمرانية، فتهب مسرعة نحو باب المدخل، وترتمي كالطفلة ببراءتها العفوية في أحضاني وهي تردد:

- مرحبا أستاذة مريم، مرحبا.. اشتقتُ لك...

أحضنها بشوق نابع فعلا من صدق مشاعر رقيقة.. هذه الفتاة الربانية الروح المرهفة الإحساس والمشاعر، طفلتي الصغيرة التي كانت تزفني كل مساء بزغاريد روحية وتوصلني إلى غرفتي بنغمات أنفاسها الزكية...

في المصعد:

- إذن يا فاطمة نور، نحو الطابق الخامس؟!

- تمام تمام، "إِيفِيتْ" أستاذة، نحو الطابق الخامس.

يا سلام، وأخيرا وصلنا إلى مختبر تنقية الروح من صدإ النفس الأمارة بالسوء.. وصلتُ إلى غرفتي، حيث سر توحد الروح، وتدحرج اللاتوازن في حفرة الضمير.

كانت الليالي تمر عبر ساعات من جلسات استشفائية لثنائية العقل والروح.. تصارع الأفكار المتعلقة بوعود الأمل الكاذب وتوجهها نحو

إرادة الفعل، لبناء عالم الأفكار الممتدة إلى أرض الواقع.. كنت أحاول النوم وأنا أترجم آمالي بأحلام تغني لنا أشعار الغزل المستقبلية...

* * *

في منامي، رأيت وجه الشيخة رقية التي جلستُ بجانبها ذات ليلة قدر في رحاب بيت الله الحرام.. تصلي بجانبي المغرب في مسجد أبي أيوب الأنصاري.. بعد التحية والدعاء، أمسكتْ الشيخة رقية بيدي، وهي تقول:

- سبحان الذي جمعنا منذ عشر سنوات في بيت الله الحرام، وأراد لنا الجمع اليوم بمسجد أبي أيوب الأنصاري!.

حضنتني بحضن أهل المحبّة، وهي تردد:

- لم ولن أنساك سيدتي مريم، كنتِ معلّمة لي ومصححة لمسار أحكامي بعد جهل وغرور أعمى بصيرتي وأنا السيدة المتعلمة... أمسكتُ بأناملها الناعمتين، وأنا أردد في منامي:

- أستغفر الله عزيزتي، فالله أمَرنا أن نتعلم بالقلم والقراءة، ما لم نعلم. وأنت لم تدرسي تاريخ المغاربة ولا تاريخ جهاد علمائه ونسائه، وإنما استأثرت الفرجة وسماع أحاديث القيل والقال من التائهين في دروب الهوى واللذات!.

كانت الشيخة رقية تحكي لي عن أحوالها وأخبار بناتها، بينما كنتُ أتذكر في منامي ليلة القدر التي قضيتها برفقتها في عمرة كانت هدية من والدي جزاه الله خيرا، بمناسبة حصولي على شهادة الدراسات العليا.. كنت أطير كالفراشة في اتجاه بيت الله الحرام، لحضور كل الصلوات.. فلا وقت لي أضيّعه في المحلاّت التجارية، وقد أوصيت جميع أهل بيتي بأن لايلزمونني بالهدايا، فأنا جئت متعبّدة لا متسوّقة ولا مفاصلة في

أسعار الأثواب!.

في ليلة القدر حدث أن استدعى والدي ضيوفا للعشاء في مطعم فندق أجياد الذي كنّا نقيم به.. استحييتُ من ضيوف والدي، وصبرت إلى أن أتممتُ حساء شوربتي، والله شاهد على أنني لم أتذوق طعمها أبدا.. فالمغرم لا يطيب خاطره بشوربة، والقلب يتفطر حرقةً وشوقا للقاء الحبيب..

هكذا كانت أحوالي تلك الليلة مع بيت الله الحرام.. استأذنتُ الضيوف بكل لطف، وانطلقت كالسهام.. خرجتُ من شارع أجياد، فإذا بي أرى الجموع من المصلين وقد افترشوا في الشارع الرئيسي المطلّ على مستشفى أجياد.. يا إلهي.. اصفرّ وجهي، وتصبب العرق من جبيني.. واحسرتاه من حضور ليلة قدر في رحاب الحرم!. أين أنا من الحرم؟! قد تكون هذه أول وآخر عمرة في حياتي. ربي، إلهي، وسيدي، ورجائي.. كم من الدعاء أجبت لي في رحاب بيتك الحرام، فلا تخيّب أملي في الصلاة قرب الملتزم بالمسجد الحرام!. ربي وخالقي، جبرت كسري، واستجبتَ دعائي يوم دخلت الكعبة، فعثرتني أخت من أهل المكان، لأنني كنت أرتدي جلبابا مغربيا، حالت بيني وبين فرحة اللقاء الأول بالكعبة الشريفة.. ما عساي أرد عليها، ولا مجال للجدال في هذا المقام.. سجدتُ لك خالقي ومولاي، وشكوت لك حرقتي، ودعوت بتلطيف قلوب أهل المقام علي... فما كان إلا أن رفعت جبهتي فوجدت حاجتي مقضية، ودعائي مستجاب... سخرت لي يا كريم لطف نساء من أقوام وأجناس لا أعرفها، كلما دخلت الحرم، ناديننني وفرشن لي سجادة للصلاة بجوارهن.. واليوم يا سيدي يوم الدعاء والابتهال، كيف أقضيه

في شارع أجياد؟!

كالبرق مرت سيارة سوداء فاخرة، وخرجت منها نسوة منقبات، فرميت حجابي الأسود نقابا على وجهي، وانسقت وراءهن كالغزال يسبق الريح، خوفا من بطش الأسد.. النساء اللواتي يفتحن الطريق نجديات، عليهن إمارة الوشم النجدي، وكأنهن حارسات لأميرات، يفتحن الطريق بمناكبهن الصغيرة، لكنها ثنائية الدفع.. وأخيرا بعد شد وجذب وصلت إلى قلب الحرم المكي.. يا الله، ما أكرم جودك وألطفك بي!. وجدت سجادا أحمر محجوزا بأعمدة صغيرة مذهبة.. فوقه أباريق مذهبة من الشاي العربي، وصحن كبير مزين بثمار العجوة والسكري.. دخلت النساء ودخلت معهن، جلست إلى جوار الشيخة رقية، فإذا بالحارسة النجدية تنتبه لي وتجرني من قفاي كنعجة صغيرة وهي تصرخ في وجهي:

- قومي، قومي، فيزي، قومي...

هكذا كان صوت الحارسات النجديات مرعب يهددني بالانصراف من فضاء زربية الشيخات في الحرم.. ما كدت أعدل اعوجاج عبايتي التي شدتها الحارسة الغليظة الشديدة، حتى نطق صوت سخّره الله لي بفضل دعائي الأول، إنه صوت الشيخة رقية، وهي تأمرها بتركي وشأني، بل تدعوها لمرافقتي وإحضاري للجلوس بجانبها.. سلمتُ عليها بكل أدب، وشكرتها. ناولتني كأسًا صغيرًا من الشاي العربي المعطّر بنكهة الهيل.. أخذت منها الكأس المزركش بصدف أحمر، وأنا أنظر إلى جموع من النساء يحمن ويطفن حولها، وفي أيديهن رسائل ملفوفة.. علمتُ أن السيدة من ذوات المقام الرفيع في البلد الحرام.. بدأت صلاة التراويح، بدأ معها انسياب روحي في شلالات منهمرة من الدموع.. ألوذ بحمى

لطف اللطيف، ومسامحته وعفوه، وأرجوه أن يقبلني عبدة ذليلة على بابه.. فأنا العبدة المقصّرة المقرّة بذنوبها.. بضاعتي متواضعة، وما لي إلا الوقوف على أعتاب باب رحمات لطفه وجوده الواسع.

توقف الإمام لاستراحة قصيرة، يمنحنا فيها فرصة شرب قطرة ماء، والتأهب لدعاء ختم ليلة القدر، فإذا بالشيخة رقية تسألني:

- أنت من لبنان؟

قلت:

- لا..

الشيخة فاطمة:

-إذن أنت إما من سوريا أو من الأردن..

قلت:

- لا سيدتي، أنا من المغرب...

الشيخة رقية:

- لا تقولي أنك مغربية، فليس في المغرب نساء شابات في عمرك، يخشعن كما رأيتك تخشعين في صلاتك ودعائك!.

فقلت:

- لماذا؟!

فأجابت بكل ثقة في النفس:

- هكذا سمعت، "المغربيات، أكثرهن عاهرات"!.

كبّر الإمام فقمت للصلاة، خشعت أكثر من هول ما سمعت، وظننت أنّ قيامتي قد قامت.. "إلهي وسيدي ومولاي.. أين أنت يا حفيدة المجاهدين على ثغور المغرب الأقصى مما تسمعينه في الحرم؟! أين أنت يا سليلة

الصحابي عبادة بن الصامت قاضي فلسطين مما تسمعينه من أذى في أرض أجدادك؟!".

أتممت صلاتي ودعائي بالتضرع باسم الله الأعظم، ثم صليتُ على الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام. فرجعت لجليستي الشيخة رقية.. وقلت لها:

- الآن وقد حصحص الحق، دعيني أجيبك على سؤالك، فأنتِ سألت وأفرطت في الجواب! دعيني أقول لك سيدتي.. الحمد لله أنك ابنة هذه الأرض الطاهرة، فبناتكم طاهرات عفيفات قانتات تقيات صالحات.. ولكن ألا يوجد في بيتك مكان لرمي النفايات؟

قالت:

- بلى..

قلت:

- ألا يوجد في الحرم المكي مكان تجمع فيه نفايات كل المعتمرين؟

قالت:

- بلى..

قلت:

- لماذا لا تجلسين بجوار النفايات إذن؟!

قالت:

- لا أفهم مرادك..

قلت:

- المولى ﷻ قال في كتابه الحكيم ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾(النُّور:٢٦).. فالأرض طيبة،

لكن أهل الخبث من أرضكم الطاهرة قد يجتمعون في زبالة النفايات مع أهل الخبث من أرضنا الطيبة.. ورائحة الخبث -كما تعلمين- كريهة، لا يستحملها المتطهرون.. فلا تصلنا، ولا نصل إليها. دعيني أقول لك سيدتي بأن مَن أخبرك عن الخبث فهو خبيث، يحلو له الجلوس والطواف حوله أينما حل وارتحل.. المغرب سيدتي من أعرق بلدان الدنيا علما وشرفا وعزة وسؤددا.. ناضلت نساؤه جنبا إلى جنب مع المجاهدين في طرد العدوان الصليبي ثم العدوان الاستعماري، وزعت نساؤه المؤونة والسلاح والمنشورات، حبسن ورملن ويتمت أولادهن، وأمي واحدة من تلك المناضلات.. أحرارا عاشوا في الماضي، وإلى اليوم ما زلن أحرارا. تعالي إلى أرض الشرفاء لتشاهدي بنفسك نضال النساء المغربيات الأحرار في البوادي والمصانع والحقول، وحمل السلع الثقيلة على ظهورهن في معابر الحدود.. نساء فاتنات الجمال يشتغلن في الحمامات، ينظفن أجساد السيدات من الأوساخ، مقابل دراهم معدودة، يدخلنها مساء لقمة عيش لأطفالهن!. اسأليني عن العالمات، وعن فاطمة الفهرية مؤسِّسة أول جامعة في التاريخ الإنساني.. اسأليني عن نساء طيارات وعن نساء وصلن بالبحث العلمي إلى القطب المتجمد.. اسأليني عن عالمات يلقين الدرس في حضرة الملك والعلماء.. اسأليني عن القاضيات.. فأنا باحثة، وأقضي أيامي كلها في المكتبات ودور البحث العلمي. أصدقيني القول إن قلت لك -شيخة رقية- بأنني لم أجد هناك أحدا من أبناء جنسك الذين حكوا لك هذا العجب!. استغفري ربك، فالقذف في حق نساء شعب بكامله، نقيصة تُحاسَب عليها الفاضلات من أمثالك. لا تحملي تهمة كبش الفداء مع من حملوه من السفهاء والسفيهات.. لا تكوني -سيدتي-

ممّن قال فيهم المولى عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾(الأَحْزَاب:٥٨). شعوبنا محترمة.. نسعى لبناء جسور الوحدة، في العلم والمعرفة والمنافسات الحضارية.. لا أن نخدم الإعلام الأصفر، المروج للتلسين، على مقدسات شعوبنا في المباريات الكروية، أو في ادعاء الطهر والنقاء، على حساب شعب، نرتاح نفسيا حينما نعلق عليه شماعة فسادنا وانحرافاتنا!.

نظرت إلي الشيخة رقية، وهي تحضنني وتقول:

- بارك الله فيك عزيزتي مريم، فعلا أحرجتني، وجعلتني أستحيي من نفسي... أنا أعجبت بك يا مريم، وأريد أن أدعوك لقضاء العيد معي، فما رأيك؟

قلت لها:

- سيدتي، وددت أن ألبّي طلبك "على رأسي من فوق"، إلا أن والدي الذي ينتظرني في باب مدخل الحرم، يمنعني من تلبية دعوة ضيافة نساء أهل هذا المقام.

احمر وجه الشيخة رقية، وباعتذار شديد كنت أودّعها وأنا أهمس في أذنها:

- أترين وقع الحكم المسبق على أهل جنسك، كيف يحرك بركان قيامتك؟!

قالت:

- والله صدقتِ يا مريم..

ودّعتها، وتمنّيت لقاءها مرة أخرى، ولم يقدّر لي اللقاء، حتى ليلة اليوم في مسجد أيوب الأنصاري بإسطنبول..

الساعة تشير إلى السادسة صباحا، كنت أسبح بحمد ربي على هذه النعم، وأنا أرقد في فراشي الدافئ الذي لحفتني به فاطمة نور، واختارت أن تنسق ألوان روحي الزهرية مع ألوان اللحاف الوردية البرتقالية، وكأنها تمتلك فراسة اقتفاء آثار أعماق نفسي التي تميل إلى الألوان الفاتحة، كما يميل عقلي نحو الأمل المنفتح بألوان الربيع الفتحية الزهرية... كنت أحمد الله تعالى على أمور كثيرة، ونعم حباني بها في هذه الرحلة..

أولها: نعمة التعرف إلى أعماق نساء الخدمة في تركيا.. فهن ياسمين عطر مراعاة النفوس، وأزهار الحب، وبنفسج منابع العنصر النقي.. تهمس محارب تعبدهن أحيانًا في أعماقي همسات أسرار معان روحانية، عميقة وخفية، ينشرح بها صدري.. قوة عزمهن وهمّة نفوسهن قطرات رحمة إلهية، تروي ظمإ بحثي عن حقيقة الأشياء وراء الأستار...

ثانيهما: نعمة التعرف على معنى زيادة المعنى، في زياد الأصل الخدماتي الإيماني وقائد شعار المحبّة والتواضع والجود والعطاء.. زياد، أم سداد، السيدات، أم الجمال، وأم العيش للآخر.. رقة وأصالة وحياء وهمة في العطاء والخدمة..

الفصل السابع:

واعربيتاه!..

جميلة فتيات تركيا، وصرخة "واعربيتاه"

تُصدِر مئذنةُ المسجد على الدوام آذانا بأصوات ونغمات مختلفة في فجر ليالي إسطنبول الشتوية. يكون الطقس باردًا بالخارج، لكن مع فجر ضياء المآذن تئنّ الروح بدفء أصواتٍ تتصاعد من شرفات المآذن ومنابر المساجد.. صداها المنعكس بنداء التوحيد في كل مكان: الله أكبر، الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. الله أكبر، الله أكبر.. لا إله إلا الله...

يتماوج بلطف في الهواء البارد، ليسري في أوصال من يكون قيام ليله وسجوده في ظل الشوق إلى ساعة الوصال.. في جو الصلاة الفوّاحة بعطر الحياة الروحية.. تلمع أضواء أعماق عوالم كافة السماوات وما وراءها من عوالم الضياء، وتتواصل إضاءات شموع من أنوار تسيل على قلوبنا... وبينما كنت أستنشق عطر هذه النفحات النورانية وأشكر الله على نعمه، وصل إلى سمعي أنين صوت خاشع يتلو آيات من الذكر الحكيم، وصلت نبراته الرقيقة بسرعة البرق.. فلامست مشاعري، وأوقفت بسرعة نظم أفكاري ورشفة لساني بالذكر فما شعرت إلا بشلال منهمر من الدموع ينزل على خدي.. يا سلام إنه صوت فتاة تركية... سبحان الله، فتيات لا يتقن اللغة العربية ولا يعرفن معاني ما يتلونه من آيات الذكر الحكيم، ومع ذلك يتلون بصوت يجهش بالبكاء.. يتْلون وهن يحملن

حرقة أستاذهم فتح الله في غيبوبته عند الآية الكريمة ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشُّعَرَاء:٣). فأين أنا من قسوة نفسي؟ أين أنا من خشوع هذه القارئة التي لا تعرف معاني الكلمات؟ أين أنت يا مريم، من درجات الترقي في مراتب الوصال، عند تلاوة الآيات التي تعرفين معانيها جيدا؟!

واحرقتاه على نفسي وعلى أبناء عمومتي من العرب.. العرب الذين تنكروا لعروبتهم.. العرب الذين استبدلوا لغتهم العربية (مفتاح حب الله ورسوله) بلغة أعجمية، تشربوا حبها في قلوبهم، وعشقوا ثقافتها نهجا لأبنائهم.. العرب أعراب يا جميلتي التركية، يا من أتحفتني هذا الفجر بتلاوتك الربانية.. العرب أشكال وألوان، منهم عرب العزة والشهامة والكرامة والأصل، ومنهم عرب التنكر والجحود.. منهم من يمسك بجذور أصوله العربية على جمر ملتهب، ومنهم من باعها في أسواق نخاسة المعاجم الأعجمية.

جميل يا جميلة الجميلات، أن يتقن العربي لغة أقوام، لتحقيق السنن الكونية القرآنية في التعارف والتعايش، ولكن من العار أن يتهاون بنسبه، ويفضل العيش بين أقرانه لقيطا بالتبني، من دون أصل ولا نسب..

ذكرتني -يا فتاة حلمي- بقصة عشتُها مرة في دروب أزقة مدينة الرباط، حين كنت أتجول في أعياد العاشوراء، وهي مواسم بيع هدايا الألعاب للأطفال.. كنت أمشي وراء سيدة تداعب يد طفلتها الصغيرة وهي تشاور لها على دمية تحمل في يدها رضاعة حليب زجاجية، وتقول لها "أمّي أمّي، أريد هذه الدمية"، تشير الصغيرة في تعنت للدمية، وتجرّها أمها وهي تضربها ضربا خفيفا على كتفها، حسبته من أجل إيقافها عن البكاء والمطالبة بشراء الدمية. لكن بعد هنيهة، تبوح الأم بسر حرقتها، وتفسر

لصغيرتها السبب الذي جعلها تضربها.. أتدرين ما هو يا جميلتي التركية؟ يا من تحملين حرقة همّ تعلم العربية!

اسأليني رجاءًا "لماذا؟"، فأنا هنا لأجيب عن سؤالك. اسأليني لترحميني من عذاب عروبتي المهانة.. اسأليني رجاءا اسأليني، لأجيبك بكل حرقة أن هذه الأم كانت تضرب ابنتها، وهي تصرخ في وجهها قائلة: "أنا لا أضربك من أجل شراء الدمية، كنت سأشتريها لك، لولا أنك نطقت بما علّمته لك جدتك أم والدك من ألفاظ، لا تليق بمقامنا الاجتماعي، لماذا تسميها دمية كالعوام، ولم تسمها poupée بوبي كما علمتك بالفرنسية"...

فالعقاب -يا سيدتي- هنا لم يكن عقابا من أجل المطالبة بحق تملك الدمية، وإنما كان عقابا تربويًّا من أجل الانسلاخ عن هوية اللغة العربية.. تضربها وهي تردد بحرقة من تخاف التحاق عدوى اللغة العربية أو حتى الدارجة المغربية بابنتها.. نسمّيها (poupée، poupée) وليس الدمية.. تنهدت بكل حرقة، وتدخلت بلطف يحمل مرارة المرارة لأقول لها: "دعي لها شيئا يا سيدتي من تراثها.. دعيها تفتكر مواسم ومراسيم أعياد أجدادها.. دعيها تسمّي الأشياء بمسمّياتها.. دعي لها على الأقل كلمة "دمية" لتحتفظ بها في موسوعة معجمها الفرنسي الكامل"..

دعيني أيتها الحسناء الفاتنة التركية، أحكي لك حرقتي على اللغة العربية.. فنحن المغاربة أمازيغ، نفخر بأمازيغيتنا، نتكلم بها مع أبناءنا، في بوادينا وحواضرنا ورفقة عوائلنا.. لكن أيضا نعشق لغة القرآن كما تعشقونها في تركيا، نصلي بها كما تصلون بها، نعلن بحروفها شهادة التوحيد كما تنطقونها في تركيا، نؤذّن بها في صوامعنا، ونرفع بها تكبيرة الإحرام للصلاة، عربا وأمازيغا..

هكذا عشنا في المغرب، وهكذا امتزجتْ دماؤنا وألسنتا بلهجات دارجية بربرية.. تاشلحيت في الجنوب والجنوب الغربي، وتمازيرت في جبال المغرب الأوسط، والزناتية في الشمال الشرقي، والحسانية في الصحراء، وجبلية في جبال الشمال.. بفضل الانصهار كم من قبائل عربية تمزغت، وكم قباءل أمازيغية تعرّبت... هكذا تعايشنا في المغرب بدون أي مشكل تحت راية الإسلام... إلى أن جاءنا من المدينة قوم سعوا إلى فصل اللغة العربية من قاموس المعجم المغربي كما فصلت العربية من المعجم التركي.

ماربيا السياحية.. ودرس الهوية

دعيني أيتها الأعجمية المتحرقة شوقا لتعلم العربية، دعيني يا ابنة حراء المعنى، المتعطشة لبناء جسور التواصل العربي التركي.. أحكي لك موقفا حصل لي في مدينة ماربيا الساحلية الإسبانية...

ماربيا بحر جميل من استثمارات العرب.. قصور ومنتجعات سياحية ومطاعم ممتدة.. ماربيا جنة الهاربين من حر الصحراء ولهيب آبار البترول.. ماربيا أرض الخمسة نجوم في الاستجمام، تستقطب أمما وأجناسا من حول العالم..

كنت عابرة منها لمدة يومين، وكان الصيف بجوه الحار، يغري الأطفال والكبار بالاستباق نحو محلات المثلجات... في زاوية ميناء بانوس محل كبير ومشهور بالتفنن في نكهات المثلجات، دخلتُ لأشتري منه ما يغريني من نكهات الفستق والفرولة. كنت أقف في صف الانتظار حين وجدت قبلي فتاة عربية بعبايتها الخليجية، تحاول إيصال رغبتها فيما وقع عليه اختيارها من نكهات باللغة الإنجليزية. بينما تجيبها العاملة باللغة الإسبانية وهي تردد بعصَبية "قُولي لي ما النكهة التي تريدين، وبسرعة".. أمامي صف طويل عريض من الزبائن.. الفتاة العربية تحاول مرة أخرى التواصل باللغة الإنجليزية، من دون جدوى.. وبطريقة فجة تدير العاملة الإسبانية وجهها نحو الزبون التالي الذي كنت أنا، وبنفس الطريقة تعمدت أن أشرح

لها ما أريد.. لكن هذه المرة باللغة العربية. فما كان منها إلا أن تلفظت بكلمات مهينة للعرب، ووصفتهم بالأغبياء.. تركت لها المجال لأن تكمل ما بجعبتها وتفرغ جم عنصريتها، ثم طلبتُ منها بلغة إسبانية أنيقة أن تنادي صاحب المحلّ.. اندهشتْ من معرفتي باللغة الإسبانية وتمتمت تريد الاعتذار.. فما كان إلا أن صممتُ على طلب مدير المحل.. تحركت زميلتها التي ربما كانت تبحث لها عن مأزق.. وبسرعة فائقة حضر المدير. حكيتُ له القصّة وأنا مستغربة كون هذا المحل السياحي لا يوظف ناطقات بلغات أخرى حتى يتواصلن مع السائح:

- سيدي، أموالكم تجنون أرباحها من السياح.. ومصدر رزقكم من هؤلاء الأقوام الذين عيّرتْهم مستخدمتك بالغباء، لأنهم لا يتكلمون لغتها.

اعتذر لي مدير المحل اعتذارًا شديدا وهو يحاورها:

- ألست حاصلة على ديبلوم اللغات وتتحدثينها جيدا كما اختبرتك؟!

في صمت لم يتجاوز الثانية أجابت العاملة الإسبانية عن سر تعاملها برأس مرفوع لم تخفضه أبدا رغم عتاب المدير لها، وبلغة جدا هادئة أجابت الجواب الذي أحرجني، قالت:

- نعم سيدي أنا أتقن الفرنسية والإنجليزية، لكن علّمني أبي أن من يتكلم لغة غير الإسبانية في بلده فهو خائن للتراث اللغوي، للهوية الثقافية، للمعجم اللاتيني الإسباني...

ساعتها تجمدت أصابع يدي، ليس بفعل انسياب ثلجه على كفي، وإنما من وقع ما سمعتُ. فقلت:

- كفاك سيدتي اعتذارًا عن فعلتك التي فعلتيها معي ومع بنات عمومتي من العرب.. فإن في الجواب معنى كافيا قد أتفق معه وقد لا

أتفق... لكن لسان حالك نطق بعلم من المعاني..

ساعتها فقط رجعت لسيدتي المغربية صاحبة الدمية، وقلت لها:

- إن أردت معرفة عزّ أمة، فاسألهم عن لغتهم. إن الحال بالحال يُعرفُ....

فمن ذلّت لغته ذل وراءها ... إن العزيز للغته لا يفقد

فما بالنا ننسى عربية ... نزل بها خير كلام مجودُ

أم أنه لهو لاهٍ فى ظل هيمنةٍ ... وعولمةٍ وغرب مسيّدُ

فإنجليزية تسعى فى الآفاق ... وكذا فرنسية والحق مقيّدُ

فلا والله لن تموت لغتنا حتى ... شهادة آخر جند مجنّدُ

بلى والله إن النصر حليفنا ... ذلك وعد من رب مقلّدُ

فالعربية محفوظة ما حفظ القرآن ... إن القرآن للحفظ مسدّدُ

فلا غرب ولا شرق قادر على ... محوها، إن الكفر لذلك يحقدُ

فياقوم هبّوا لنصرة لغتكم ... إن الذليل فى ذلك يرقدُ

لغة... ثلاثية الأبعاد

أيتها الفاتنة التركية... أنت لم تحْك لي تفاصيل حوارات أجدادك، ومناظراتهم مع من نسخوا حروف العربية واستبدلوها بحروف لاتينية.. لكن دعيني أحكي لك قصّتي مع من يريدون فصلها من أبناء عمومتي الأمازيغ في مغربي الحبيب.. دعيني أحكي لك أيتها العاشقة للغة القرآن.. يا من طلبت مني كتابة اسمك بحروف عربية، لتضعيها تميمة فوق صدرك.. فقد حركتْ تلاوتك الممزوجة بلكنة أعجمية مواجعي، وأيقضت وهج حرقتي وآلام أحزاني...

سألت ذات يوم ابن عمومتي الأمازيغي، عن سبب التنكر للسان العربي المبين. استحلفته أن يجيبني بوضوح عن سر استخدامه للفرنسية، وهجر العربية فوق المنابر العلمية. فمِن حقّي أن أعرف، إن كان كل الأمازيغ يكرهون العربية! فأنا أمازيغية، وأحب العربية!.

سكت قليلا يستجمع أفكاره، ثم أجابني:

- سيدتي، أنت ابنة القبائل الأمازيغية، أنت الأصل.. بينما اللغة العربية لغة المستعمر، اقتحمت ثقافتنا الأمازيغية بدعوى الفتوحات الإسلامية، فاستعمرتْنا بلغة عربية آتية من المشرق!

سبحان الله.. أجبته:

- أولم يكن طارق بن زياد ابن القبائل الأمازيغية؟! ألم يفتح هذا

البطل الأمازيغي الأندلس تحت راية الإسلام "الله أكبر، الله أكبر"!. ألم يدوي صوت جيوشه وجيوش القائد الريفي عبد الكريم الخطابي بحماس عربي "الله أكبر، الله أكبر؟".. بالله عليك أجبني.. إن كان هذان القائدان قد باعا قضيّتهما الأمازيغية؟ متعطشة أنا لفهم حرقة أبناء عمومتي الأمازيغ.. فأنا أمازيغية ومن حقي أن أعلم! أجبني بالله عليك سيدي، فأنا عاشقة للأمازيغية، والدارجة والعربية.. ماذا عن اللغة الفرنسية؟ اللغة التي قدمتها بولاء تام على العربية، والعامية (الدارجة) والأمازيغية.. تعشق الحديث بها في البيت والمقهى والعمل، وتفخر بمعجمها فوق المنابر رافضا نطق فقرة بحروف عربية؟! ماذا عن هذه اللغة التي ثملتَ في هواها، وصرتَ تفكّر بها، وتكتب أشعار الفناء في حبها قصائد لأبناءك؟! هل كانت هي لغة الأمازيغ الأوائل؟ ألم تكن لغة مَن استعمرنا واستباح دماء أجدادنا؟ رمل جداتنا، ويتم آباءنا! استغل ثرواتنا، واستباح عرض أراضينا وخيراتنا.. سخر أجساد أجدادنا مدرعات في مقدمة حروبه مع أعداءه.. ألم يشهد التاريخ كم من المساجد حوّلت بسياسة أهلها إلى كنائس، وكم من أستاذ حكم عليه بالسجن لمدة سنتين بتهمة تعليم لغة القرآن؟! ما لكم أبناء عمومتي، كيف تحكمون؟ كيف تتنكرون للغة القرآن؟ تبخسونها حقها في الحفاظ على استقرار الإسلام وعقيدته في أرض المغرب.. كيف تنسون فضلها على توحيد صفوف الجهاد، ضد المستعمر تحت راية "الله أكبر، الله أكبر؟"..

ما لكم، كيف تفكرون؟ قد أصدقك ابن عمومتي في ادعائك كراهة للغة العربية، إن وافقك آبائي وأجدادي من أحرار الأمازيغ، وأقرّوا رفع الآذان بمنارات صوامع مداشرهم وقبائلهم باللغة الأمازيغية! إن وافقوك

الرأي وقرأوا القرآن بالأمازيغية!. قد أوافقك في ادعائك إن وفرت لي قائمة من مكتبات تاريخية تسجل لي فيها، قوائم كتب أجدادي ومخطوطاتهم العلمية والمعرفية باللغة الأمازيغية.. فلن تكون اليوم أكثر انتماءً لأصلك الأمازيغي من أجدادي وأسلافي الأمازيغ!. أجدادي من العلماء الأمازيغ كانوا فقهاء في اللغة العربية، أفاضوا وأجادوا، بل كانوا أساتذة العرب والعجم.. الإمام محمد بن داود الصنهاجي نزل من صنهاجة (إنزكان) إحدى قبائل سوس بمقدمته الآجرومية... والإمام الجزولي ابن جزولة، نزل برائعته دلائل الخيرات التي يتلوها العرب والعجم.. أتعلم شيئا عن أرجوزة المبنيات للعالم محمد أباراغ؟ أقرأت شرح ألفية ابن مالك وشرح الآجرومية لسعيد الكرامي السملالي؟ أم عرجت على إعراب أوائل الأحزاب لداوود بن محمد السملالي؟ أتريد إقناعي بأن هؤلاء الأفذاذ أُجبروا على التأليف باللغة العربية؟! أم كانوا خائنين للهوية الأمازيغية؟! هؤلاء -سيدي- كلّهم تخرجوا من جامعة القرويين أبطالا في مسيرة العلم والتأليف.. لم يتنكروا لهويتهم الأمازيغية، لكن اختاروا العربية لغة لمؤلفاتهم وكنزا لمعارفهم! فهل خانوا بذلك القضية الأمازيغية؟!

قل لي بالله عليك، هل تشرف بجدنا المختار السوسي مفخرة لسوس، أم أنت عليه من الناقمين؟! لقد كان العمل العظيم الذي قدّمه جدك وجدي المختار السوسي في حوالي ثمانين جزء ردا حاسما علميا على الظهير البربري، الصادر في نسخته النهائية سنة ١٩٣٠ والرامي إلى الفصل بين العرب والأمازيغ.. لقد كان صوته مدويا كزئير الأسد في أرجاء المغرب، مزلزلا مشاريع "فرق تسد" التي جاء بها أهل لغتك الأعجمية، منبّها من أرادوا إحياء لغتهم الميتة على حساب المغاربة، أن المغاربة على اختلاف

ألسنتهم لن يتفرقوا.. فقد انصهروا بدمائهم في بوتقة واحدة هي الإسلام واللغة العربية.. قل لي بالله عليك، هل كان مفخرة سوس العالمة خائنا لقضيته الأمازيغية؟!.

ما لكم أبناء عمومتي، كيف تتقلبون؟

رب المشرقين ورب المغربين

كنتُ الصيف الماضي في جزيرة "بالي" رفقة المرحومة مخصوصة ويجاياتي بنت مدثر زوجة السفير الإندونيسي بالمغرب. فاستغربت أنها لا تجيد التواصل مع أهل المنطقة الذين لا ينطقون "بالباهاصا الإندونيسية"، اللغة الرسمية للبلد الملايو.. كنت أبتسم وأنا أردد:

- أنا وأنت يا مخصوصة الآن في الهوى سوى..

ضحكت رحمة الله عليها قليلا، ثم عقبت على كلامي قائلة:

- عزيزتي الغالية مريم، نحن في إندونيسيا ٢٤٠ مليون نسمة.. لدينا أكثر من ٧٠٠ لغة حية في إندونيسيا. أكثرها تعود لعائلة اللغات الأسترونيزية، وقليل من اللغات البابوانية. أكثر الإندونيسيين يتكلمون لغات محلّية مثل الجاوية.. كلّنا يحتفظ بلهجته وهويته الثقافية، لكن هل يمكن أن تطالب كل لهجة بدعوى العصبية تقديم لغتها على اللغة الرسمية والتي هي فرع من اللغة الملايوية؟ كيف يمكن أن نسير البلد ونوحّد مسارات مستقبلها تجاريًّا وإداريًّا وتعليميا وإعلاميا بـ ٧٠٠ لغة؟!

تأملت في كلامها، وأنا أتذوق نسيم عطر قهوة جزيرة بالي من مصادرها الغابوية، وأجبتها:

- الحق معك سيدتي الأعجمية، يا من تحرقت شوقا لتعلم اللغة العربية.. يا من حفظت عن ظهر قلب قصائد البردة والهمزية ودلائل

الخيرات.. يا من أخذت روحك في أرض الرباط، وأنت تعلمين بنات المغرب تفسير القرآن باللغة العربية..

قالت لي ذات مساء ساحر في جبال جاوى الشرقية:

- سيحوا يا مريم في الأرض، فربّنا ربُّ المشرقين والمغربين.. انشروا قيم الكلمة الطيبة بلغات فرنسية إنجليزية إسبانية صينية عربية أمازيغية تركية.. كونوا بناة لجسور التواصل الحضاري، كما كان جدّكم الرحالة ابن بطّوطة المغربي، رائد حوار الحضارات والثقافات والأديان في العالم..

يا عزيزتي مريم المغربية، أدخل ابن بطوطة الاسلام بعلومه العربية لمناطق سوماطرا الهندوسية، فأعلنوا إسلامهم وأحبوا لغته وقيمه الإنسانية السمحة، واعتنقوه بالحب والمودة والإحسان.. كذلك أحبّ شعب إندونيسيا بلد لـ ٢٤٠ مليون مسلم الأمازيغ في شخص الإمام الجزولي، ابن قبائل جزولة، والذي رأى النور في مدشر "تانكرت" بسوس الأقصى، الجزولي الذي جمع بين شرف النسب والدين، العلم والعمل، فألف رسالة التوحيد، وأجوبة في الدين والدنيا..

أتدرين يا مريم لماذا أحبه أهل إندونيسا؟! فالإندونيسين يعرفون جدّك أكثر مما يعرفون المغرب.. أحبوه لأنه ارتقى باللغة العربية، وجعل من قصائدها دلائل الخيرات، نشيدا تسمو به أرواحهم نحو مراتب المشاعر التعبّدية العلوية السامية.. ترتقي قلوبهم بمعانيها التي يحفظونها ويردّدونها بالعربية، ارتقاء يشعرهم بأن القيود التي تربطهم بالدنيا الفانية تنحل بوقار من سجن وثنية أجدادهم الطبقية، لتصل نسائم أرواحهم إلى الشوق الأزلي للسماء، فتفتح بتلاوتها أشرعة أرواحهم لربيع جديد..

سياحة العالم جدك الإمام الجزولي الروحية خلّدت في إندونيسا ألوانا من مواسم أعياد عربيةٍ احتفى بقصائدها أهل إندونيسا في مساجدهم،

بعد صلوات مغربهم، كما يحتفي بها أبناء عمومتك الأمازيغ بعد مغرب عصرهم في كل مدشر وقرية..

أما جدّك الإمام النحوي محمد بن داود الصنهاجي ابن آجروم، فقد أرسى بمقدمته الأجرومية أسس مبادئ تعلم اللغة العربية لأكثر من ٢٠٠ مليون مسلم في إندونيسيا، بفضلها تعلموا العربية وتلاوة القرآن.. اتركوا يا مريم ابنة الأمازيغ بصمة الفعل الحضاري كما تركها أجدادكم في بقاع الدنيا، شرفًا وعزًّا ورقيًّا...دعوكم من الذين يعملون في خفاء الخفاء من أجل شحنكم بعصبية الكراهية والسعي لشتات شملكم في أرض المغرب الذي ثملت في عشقها، أرض التعايش والسلم والأمان..

اقرأوا يا مريم تاريخ أجدادكم، أسياد مبادئ الحوار الحضاري الفعال.. فقد مر التاريخ وجاء يوم استرجعتم فيه حصاد البذور التي غرسها أجدادكم ابن بطوطة والإمام الصنهاجي والجزولي في إندونيسيا... نعم يا مريم جاء اليوم الذي ذقتم فيه ثمار حصاد خير أجدادكم في مؤتمر باندونج الآفروآسيوي ١٨-٢٤ أبريل ١٩٥٥م بإندونيسيا.. أو لم تقرأي عن محنة تاريخ قادة تحرير بلدك؟ ألم يحدثك آباؤك أبطال التحرير عن مأساة خيبة الأمل التي عاشوها، حين رفض المندوب الفرنسي إدخالهم قاعة المؤتمر، ومنعهم من تقديم وثيقة الاستقلال؟

أجبتها:

- نعم سيدتي، هكذا حكى لي والدي عمن حضر ممثلا لهم في الحركة الوطنية بمؤتمر باندونج، قال لي: "إن المندوب الفرنسي طلب من وفد جيش التحرير الانسحاب، ورفض دخولهم للقاعة مع ممثلي ٢٩ دولة.. فما كان من الزعيم المرحوم أحمد سوكارنو رئيس إندونيسا، إلا أن أدخل وفد جيش التحرير المغربي غصبا عن المندوب الفرنسي، وأعطاهم

مقعده، بل ورفع العلم المغربي فوق الكرسي الذي كان مخصّصا له، متيحا بموقفه البطولي الفرصة لقادة التحرير تقديم عريضة مطالبتهم بالاستقلال.. وبعد المؤتمر بسنة حصل المغرب على استقلاله، حصل على استقلاله بمواقف من أحبوا علماءكم من أجدادك الأمازيغ، وعاشوا قضية التحرير معكم على أمواج إذاعاتهم الإندونيسة لحظة بلحظة..

– مريم عزيزتي أنت أمازيغية الأصل، مسلمة النسب، كما أنا إندونيسية الأصل مسلمة النسب.. تعلّمي لغتك الأمازيغية، افخري بها واعتزّي بآدابها وشعرها الزاخر تراثا غنيا زاهرا في وطنك. لكن إياك أن تعلني الحرب على العربية، وتشجعي برامج وأدها باسم الأمازيغية!

فأجبتها:

– نعم سيدتي مخصوصة.. يا من خصك الله بالعلم والمحبة والسلام.. يا من سلمت روحك بأمان الأمان في أرض مغرب الأحرار، نامي في قبرك بأرض مديونة مرتاحة البال، فأنا لن أعادي الإسلام، من مدخل اللغة العربية.. لن أمحو مجد أجدادي الأمازيغ في وحدة ترابي المغربي.. أعِدك أيتها المرحومة التي جمعني بك رب المشرقين والمغربين، أنني لن أعادي الإسلام باسم الحفاظ على هويتي الأمازيغية، ولن أرفع شعارات التخويف من ضياع هويتي الأمازيغية باسم معادات العربية والإسلام.. لن أخون مبادئ أجدادي.. أعدك أنني سأمضي في الكتابة بالعربية، وأرفع راية المعرفة باسمي الأمازيغي، كما رفعها أجدادي ذات يوم في إندونيسا. فأنا أمازيغية الأب عربية الأم، توحدت مشاعرهما ليلة عرسهما، واتّقد نبض روح الجهاد الأندلسي من ابنة المجاهد الدريج الأنصاري مع نبض روح الجهاد لأحمد المانوزي ابن أكبر قبائل الجهاد بسوس أمانوز آيت أحمد.. نعم توحدت همم العريس الأمازيغي مع العروسة العربية،

لتتشاركا معا في غاية افتداء الوطن.. وزينا معا بعض وعلى حين غفلة من أولياء أمرهما سيارة عرسهما بأجود أنواع الأسلحة... ومن تطوان إلى العرائش انطلق موكب العرسان يقوده الحماس الأمازيغي، وترعاه بالنضال الشابة العربية... سيارة عرس أمي وأبي كانت تمشي بهدي خطى الرحمن، وممكن في أي لحظة امتحان تتحول رمادا من قبل الفرنسيين، وخونتهم الذين حموهم وأيّدوا بطشهم ولغتهم وأموالهم بدراهم معدودة فوق جثث الشرفاء، وما يزالون!..

قولي لي بالله عليك عزيزتي الإندونيسية، كيف تريدني أن أختار لغة من كان سينحر أمي وأبي في مشانق ساحة الشرفاء وأهجر اللغة العربية؟ المغرب مغرب واحد، دم واحد، قلب واحد.. لن تقسمه النعرات القبلية ولا تمويلات مشاريع الفرنكفونية من الصناديق السوداء الأعجمية! أنا أمازيغية عربية، أنتمي لأمّة الإسلام التي تنهض بوحدة العقيدة واللغة والأرض والغاية والمصالح لبناء حضارتنا الإسلامية.. أتحدث بالأمازيغية مع أبناء عمومتي، وأحاضر بشرف اللغة العربية فوق المنابر في المحافل العلمية، وأعبر جسر الحضارات بلغة فرنسية إسبانية إنجليزية، لكن أبدا لن أرضى تقديم لغة أعجمية فوق منابر أرض أجدادي، ولن أرضى بالتنازل عن عزة شرف أمازيغيتي...

الفصل الثامن:

فسحة في بساتين غيث الزمر

فسحة معرفية مع غيث الزمر

كان الموعد ذلك الصباح، سيبدأ بدعوة موجهة لنا للفطور في بيت سيدات نساء الزمر.. كنت سمعت عن معنى "الزُّمَر" من قبل، فلم أسأل الأَبْلاَ عائشة عن التفاصيل.

أحسست وأنا في طريق عبوري لجسر البوسفور، أن من يرتب لي هذا الموعد يلتقط أسئلتي وخواطري مساءا، ليترجم أجوبتها نهارا، وكأنه علم بتساؤلاتي التي حيرتني ليلة البارحة، عن وضع النساء ودورهن في هذا الصرح الخدماتي.. فأنا وجدت أَبْلاَهات كثيرات، مشرفات التربية والتعليم في المدارس والمؤسسات العلمية، لكن لم أجدهن في المواقع المسؤولة.

في المنطقة الأوروبية، وقريبا من منطقة أُسكُدار السياحية، دخلنا مؤسسة ضخمة البناء، فسيحة المدخل، محفوفة بزهريات من النباتات الخضراء، وورود التوليب. دفء المكان جعلني أتخلص بسرعة من عبْء ثقل معطفي الشتوي، وبينما كنت أحاول طيه فوق راحة يدي دخلتْ الدكتورة إكسيل مسرعة وهي تحمله عني وترحّب بنا:

- "هُوش كالدينيز، هُوش كَالْدِينِيز" مرحبا مرحبا.
- "هُوش بولدك"..

من دون مقدمة استقبال في مكتبها، وبلغة إنجليزية راقية دعتنا مباشرة

لمائدة الفطور. توجّهنا نحو قاعة الاستقبال، جلسنا حول طاولة ممتدّة على طول القاعة، مجهزة بمعدات تقنيات الاتصال، مفرشها الأبيض المطرز بألوان زهور إسطنبول المتفتحة، يسحر عيون الزائرين.. زينت جنباتها بصحون وأكواب راقية اللون والشكل والمظهر.. في الوسط وضعت تشكيلات من الأجبان المغلفة بنكهات مختلفة؛ جبن بالثوم والفلفل الأحمر، وجبن مزين بالسمسم والحبة السوداء، زيتون أسود بحجم حب العنب، تين تركي ممزوج بحبات لوز مهروس وسمسم أبيض، أطباق مربي، وعسل مختلف طعمه ولونه.

إكسيل سألتني عن اسمي وهي تحاول فهم سبب زيارتي لتركيا. كانت تستمع باهتمام كبير وأنا أفسر لها قيمة التواصل المعرفي والفكري، والاستفادة من دراسة المناهج التعليمية والتجارب الناجحة لمدارس المستقبل ومدارس النجاح والتميز في بعض الدول، ومنها تركيا.. أخبرتها عن تقرير التنمية العربي لعام ٢٠١١ إعداد الأجيال الناشئة لمجتمع المعرفة، والذي ساهمت فيه بقراءة حول عن دور التنشئة الدينية والاجتماعية والأسرية والإعلامية في تطور مهارات طالب جيل المعرفة. كانت مستمتعة بالحوار، بل مستوعبة تماما لعمق الأسئلة التي طرحتها عن مستقبل المرأة في العالم الإسلامي ومن ضمنه المرأة التركية.

تحتسي كأس الشاي التركي الأسود وهي تحرك رأسها في إشارة توافق مع ما أطرحه من أسئلة حول دور المرأة التركية في المعرفة والسياسية واللمجتمع المدني.. بهدوء تام وبأسلوب علمي أكاديمي عميق أوضحت لي إكسيل، مدى نضج ووعي الرقي المعرفي الذي بلغته المرأة في مجال الخدمة العلمية والاجتماعية والإنسانية في تركيا.

إكسيل هي بنت فقيرة من قرية نائية، لم تكن لديها الإمكانيات المادية لمتابعة دراستها الطبّية في إسطنبول.. فكان الفضل يرجع لأهل الهمّة من الأصناف الذين رشحوا اسمها في لائحة المنح الموزعة على أبناء بلدهم من الفقراء.

إكسيل:

- أنا يا مريم كنت سأتوقف عن الدراسة لولا تدخّل فرسان الهمّة، وأيّ فرسان يا أستاذتي.. فرسان أصناف حملونا على جياد المعرفة البيضاء، واحتضنونا في بيوت الحدائق التربوية الخضراء، وسهروا على إبلاغنا أعلى الدرجات.. راعونا في المأكل والمشرب والملبس، أكرمونا في الأعياد والمواسم، سجلونا في سجلات الميلاد مع أبنائهم وبناتهم، تبنّونا بنوة الأب والأم بالرعاية والسهر والتوجيه والترشيد، إلى أن رشدنا وتشبعنا بقيم المحبّة والإخلاص والتضحية من أجل إسعاد الآخر. هذا هو سبيلنا في منهج نظام معارف هذه التربية، وهذه هي قيم ومبادئ الخدمة أستاذة مريم..

تتابع إكسيل، وهي تترنّح بنشوة فيض إشعاعية، تطل بنورها على موائد الفكر والمشاعر وتناغم الأرواح:

- اليوم أنا طبيبة جراحة متخصصة.. كيف لي أن أتنكر لمن خدموني واحتضنوني وأنا ابنة الفقراء الذين لا يملكون قوت يومهم، فما بالك بالإنفاق على تعليم ابنتهم في كلّية الطبّ؟ كيف لي أن أدير ظهري لمن أوصلوني لقمم هرم المعرفة؟! علمتني الخدمة -سيدتي مريم- أن أعمال كل إنسان له منها حصيل، وأن ثلاث هي دربي إلى حسن المثال، صحبة وهمة وزمرة، أعمال كل طالب له منها حصيل.. أدعو الله أن يقدرني

على رد الجميل، وأن يجملني بنورتسلسل وصل الحبال.. حان دوري اليوم لأتكفل بعشرة طلاب من أبناء الفقراء، أرعاهم وأحتضنهم بالتوجيه والترشيد والكفالة المادية والمعنوية. هذه هي معادلة التسلسل الترابطي لأبناء رعاية الخدمة...

كانت مجموعة من سيدات أنيقات، تدخلن القاعة وتعبرن ممرًّا طويلاً في اتجاه قسم من أقسام المؤسسة... تابعتُهم من بعيد وأنا أواصل حواري، فشكلهم ليس بشكل طالبات، ولكن مع ذلك سألت الدكتورة إكسيل:

- هل تقدمون في هذه المؤسسة دروس دعم للطالبات؟

إكسيل:

- لا أَبْلاَ مريم، هذا مكتب خاص باجتماعات الزمر، واليوم عندنا لقاء مع زمر الهندسة المعمارية.

تذكرني الأَبْلاَ عائشة صاحبة تصميم البرنامج العلمي بإسطنبول:

- "أفيت أفيت"، نعم تتذكّرين مريم أَبْلاَ؟

- أتذكر ماذا يا عائشة؟

عائشة:

- نحن هنا في مؤسسة الزمر للكوادر من النساء التركيات، وقد كنت سمعت عن نموذج للزمر في مدارس الفتح.. وشرحوا لك طرق اشتغالهم في مجال تطوير استراتيجية المناهج...

- نعم صحيح تذكرت، ولكن ما علاقة الزمر بالهندسة وبالدكتورة إكسيل؟! فهي طبيبة جراحة كما فهمت..

إكسيل:

- سيدتي منهجنا الخدماتي يقوم على مبدإ الزمر والصفوة في حسن

تطوير الخدمات إن على مستوى المعرفة أو الفكر أو الهندسة أو الطب والعلوم المختلفة.. ففي كل حي، وكل مدينة وقرية، هناك مكان لاجتماع الزمر في لقاء أسبوعي قد يمتد إلى لقاء شهري، يجتمع فيه أطر تخصص معين بالتناوب.

أسأل باستغراب:

- تخصص معيّن وبالتناوب؟! ماذا تقصدين دكتورة إكسيل؟

إكسيل:

- أقصد مجموعات من زمر أي أطر، الجراحة والطب، الهندسة والمقاولات، الاقتصاد والتكنولوجيا، الإعلام والتواصل، الفلاحة والزراعة، الفكر والثقافة، الفن والرياضة، الاختارع والبراعة، التربية والتعليم، المرأة والأسرة. يطرحون آخر ما يواجههم من مشاكل ثم يقدمون قراءات متطورة ومستجدة عن حلول المشكلات. فمثلا أحيلك على مجالي كمتخصصة في جراحة الآورام، نجتمع شهريا كخبيرات جراحة الأورام من كافة مستشفيات وعيادات إسطنبول، نعرض لمشاكلنا التي نواجهها في عياداتنا في قاعات عملياتنا مستشفياتنا. اللقاء يكون التحضير له مسبقا بأبحاث تقدمها لنا خمسة من الطبيبات بالتناوب. وهذا المنهج يكسبنا العديد من مهارات التميز المهني والتفوق العلمي في التخصصات التكنولوجية والمعرفية البحثية الدقيقة.

كنت أتابع عرض الدكتورة إكسيل عن كيفية اشتغال الزمر، وأنا أردد في نفسي:

- يا سلام كم هو جميل حيز اشتغال هذا المبدإ الزمري في إحياء الهمم الساكنة؟! كم هي راقية نساء الخدمة حين يتولين قيادة المركبة العلمية، غير

غافلين قيادة المركبة النورانية في بيوتهم وأسرهم ومؤسسات مجتمعهم؟! سبحان مَن سخّر لهؤلاء استلهام معان قرآنية في منهج الارتقاء المعرفي بالصفوة المختارة.. سبحان مَن غرس حبّه وحب كتابه في قلب صفوته، فملأوا أرواحهم وعقولهم بمعانيه ومفرداته، لم يشرحوها شرحا تعبديا، وإنما زاوجوا بين معانيها التعبدية المعاملاتية لبناء مجد حضارة تنطق بوحي السماء...

بكلّ إعجاب وتقدير ودّعنا الدكتور إكسيل ممثلة نساء الخدمة في هذا الصرح العلمي الزمري الهامّ، وكلنا أمل في الاستفادة من تجربة الزمر في مجال تخصصاتنا العلمية والفكرية.

طفل فلسطيني يغرق عيون "كيمسه يُوكْمُو"

"كِيمْسَه يوكْمُو" (هل من مغيث؟!) مؤسّسة للإغاثة العالمية في قلب إسطنبول.. و"رُومي فُورُوم" مؤسسة خدماتية تركية في قلب واشنطن. ومن إسطنبول إلى واشنطن قدر لي زيارة محراب تعبد الأطهار، حيث قلوب فتية نابضة بالإيمان، عزائمهم لا تعرف المستحيل، تحمّلوا أنين بكاء أستاذهم وهو يقول: "القرآن مهجور، فهل أحييناه؟! القرآن محبوس في الصدور، مهجور في حراك الحياة، فهل فعّلناه؟!".

مسَحُوا دمعه، وعادوا لمراجعة ذواتهم.. فتحوا كتاب الله، أعادوا الوصال معه، بعد هجر طويل ضَمّوه إلى صدورهم وكأنهم يعيشون لحظة نزوله.. حملوا مشعل رسالته، واعتلوا به أطباق فضاءات العالم، حيث تتصارع الأهواء واللذات والمغنم...

عدّتهم همة، ومدرستهم قلم، وقلمهم كتاب... مثقلون بطاقاتهم الإيمانية، بآلام رسالتهم الإنسانية، بالمحبة يتحرقون، بدموع الشوق.. أرواحهم توّاقة للعناق، وأفكارهم مصقلة بطاقات إبداعية.. إنهم زمرة فتية يضربون في كل الأرض، بحثًا عن حسن الفهم وقدرة العمل.

في إسطنبول التقيتُ بفارس من هؤلاء الفتيان.. إنه مدير "كِيمْسَه يُوكْمُو" الإغاثة المتألق في حسن العناية بضيوفه، الأنيق في كل شيء، في لباسه، مكتبه، طريقة كلامه ودقّة ملاحظاته.. كل شيء كان يحكي متحدثا

عن سرّ رباني إيماني غريب في أطوار هذا الرجل.. عيونه تحكي قصصا صامتة من الورع والتضرع والبكاء خشية من الله...

لا أدري لم انتابني هذا الإحساس الذي وافقته في الحدس بعدما قدم لنا عرضا حول نوعية الخدمات الإغاثية، ولجان التطوع التي يشرف عليها شباب من أبناء الخدمة من حول العالم.. بدأ الشريط يعرض في أجواء صمت مهيب، يرافقه الإحساس بمشاعر الحزن والآسى على أمّهات أرامل وأطفال جياع جراء الحروب والكوارث الطبيعة.. مرت ثوان حول قضية السودان وكارثة التسونامي، وفياضانات تركيا، ودارفور ولبنان وغزة.. عند فقرة فلسطين أوقف المدير الشاشة، ليخبرني بلغة إنجليزية راقية:

- سيدتي مريم، هذا الطفل يتحدث بالعربية وكأنه يستغيث.. أنا لا أعرف اللغة العربية، ولكن كلما شاهدت المقطع كلما تأثرتُ بأنين نبرات هذا الطفل، لدرجة أكاد لا أسيطر فيها على نفسي.

في الصورة طفل فلسطيني لا يزيد عمره على سبع سنوات، يبكي وينعى موكب جنازة العروبة.. يستنجد بالأحرار، ودموعه الملائكية تتماوج مع شعور عزة نبرة صوته المقهور... وبكلمات شبّهتها بقصيدة "أنا طفل فلسطيني" للشاعر الصقلاوي كان يردد:

أنا طفل فلسطيني،
تقرأني البرامج والإذاعات،
وتنشرني الجرائد والمجلاّت،
وتقرضني الفجائع والملمّات،
وتحصدني القنابل والرصاصات،
وتعلكني المحافل والبيانات،

وتكتبني وتمسحني القرارات،
وتعرضني وتلغيني الدعايات،
وتسقطني من الجمع الحسابات،
وتعرفني السماوات...
أنا طفل فلسطيني،
أنا اليتم الذي استفحلْ،
أنا الجوع الذي يشعلْ،
أنا مستنقع الأمراض حتى العظم منتشرا وفي المفصل...
أنا المسلوخ عن وطني،
وعن بدني،
تلبَّسني رداء العري واستشرى،
ولم يغفل...
أنا المعلول والمعتل،
أنا الصرخات في الحدقات تستأصل،
أنا النور الذي يسمل،
أنا الحلم الذي يسحل،
ولن يقتل،
وأصلب عند مئذنة بصدر القدس والكرمل،
وعند كنيسة للسلم صلى،
قلبها المقروح أحزانا ولم تدمل...
يمر العام مشحونا بآلامي،
ويأتي آخر مثقل،

فمن يدري، ومن يسأل؟!

الطفل يبكي، ويستغيث ومدير المؤسسة أمامي، تكاد أنفاسه تنقطع من شدة رجفة مشاعره، ولطمات أمواج ضميره، يبكي ويداه ترتجفان من وقع نبرات صوت هذا الطفل... كنت أبكي في خشوع صمت مهيب خيم على وجوه كل الحاضرين لغة الدموع تجوب الوجوه النيرة، ونظراتهم التي ضببتها الدموع تخبر عن صدى تموج الأرواح السامية التي حبست أصواتهم في صدورهم...

كانت عيون المدير، تحكي بلغة عيون زياد لتخبرنا عن أحوال من لا نعرف بما يفكرون، ولا ندرك بما يهمسون لأنفسهم، ولا بما يخطر على أحوالهم؟! هؤلاء هم مَن يوصلون نبض قلوبهم إلى قلوب أهل القلوب...

فسبحان من وحّد لغة المشاعر النبيلة الطاهرة، وسبحان من سخّر لنا نعمة الوصال الروحي مع من نناصرهم!.. وما نحن برحمة الله من القاطنين...

رومي واشنطن.. ومطعم دراويش نيويورك

كان زياد يحيي بودّ بالغ مدير مركز "كيمْسه يوكْمو" الإغاثي، بينما عدتُ بذاكرتي إلى السيد عمر مدير مؤسسة رومي بواشنطن.. فالشبه بينهما كبير؛ رومي مؤسّسة خيرية تركية تخدم ببرامجها في أمريكا روح المحبّة الإنسانية، بعيدا عن التحيز للدين والمذهب.. رومي توزع الأكل في الحدائق والمنتزهات على المشردين، فلا تسألهم عن دينهم، أو عن هويتهم، أو عن أعراقهم وجنسياتهم، توفر لهم السكن أيام البرد القارس، فتفتح باب سفارة الإسلام واسعا، ليدخله المغتربون...

توقعتُ أن رُومِي واشنطن، مثل مطعم الدراويش بنيويورك حيث حملني القدر في ماي الماضي من عام ٢٠١٢ إلى زيارة علمية لمكتبة نيويورك.. كنا أربعة زملاء من المغرب حضرنا لقاءات علمية عديدة في جامعات ومؤسسات بحث، وانتهى بنا المطاف في اليوم الثالث للقاء مع القسم العربي في مكتبة نيويورك وزيارة المتحف الإسلامي المبهر لزواره بمتحف نيويورك.. في المساء خرجنا من جولة المتحف والمكتبة، بإحساس جوع لا تتحمل مكابدته الأقدام بحثنا طويلا في شارع رقم ٥ الشهير في نيويورك عن مطاعم حلال. جبنا محلات ومحلات، بحثا عن قطعة لحم بنكهة طعم الحلال، وقفنا عند آخر شارع الخمسة من جهة المسرح الشهير في منْهاتن، أخيرا عثرنا على مطعم الحلال، إنه مطعم

تركي اسمه "مطعم الدراويش"..

يا سلام.. فأنا أعشق المشاوي التركية، وقفت عند أعتاب بابه، وقلت لزملائي:

- كفانا مشيًا، فهذا هو عين المراد.. مطعم حلال وتركي، وأهله دراوييش من أهل الله..

دخلنا المطعم. الجوع أنهك قوانا، وهد صلابة أجسامنا. كنا ستة، أربعة من المغرب، واثنان من مصر. المصابيح باهتة الضوء كأنها شموع. سألت زميلتي الأستاذة سهام:

- لم المكان مظلم، والضوء خافت لهذا الحد؟ أوَ هذا طقس من طقوس مريدي الدراويش؟

قالت لي وهي تبتسم:

- يا مريم، هنا نيويورك.. دعيك من دروشة أهل زاويتك المغربية، فالكهرباء له ثمن، بل حتى السلام يدفع عنه بالدولار!.

أجبتها أن أهل الله من الدراويش لا يغترون بمال ولا جاه.. ما لك تحكمين عليهم بحكم أهل التقشف من عباد الدولار؟!

وأخيرا حضر النادل ومعه كتاب يحمل لائحة الفرج.. من دون طول تصفح في الأوراد، طلبت مشاوي لحم مشكل.. ومن الزملاء المصريين من اختصر، شوربة وسلاطة وآيرن لبن..

تطلعت في ملامح وجه النادل التركي، لعلي أتوسم فيه نشوة الوصال، فالأرواح جنود مجنّدة، وأهل الحال أرواحهم يشرق عليها جمال.. لكن سبحان الله، وجه هذا الفتى لم تنطبق عليه أوصاف أهل الحال. تأملت في لوحات الطرق المولوية التي ملأت صالة المطعم، أخذت بعض

الصور تذكارا، لكنني ما زلتُ مصرّة على الجلوس.. لم تعد قواي تسمح بالوقوف ومع ذلك مصرة أنا على الاستمتاع بأخذ الصور مع اللوحات الفنية لدراويش نيويورك..

الأستاذ سمير يمرق بسهم نظراته مدخل الباب، سهام تخطف لي الصور، بعيون المترصد نحو الباب.. الجوع نطق، فسكت اللسان.. الطاولة ما زالت فارغة، وبريق العيون يتلألأ كبريق عيون القطط في الظلام... وأخيرا وصل النادل بطبق فيه خبز تركي.. يكفي لاثنين ونحن ستة أشخاص.. نطقت الأستاذة سهام، فانطلق سهم إشارتها نحو كاهن مذبح القربان.. بعد دقائق معدودة من الانتظار، بعيون متصلة نحو مدخل الباب، وصلنا طبق ثان من الخبز، طبق فيه كسرتان، يكفي فقط لاثنين، ونحن ما زلنا ستة أنفار.. كل منا طلب وجبة بفاتورة لا تقل عن ٤٠ دولار، والأصول تقول طبق خبز لكل نفر.. مع من نتكلم؟

فالنادل قدم الطبق وطار كالسهام، هنا نيويوك والوقت له حساب. اقتسمنا كسر الخبز كالمتسوّلين الجياع، نلتمس طلة من صاحبنا، ندعوه فيها للمزيد، فنحن ستة والخبز لا يكفي إلا لاثنين.. نادل آخر مبعوث بطلبية لزبناء، تأثر من هذا المنظر، ولكن هنا نيويورك لا حق له في الاقتراب من مائدة زميله، ومع ذلك عز عليه منظرنا ونحن نتقاسم كسرة خبز بلا إدام، أسرع نحو المطبخ وجاءنا بطبق ثالث، رمقه من بعيد النادل الرسمي لطاولتنا، فأوقفه ورده بطبقه عن المكان...

انتفضت روحي وقامت قيامتي من هول ما رأيت في مطعم الدراويش الأتراك. لم أتدخّل ولم أعقب على هول ما رأيت.. فالمشهد أكبر من أن يعبر.. درويش صوفي من الأتراك يمنع كسرة خبز عن إخوته من أهل

الإسلام.. إلهي ما هذه أخلاق الدراويش، وما ينبغي لها أن تكون؟!. ما هذه أخلاق أحبّتي في تركيا، ممن يضعون جنب كل محل، سلة من الخبز، ويكتبون فوقها "من ليس معه فاتورة لشراء الخبز، فليأخذ من هذه السلة!". وشتّان بين فاتورة أهل الأحبة والفاتورة في مطعم الدراويش. فاتورة الدراويش تفوق ٢٦٠ دولارا، ومع ذلك منعت عنا في غفلة من عيون زملائي طبقًا من كسرة خبز!.

هنا نيويورك، هنا مطعم الدراويش.. ماء دروشتهم علقما، وأكل مديحهم حنظلا، وأجسام شطحاتهم كأنها خشب مسندة، وأرواحهم بلا رائحة... ساعتها تيقّنت أن الفرق شاسع بين من تربّوا على مبادئ الحب والتراحم بـ"رومي" وهم في واشنطن، وبين مبادئ جوع الدولار التي اكتسحت قلوب العارفين في مطعم الدراويش بنيويورك!..

زمان الفعل والعطاء

زياد وهو يتحدث بالتركية مع السائق يخبرني:

- أستاذتي، سنتوجه الآن إلى مقر جريدة "زمان".

فشعرتُ بأن الزمان سيعيد نفسه لزمان الوصل بالأندلس.. كان المبنى الزجاجي ضخما وممتدًّا بأجنحته نحو اليسار، بسلسلة من المكاتب الراقية تدار فيها جلسات عصف ذهني، تؤطر الإعلاميّين المبرزين في عالم سباق منافسات الصحافة...

في مدخل الجريدة طابعة قديمة تؤرخ لتراث تاريخ النشر الصحفي بتركيا... كنّا نتوجه يمينا عبر صالات ضخمة تتخللها مكاتب مكتظّة بصحفيين شباب وشابات، يئزون كخلايا النحل المصحوبة بملكتها.

يستقبلنا الإعلامي "كريم"، وهو يرحّب بنا بلغة عربية فصيحة.. أوقف الحديث بها عند بدء تفصيله لمحطات تاريخ تطورات جريدة زمان، وبلغة إنجليزية فصيحة كان يتابع مسيرة تفاعل هذا الصرح الإعلامي مع قضايا المجتمع، مركّزا على أن منهج الصحافة الخدمي يقوم على أساس إبراز إيجابيات المجتمع، وتفادي الصراعات والانفعالات مع المخالفين أيًّا كان توجههم السياسي، أو لونهم الحزبي، أو مشربهم المذهبي.

الأساس كما أوضح لنا "كريم"، هو إبراز وحدة توازن مصالح المجتمع، والاتفاق على المشترك، دون التمركز حول الخلافات

والصراعات...

- أستاذة مريم -يضيف "كريم"- هذا المنهج هو الذي تميزت به جريدتنا التي كانت منذ زمن قصير محظورة من قبل فئات المجتمع المدني، لتتحول في وقت وجيز إلى أكبر صحيفة في تركيا. واليوم دخلت كل بيت، وأكسبت الجمهور الثقة في نفسه قبل الثقة في مادتها الإعلامية. نعم يا سيدتي، أصبحت الجريدة مفخرة كل مواطن مثقف، بل أصبحت رمزا يناطح شموخ النخبة المثقفة.

كنت أسأله وهو يطلعنا على فضاءات المؤسسة الفسيحة والممتدة، فضاءات مجهزة بأحدث وسائل النشر، بل مكاتب تضم سلسلة قنوات مرئية تركية، تذكرت منها الآن "سمانْيُولُو"، أحاول التركيز على باقي الأسماء، لكن المرحلة التي أكتب فيها وأنا أقلب قنوات الإعلام المرئي، هي مرحلة جد حرجة، يعيشها كل مواطن عربي، جراء تتبع الأحداث الدامية لمظاهرات مصرفي ثورة الحرية ٢٥ يناير ٢٠١١، والتي تخلد تاريخ تحول عميق في فضاء الحراك السياسي العربي، أو ما سمّي بأحداث الربيع العربي.. تهز الكيان، وتفجر المشاعر الملتهبة بمستقبل كرامة الإنسان العربي المقهور.

أسجّل خواطري وأوصالُ أنفاسي تكاد تنقلع من شدة وقع حدث التحام ثورة الشعب المصري، ثورة بلا لون ولا حزب ولا طائفة.. ثورة الغضب.. ثورة انتفاضة وتفجر مقاييس بوصلة الكرامة العربية... الآن فقط بدأت أستوعب جيّدا معنى المعاني في فهم سر المنهج الخدماتي.. المنهج هو عبارة عن سلسلة متشابكة الأطوار، ممتدة الأفق، متلاحقة الأبعاد، مترابطة الأركان.. أصلها ثابت في الأرض، وفروعها ممتدّة بترابط

أغصان الأصل نحو عنان السماء. إذا مرض جدع أو غصن، تم إحاطته بفروع أغصان أخرى، وجذبه في لفائف سميد ورق البردي، لصيانته حتى يشتدّ عوده، ويصلب في رحلته السامية نحو الأفق.

كان فضاء مطعم جريدة زمان فسيحا ومتميزا بحضور "آدم أبي" أشهر طباخي إسطنبول على الإطلاق.. إنه -كما أخبرني زياد- محبوب كل الرجال، يعزونه ويثنون عليه كثيرا، بينما يغرْن منه النساء لشدة إطراء الرجال على طيب نكهة أطباقه. وفعلا، فها هي شهادتي تضاف بعدما ذقتُ من لطائف نكهات مائدته، إلى قائمة شهادات الرجال، وسجّلت بلساني شهادة إعجاب بسحر مذاق نكهات أطباقه. فتحيّاتي القلْبية لك يا "آدم أبي".. يا من امتزج سحر طعم أطباقك التركية الزكية برائحة شم نسيم بركات.. من ذاقها قبلي.. فتح الله عليه وعليك وعلى كل من ذاق لذّة الوصال الروحية...

خرجنا من جريدة زمان، وأنا أتحسّر على زمان الإعلام العربي.. زمان الصحف التي حولت إلى منشفة لمسح زجاج النوافذ والسيارات.. صحف مليئة بحوادث القتل والاغتصاب والرشاوى والنهب والسرقات.. صحف الفضائح وتتبع العورات.. صحف القيل والقال وتهميش معنى المقال... أين أنت يا "زمان" الفعل الإيجابي؟! أينك يا "زمان" تفعيل الإرادة وتقويتها في نفوس أبناء أمّتي؟! أين نجدك في عالم غاب فيه بعض الإعلاميين عن وهب قلوبهم لفكرتهم ومبدئهم؟! أين "زمان" السلطة الرابعة من تجاوز الذات والتخلص من دسائس الانحياز وأضواء الشهرة على حساب المتلقين؟!.

رؤية من وحي زماني الغابر

من زمان نحو زمان معنى الزمان... تُرى أي زمان هو؟ إنه زمان رحلة عشاء على شرف أبناء الأجاويد؛ جمال، وأنس، وزياد آل بيت أم سداد. إنها مائدة عشاء تحكي قصة العشاء الأخير مع الحواريين.. إنه وحي من زماني الغابر في حلم الرؤى، وزماني الحاضر في خمس المكان.. إنه زماني المقبل بعد السفر إلى ماوراء الأزمان.. ومابين زمان وزمان، تدق نواقيس مراسيم أعياد فصول الزمان...

كنت أشعر بوهن في جسمي، حسبته جراء برنامج يومي المليء بنسائم سحر الزمان.. أتراه كذلك؟ "لا يا مريم" تجيبني خواطري بلهجة ألطاف سر خفية..

ففي أمكنة ذات خصائص ربانية، تنفجر لغة الضياء بلهجة خاصة تخالط القلوب والأرواح... أحسست -وأنا أدخل المكان- أن روحي تطير بأجنحة الوصال.. لماذا هذا الإحساس يا مريم؟. هو مكان عادي وفضاء جميل يطلّ بشرفته على منظر بديع. لا أدري ما الذي استولى على كياني فجأة، وأيقظ في وجداني رغبة وصال لا تقاوم؟!

أنا هنا في هذا المكان الفسيح الأنيق، المحفوف بالنباتات الخضراء وفي غفوة نفسي امتدّ بصري إلى ركن من أركان قلب المكان.. فار له كياني قبل استحضار ذاكرة أفكاري، وانفجر له ستار الشوق.. نعم هو ذاته

المكان، هو نفسه المقام.. أهو مقام فتح الله لوليمة فكر مشاعر الإنسان؟!

- قل لي يا زياد، هنا أطللت من نافذة بيتي على عصارة عطر هذا المكان.. أهو مكان يطل منه صاحب المقام؟! أهو عرش تربع نفوس الذاكرين العطشى لجو النور القرآني؟! قل لي يا زياد، بالله عليك أخبرني، فأنا لا أملك الصبر على تقلب عالم أحوالي؟

هنا -يا سيدي- سقيت الوديان التي أوشكت أن تجف.. هنا انهمرت دموع الأنهار لتسقي جداول بساتين وحقول وزهور.. هنا رأيت في رؤياي كيف ينفجر ستار العشق بنفحات الروح والريحان.. هنا سمعت أنين صوت فارس العشق والوجد، وهو يبعث الفرحة في الوجود...

نعم هنا -يا زياد- سمعت من يسمع بالقرآن كل عالم الوجود، من يتنفس بالقرآن فيرتعش ويكاد يغيب عن المكان والزمان... قل لي رجاء، فقد فاض بي المقام والمكان والزمان...

ما أبدعك من مهندس في ترتيب لون المكان، وجمع الزمان بالزمان، لتتوحد في صمت لغة الأرواح السامية المتجاوزة للزمان...

في ابتسامة وديعة، يقول لي:

- نعم يا مريم، هذا هو المكان...

مريم:

- أحقًّا هو هو المكان؟!

زياد:

-نعم يا سيدتي، هو بذاته...

مريم:

- زياد، أيمكنني أن أستسمحك في التبرك بمكان رؤياي التي رأيتها

ليلة سفري لإسطنبول؟!

زياد:

- صعب جدا يا سيدتي، فهنا نحترم أصول معاني هذا المقام...

كدت أفقد أملي في نيل حظوة تفسير رؤياي، لأنظر إلى زياد وهو يشاور لي بإذن الجلوس في محراب مجدد الزمان:

- أأجلس حقا يا زياد؟!

نعم سيدتي، فقد وصلتني إشارة سرى صداها ضمن أطياف ألطاف مدد المقام. كنت أجلس وأنا أردد: "نعم يا حفيدة صانعي الزمان بحراس المكان".

هنا التقيت في عالم الرؤيا أناسًا لا أعرفهم، يحدثهم بحرقة أنين البكاء صاحب المكان.. سبحانك يا الله، ما أرحمك بعبادك.. سبحانك يا بديع السموات والأرض.. سبحانك ربي، أحمدك وأستغفرك وأتوب إليك.. يا عالما بما وراء الأستار.. يا من يظهر كل شيء، متخفي وراء ستر الأستار.. إلهي إليك أتضرع، وأنا في هيبة جاذبية سحر المكان.. أدعوك وأتوسل إليك، أن تفسر رؤيتي التي طالما خبأتها ولم أقصصْها على إخوتي.. فأنا اليوم أعيش الماضي والمستقبل.. أعيش الحاضر بعين رؤية الماضي.. هذا المكان تقاسمت فيه حظوظ المنام.. وفيه وقفت في مرآب مرسى بحر العبور.. هنا -يا إلهي- وقف علي رجل النور بقميصه الرمادي ملتحفا ببردته البيضاء.. هنا وفي غابر مر الزمان الممتد إلى طفولتي، سلمني برقة نسيج الحرير، بردته المنسوجة وعصاه الممدودة.. هنا وثق روابطي بجذور معاني الكلمات، وهو يضع البردة على كتفي ويسلمني العصا وبصوت حيي عذب حان يردد:

- أنا -يا مريم- الخطيب، أنا الخطيب في زمن ندر فيه الخطباء..

وبمقاييس القلب المملوءة بالقرآن، ولطافة مزينة بنضج الكمال كان ينظر إليّ -وعمري آنذاك لا يتجاوز ١٥ سنة- ليعيد بعث الطمأنينة في روحي، بعدما أحس أن أوصال روحي ستنفك من فورة رجة الإقلاع نحو السياحة السماوية..

أتضرع إليك -يا خالقي- أن ترشدني لتفسير هذه الرؤيا.. أن توجه مشاعري لحجب ستار ما وراء الحقائق..

الخطيب الذي ألبسني بردته في منامي، لم يكن هو الخطيب الذي بحثت عنه في مساجد تطوان، فتركت تفسير رؤيتي إلى شاطئ آخر من رحلة حياتي، وإلى رحمة الله التي تسبق أحلامنا ورؤانا...

أدعوك -يا عالم الغيب- وأنا أنحني أمام عظمتك إجلالا وتوقيرا، أن تلهمني في هذه الفترة القصيرة من هذا الدعاء، سر شلالات رحمتك الإلهية وهي تقدر ومن تاريخ ميلادي في آجال الأقدار بيوم خامس في شهر خامس، ليمتد إلى الزمن الآتي.. فيصلني بمراتب سمو الخامس.. ومن الخامس أشم رائحة قميص يوسف، تمر تحت إكليل سماء ركن زاوية نقطة اللقاء...

يا ربي أدعوك وأتوسل إليك.. فقد أطللت يوما من نافذة العجائب والغرائب، وتصفحت حكايات الأبطال... وكنتَ هناك -يا سيدي- في ركن تلك الزاوية، كنت تدير بعلم رأسك العالم النوراني. أما أنا فكنت ألوح لك بروحي كيتيمة محرومة، تبحث في وحشة الأيام المظلمة عن ولي نعمتها.. وأخيرا رأيت الخطيب، رأيت الرجل الذي زارني يوما في غابر الزمان، فانزاحت من على قلبي الأستار، وزال سحر وحشة الظلام.

فانقلب حلمي إلى رمز ضياء بهجة العيد، وعلمت أنني سأصل يوما إلى ساحل مرفأ قبطان السفينة المفقود...

يا رب، عاجزة أنا عن متابعة سير هذه الرحلة السماوية على أرض هذا المقام.. عاجزة أنا عن تلقي هذه الذبذبات الكهربائية التي تلامس روحي وكياني وعقلي وأنا متربعة على حرف هذا الركن. ارحمني يا سيدي ويا خالقي ويا مولاي ويا ولي نعمتي، من ضغط وصال الروح بمن تحمل أعباء السياحة في بحار نور القرآن والفكر والخطابة، والهجرة في أقطار الدنيا من دون أن يكل أو يمل...

إلهي، أنا هنا اليوم أمد يد الضراعة نحو السماء وأتوسل إليك أن تحوّل عقلي وروحي وأنفاسي -بمدد قوة هذا المكان- إلى تجاوز أبعاد الزمان، والإبحار في عمق نبض الحياة.. اجعله -يا خالقي- ميناء انطلاق إلى عصر النور، إلى نقطة انطلاق نحو أعالي المعنى، إلى البساتين المحفوفة بنبات المعرفة، إلى نقطة التقاء القلوب المتوهجة بجمرة العشق الإلهي...

كان صدق الدعاء نابعا من انبعاث حالة وجدانية لمن ذاقت طعم وصال حياء وزهد من أحيا بفكره وروحه جدران هذا المكان...

عشاء بنسيم لطائف سحر الزمان

أم سداد تخترق بصوتها الحاني وهج مشاعري لتخبرني بأن العَشاء جاهز... اجتمعنا على مائدة ممتدة لا هي منقوشة الخشب ولا هي مذهّبة اللون.. مائدة تنطق بسر كبير، توحي بشكلها أنها فخمة ليس على الطراز الفرنسي، وإنما على الطراز التركي.. تحكي بامتدادها، امتداد أواني وصحون وكؤوس شراب أهل الصفا.. مفارشها زيّنت بألوان موسم ربيعي.. تحكي لي في صمت، وأنا أداعب ثوبها، عن نكهات تنوع الأطباق الفكرية والوجدانية والاقتصادية، التي كانت تدور في فضاءات مفرشها التركي الأنيق.

ضيوفها أناس عقدوا العزم على ركوب القطار السريع، في زمن القطار البخاري، ليتجاوزا باختراعهم المبدع الزمان والمكان، ويصلوا في أقرب وقت إلى كل زاوية من زوايا الوطن.. يسيحون وهم يحملون في أيديهم مصل لقاح الممانعة ضد وباء فيروس قاتل يهدد هويتهم وانتماءهم، فطافوا من فوق هذه المائدة بعقولهم وأرواحهم أرجاء أقاليم السلطنة العثمانية، قبل أن ينزلوا بأجسادهم وعدتهم وبيوتهم وعلمائهم ومفكريهم... كنت أسمع بخشوع لحكايات هذه المائدة المباركة وهي تخبرني عن ذكريات ملاحم تاريخية بطولية عايشتها مع فرسان المبادرة

والتولي والهمم.

أم سداد:

- ما ألذ هذه الشوربة!.

تقطع أم سداد رفيقة رحلتي النورانية، على المائدة سرد ذكرياتها، فتتوقف لتستمع في ود إلى حديث ضيفتها.

مريم:

- نعم ما أطيبها يا أم سداد!. فأنتم الأتراك تشتهرون بالتفنن في أصناف الشوربات.

وبينما كانت أم سداد تنعم بلذة طعم الشوربة وتطعم صغيرها جمال، كنت أحاول الرجوع إلى سماع حكي المائدة عن سلسلة أصناف أطباقها وزوارها في حضرة صاحب المقام فاتح سر الموائد الربانية... فيبادرني زياد قائلا:

- مرحبا بك وبضيفتك في هذا المجلس المبارك... دعيني أعرّفك بالدكتور جمال، ابن الأجاويد الكرام؛ وبالدكتور أنس، ابن فكر المعرفة والعرفان.

كان جمال وأنس يحكيان بلغة عين ناطقة بحمد الله، عن سر حياء لغة العيون.. عن قلق بال من تتجافى عيونهم عن المضاجع داعين ربهم ساجدين له.. عن من افترشوا فراش التجرد والبساطة والتواضع... عيون جمال مليئة بالنور والبساطة، وعيون أنس مستغرقة في التفكير تحكي بلسان الحال ما هو أبلغ من لسان المقال... وثلاثتهم متكاملون بشخصيتهم، مترفعون عن حياة البذخ.. نصبوا عقولهم وأرواحهم في مراتب جندية خيام قلوب المئات الألوف من البشر. ومع ذلك يجدون

الوقت للترحاب بنا اليوم فوق مائدة تزاحم عليها الزوار من هنا وهناك طمعًا في شم رائحة نسائم اللطف الثملة بمحبة فتح الله...

كنت أحاول اختراق جدار محراب تعبد من لم يتعودوا على حضور الناسكات في مراكز تعبدهم.. وفي قرارات نفسي أتضرع لخالقي أن يزيل عقبة عقدة الذكر والأنثى من فضاءات سر رحاب الجلسات النورانية.

"يا سلام، يا زهرة!."، أقولها لضيفتي وهي تبادلني نفس الشعور. "ما أجمل التحام الأرواح في حب الله من دون استحضار شيطنة عقبة الذكر والأنثى".. وما أدراك ما عقبة الأنثى في عالم الرجال؟! ما أروع أن تنسجم العقول وتتفانى الأرواح في حمل سر أمانة الأمانات.. أمانة رب العباد، بعيدا عن هاجس الفتنة!..

زهرة:

- صحيح أنا أحس بك يا مريم..

تجيبني في صمت مهيب، وهي تشاركني همّ حرقة ورم عقدة الفتنة الذي سيطر على خلايا عصبية لبني الذكور في عالمنا العربي قد يصعب استئصاله!..

- ترى يا مريم أنستطيع ببركة سر هذا المقام أن نقفز على هذا الحاجز، ونتحرّر بفكرنا وبُعد أفقنا من هذا القيد المكبل لتوافق أرواحنا ورؤانا؟!

أرد عليها:

- صعب يا زهرة.. يا من تحلمين ببعد مسافة الرؤيا، إلا إذا رحمنا ربنا وجعل قدرنا يتوافق مع إشارات أصحاب ألطاف معينة.

"زهرة" تهمس مرة أخرى في نفسي وهي تتذوق طعم سمك البوسفور الطيب:

- أيمكن أن ينسلخوا عن غلاف عقلهم الجمعي الصلب، وترك عقدة فتنة الأحاسيس اتجاه دخول المرأة إلى معابد النساك والزهاد؟!

أجيبها:

- أظن ذلك يا "زهرة"، فلغة عيونهم تختلف عما عهدناه في أصحاب العقول الصلبة.. إنّ روحي تحدثني أن من نجلس معهم اليوم -يا عزيزتي- قد انسلخوا تماما عن غلافهم المتكلس، كما تنسلخ الفراشات عن أجنحتها لتجدد استمرارية حياتها في العوالم السماوية، وارتقوا إلى عالم الروحانيات من كثرة آداب جلسات التأمل والخلوة مع الله.. عيونهم عزيزتي متفتحة بنور انفعال مَن يبحث عن طرق التقرب إلى الله، وليس التقرب إلى الأجساد الفانية...

كان الطباخ راقيا في آداب تحيته، راقيا في محياه، راقيا في خدمته التي كانت تحكي لي عن سر كرامات شهدها بنفسه وأخبرني للحظة وهو يناولني صحن السمك البوسفوري الشهي، وبصمت لغة أهل العرفان، قائلا:

- الحديث طويل يا مريم أمازيغ وعرب الأندلس، ولكن أتركيه لمرة أخرى. فأنت في حضرة مَن رافقوا صاحب المقام بالزمان والمكان، واليوم هو دورهم في الكلام، لذلك أترك لهم حديقة استنبات الأزهار الأندلسية. فهؤلاء -يا سيدتي الكريمة- وحتى أريح تماوج أسئلتك المحيرة، هم من قال لهم الأستاذ "كونوا أرضًا لتنبت فيكم الورود، فإنّ الورود منبتها التراب"...

أخبري بهمساتك الروحانية -يا سيدتي مريم- ضيفتك، بأن تلامذة الأستاذ ألجموا أنفسهم عن الرغبات الجسدية، وانجذبوا بأرواحهم

المشتاقة نحو سماء سمو معالي الكمالات الإنسانية. دفعتهم خلوتهم للبناء الروحي، فأفرغوا قوالب العزلة عن الافتتان بملذات الدنيا الفانية، وأعرضوا بتعبّدهم عن أمزجة الانكسارات الروحانية...

مريم:

- شكرا يا سيدي ويا سيد القوم بخدمتهم.. فقد اختصرت عليّ وعلى رفيقة رحلتي مسافة السؤال بجوابك الشافي، والذي نزل -يا سيدي الكريم- بردًا وسلامًا على محيط قلبنا، ونفحات روحنا. شكرًا يا سيدي شكرا.

كان يأخذ مني طبق السمك ليناولني بابتسامة لطيفة طبق الحلوى، وهو يوثق مع نفسي صلة تواصل أحسست أنها تمتد إلى زمن ما بعد الرؤيا.

أم سداد:

- دعينا نتناول الشاي في صالة الضيافة.

وقبل أن يتم العرض كنت أقف وأنا أردد:

- طبعا طبعا، نجلس هناك يا أميرة السداد.. وكيف لا أعشق الجلوس في محراب تعبد الأولياء والصالحين؟!

زياد:

- إذن أستاذتي مريم، فليكن كذلك، تفضّلي.

كنت أسرع في خطاي لأنتعش بأسرار مكان رؤيتي التي جعلها ربي في نهاية عام ٢٠١٠ حقا...

نفحات من حدائق هبات إلهية

كان زياد يرحب بي ويقدمني للجلوس في ركن الصالة، وكأنه يعلم سري في ما لم أقصصه له من رؤياي، ويختار لي المكان المقابل لجلسة فارس المقام.. فعلمت أن هذا الرجل من أصحاب الحال، ومن الذين يفهمون ما يحيط بقلب الإنسان.. والحال هبة إلهية ونفحات أنس في ربوع القلوب، يستنشق نفحاتها مَن أزيح عنهم ستار الحجاب، وانكشف لهم كنز أسرار القلوب والنفوس.

أنس:

- اسمحي لي أستاذة مريم أن أحدثك قليلا عن فكر الأستاذ.

- نعم، تفضل أستاذي بكل سرور نريد أن نسمع.

كنت قرأتُ كتاب الدكتور أنس أركنة عن فكر فتح الله كولن، ولكن كان المكان يوحي باجتماع أسرار الفكر ببركة سر المكان، لأسمع من جديد ما لم أسمعه، ولأقرأ في عيون من يحيطون بي اليوم كلاما لم أكن لأستوعبه من خلال تقليب صفحات الكتب.

الأستاذ أنس:

- تعلمون جيدًا أن تركيا شهدت من بداية القرن التاسع عشر تحولات عميقة؛ استتباع مطلق للغرب، استغلال اليسار لخيرات البلاد، استبعاد الدين معاداة الإسلام جهرا... بعد السبعينات حصل نوع من التقارب، أو

لنسمّه تعاطفا بين اليساريين الأحرار وبين رؤى وطرح الفكر الإسلامي، مما أدّى إلى انقلاب الثمانين الذي أضرّ بوجه عام بكلا الطرفين. بداية سنة ٢٠٠٠ بدأت تحركات سياسية تنحو نحو التغيير، علمًا بأن التحول لم يكن تحولا سياسيًا، وإنما تحولا اجتماعيا بالأساس. وكما تعلمين أستاذتي، فكل تحول يدير عجلة بوصلته محرك، هذا المحرك الموجه لبوصلة تغيير الحراك الاجتماعي والسياسي في تركيا يرجع لشخصية الكاتب "إسماعيل قرا" والذي ألّف كتاب "تركيا التي يحلم بها الشيخ أفندي". فكان لهذا الكتاب سحر عهد النهضة التركي، وأثر بعمق على وجدان الفكر النهضوي الداخلي. والكتاب هو عبارة عن فرضية رؤيا رآها الشيخ في منامه تحكي أن الرسول ﷺ جاءه في المنام وقال له: "تركيا تركناها لأتاتورك".. فالرؤية فرضية، لكن كان لها دلالات عميقة وقوية، نزلت بتفسيرات متغايرة على أمزجة متنوعة. فتركيا كما تعلمين كانت صوفية بامتياز إلى حدود العشرينيات من القرن، حيث تأسست الجمهورية، فمَنعت الطرُقَ الصوفية من الحراك الاجتماعي، وحوّلتها إلى جماعات، فظهرت أدبيات لهذه الحركة حملت شعار عدم الصدام مع السلطة.. منها رسائل النور لسعيد النورسي، هدفها روحي تربوي بعيدا عن الصراعات السياسية. وقد أنجبت هذه الرسائل -يا سيدتي- كيان المفكر المجدد محمد فتح الله كولن. تأثر بها ودرسها في المعاهد القرآنية التي كان يدرّس فيها.. والحال أن قيمة التلميذ نابعة من غنى ذاته، فتغير الأحوال والأطوار لا يزيد في هذا الغنى ولا ينقص منه.

فأثر شخصية الأستاذ النورسي لم تغير من شخصيته، بل بالعكس طوّرتها لتنتج التكامل بذاته، وهذه سنة الله في تاريخ المجددين الذين

نصبوا أنفسهم عبر التاريخ في خيام المعرفة، وطوروا خطابهم ليصل إلى قلوب مئات الملايين من البشر؛ عقولهم لا مسكن لها في بيت المشايخ، وقوة طموحهم لا مأوى لها في زوايا تضيق بحدود جدران الانتماء للطرق والجماعات... نشوتهم إنماء الفكر الإنساني.. زادهم النضال الفكري والروحي.. سلاحهم القلم.. عدوهم التكرار والاجترار.. مدادهم سيل التضحيات وهجرة الأوطان في سبيل دعوة العقول الفاعلة وحماية مضاربات الزمر الاحتكارية...

يضيف أنس قائلا:

- المعادلة لم تكن مكتملة عند التلميذ الذي أحسّ بأن الرسائل النورسية تحتاج إلى فقه موازنات لدمج جوهر تزكيتها الروحية بنسمات عطر المعرفة العلمية.. فالأستاذ بدأ يدرّس علوم الفيزياء والكيمياء مع القرآن الكريم، ومن هنا بدأت حسابات العد العكسي في منهج بناء الفكر التربوي العلمي لدى المفكر فتح الله. فتح الله الذي انتصر بفضل الله على محكمة التاريخ التي فصلت علوم الدين عن الدنيا، ورسخت منهج القطيعة التامة بين العلم والدين زمن التردي والتراجع الحضاري، زمن التعصب الفقهي والمذهبي، زمن استقال فيه العقل المسلم عن الإنتاج وسلم خلايا دماغه للشروحات والمختصرات، فعطل بذلك دورة الإنتاج العلمي والمعرفي لحضارتنا.. كانت البداية مع تأجير بيوت لإقامة الطلبة الذين يدرسون في المدارس الحكومية من الأناضول. ومن بيوت السكن بدأ التفكير في فتح مدارس خاصة داخل تركيا لتمتدّ إلى ربوع العالم...

مريم:

- أودّ فقط أن أستفسر عن أمر.

أنس:

- تفضلي أستاذة مريم.

مريم:

- كيف استطاعت هذه المدارس أن تنمو وتتطوّر بهذه السرعة لتمتد حول العالم بدون مواجهات داخلية؟

أنس:

- الظاهرة يا أستاذتي لها تفسير رمزي، لخّصه الأستاذ المفكر فتح الله في منهج بسيط جعله شعارا لاستمرارية وتطور العمل الخدماتي في البناء الحضاري: ١-لا تصطدموا. ٢-اهتمّوا بعملكم وأنتجوا. ٣-الإنجاز هو رهان التحدي، بالإنجاز تدفعوا عنكم الضرر، وتضمنوا الحماية والنجاح لمشروعكم العلمي والتربوي. ٤-التفوق يدفع معارض الأمس إلى مساند ومؤيد للمشروع. ٥-لا للسلبية، نعم للإيجابية في العمل. وهذه الرؤية أثّرت على كافة المكونات المجتمعية بكامل أطيافها وانتماءاتها السياسية والحركية والمذهبية. فكان طبيعي يا سيدتي أن يحدث هذا التغير خللا داخل التركيبة المجتمعية. فالسلطة تنبّهت إلى أن التحول مجتمعي، ومن الحماقة مواجهة مجتمع بكامله.. الدولة هنا لا تواجه اتجاهًا بعينه، أو حركة سياسية معينة، وإنما لو فكرت في الصراع فستصارع مجتمعا بأكمله. لذلك لا يمكن القول بأن السياسة هي التي أثّرت في الحراك الاجتماعي التركي، بل بالعكس، التحول كان اجتماعيا ولم يكن سياسيا.

مريم:

- نعم أستاذ أنس.

- هذه الملاحظة كان قد وجهها لنا الأستاذ شماس المتخصص في

العلوم السياسية في جامعة الفاتح، حين شبه لنا التحول التركي بإيطاليا بداية القرن العشرين حيث مواجهة النظام الفاشي والحركة اليسارية، فالفاشية سحقت كل التيارات اليسارية، باستثناء الحركة اليسارية المنفتحة كرامش بقيادة كرامشي ذوي الأصول الألبانية المسيحية. فكرامشي يا سيدتي.. ومن داخل سجنه وضع مقاربة معرفية مفادها عدم الصدام مع النظام، وفي المقابل حث على تكثيف الحضور في كل وحدات الحياة، فسمّوا بـ"اليساريين الجدد" ونجحوا في إيطاليا.. وأنتم تعلمون جيّدا مدى تأثر الفرنسيين بالتوجه الكرامشي، وهذا شبيه بما حصل في التحول التركي.. فتركيا تأثرت كثيرا بإيطاليا، لأن أغلب التشريعات والعقوبات هي أصلا من القانون الإيطالي، وأول حزب أسّسه أتاتورك كان على غرار الحزب الفاشي الإيطالي رجب باكان. فبالمقارنة بين رسائل النور ورسائل كرامشي لا نجد -كما ذكر الدكتور شماس- فرقًا في الدعوة إلى عدم التصادم مع النظام، وإنما التركيز كان حول بنائها الفلسفي في روح الإرادة والإنجاز والفاعلية. فكانت فلسفة كيفية تفعيل القرآن دون اصطدام مع النظام أهمّ بديل اجتمع الناس حوله كمنهج رائد في منظومة الإصلاح الجذري للمجتمع، إصلاح يبدأ من تربية البيت إلى المدرسة، إلى المجتمع، إلى الثكنة، فالدوائر السياسية، والمقاولات التجارية والاقتصادية والإعلامية...

إلى هنا كان يقف الأستاذ أنس، ليفسح المجال لرفيق عمره الأستاذ جمال، ويمنحه الكلمة التي تجمل روح هذا التفسير.

* * *

نعم، "جمال" هو فيلسوف الأرواح، يعرف سر انجذابها، ويتذوق

أسرار معانيها.. جمال، يحمل سر معاني المعنى في نواة ثمار الخدمة.. جمال، ابن مؤسس دور الخدمة.. هو دفء إشراقة شمس الصباح في سماء أهل المحبة.. جمال، هو نداء روح الفتح وشاعر توهج القلوب العاشقة في محبّة الله...

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر مساء. جمال الصغير تعب ونام فوق الكنبة، عائشة الجميلة الوديعة أيضا تتقلب وتشير لنا بإشارة حك العيون وهي علامة الأطفال التي تخبر الحاضرين بكل عفوية عن الرغبة في الخلود للفراش والنوم. كنت هناك أسمع قراءة "جمال" المبدعة لنصوص منبع العرفان والوجدان، وأنا أراقب في صمت نظرات السيدة أم سداد لفلذات أكبادها تهدؤهم في صمت بلغة صبر وحلم عهدوها وهم أجنة في بطنها، واستوعبوها جيدا قبل الفصام... نعم كانت تخاطبهم بلغة من نذروا أنفسهم وأبناءهم وأموالهم لخدمة الإنسان وقضاياه، وكانوا يتجاوبون معها في تناغم بديع وهم يعوضون أنانية الطفولة باللعب بعيدا عن أجواء البكاء وتكرار الطلبات، كما هو معهود عند من هم في أعمارهم من الأطفال.

مريم:

- الساعة متأخرة، والأطفال يحتاجون للنوم.

أم سداد:

- لا عليك سيدتي، هم سيرتاحون قليلا بالتمدد ثم نأخذهم للنوم في البيت، لا تقلقي.

الجلسة كان يحفها جو من العمق الفكري المفعم بروح الوصال والانجذاب نحو أفق سمو مراتب لغة الوجدان والعرفان الروحي.

فرسانها ثلاثة، ورابعهم السيد مصطفى لم يحضر معنا الجلسة لكنه ومن علو الطابق الخامس من مستشفى "سَما" يرسل لي رسالة عرفانية بلغة تركية قائلا:

- هؤلاء يا سيدتي مريم هم أبناء الخدمة، هم أهل المحبة.. شغلوا بالمحبوب وفي محبته.. بذلوا أرواحهم، وباعوا كلّ فاني، وبوصال عشقه عمروا...

الفصل التاسع:

إكسير وإرديم... توليب إسطنبول

إكسير أَبْلاَ.. عروسة نساء الخدمة

ليالي شتاء إسطنبول عاصفة.. استيقظت ذات صباح ممطر على زقزقة عصفور يحاول اقتحام غرفتي، ويصر على كسر نشوة حلمي، كان مصمما على إيقاظي.. بخفة دق منقاره الصغير على زجاج النافذة.. كنت أتأمل إصراره العجيب على تجاوز هذا الحائل الذي منعه من الدخول. حاولت النهوض، لكن دفء الفراش جعلني أتأخر قليلا مسترخية، أفكر في سر هذه المشاعر التي تفيض بحركات نفحات رحمانية تنفتح بها العقول وتنشرح بها الأرواح... كيف يمكن للمحبة أن تمتد من غرف نزل الطالبات بـ"باران" لتنفذ إلى قلوب من عمروا تلك الغرف من أهل المغرب؟!

برفق أسمع باب الغرفة يفتح وكخفة النعامة.. تدخل عليّ "فاطمة نور":

- صباح الخير والسرور أَبْلاَ مريم.

- صباح الخير غاليتي نور.. كم الساعة يا نور؟

نور:

- السابعة والربع مريم أَبْلاَ... اليوم عندنا دعوة للفطور في بيت سيدة نساء الخدمة.

مريم:

– ومن تكون "سيدة نساء الخدمة" يا نور؟

نور:

– لا أعرفها شخصيًّا مريم أَبْلاَ، لكن أسمع عنها كثيرا. واليوم سأحظى بلقائها على شرف دعوتك لهذه المائدة.

– ممتاز، "جُوكْ كُوزال"..

أرددها وأنا أبتسم.. وأستعدّ لتحضير نفسي لهذه الدعوة.

في بهو باران كانت سيدتان مبتسمتان تقفان عند مكتب الاستقبال. عرفت من تلك الابتسامة الدافئة أنهما المتولّيتان برفقتنا إلى بيت الـ"أَبْلاَ إكسير". ركبنا سيارة السيدة نوردة، وهي أكثر سيدات الخدمة حكمة ووقارا وعمقا وترتيبا للأفكار...

كنت أسأل فاطمة نور، أن تترجم لي نص الحوار الذي يدور بيني وبين نوردة أَبْلاَ.. نوردة:

– مريم أَبْلاَ، اليوم ستفطرين فطورًا بلديًّا، صحّيّ مائة بالمائة، طبيعي يعني... والأجمل أن الأيادي التي أعدّته، لسيّدة قلْبها معلّق بالله تعالى.. صلاحها وكرمها معروف بين نساء الخدمة، لها من الفيوضات ما سيسعدك سماعه... "إكسير أَبْلاَ" هي روح يقظة تجاه مغريات هوى النفس والمال، هي من تملك الفقراء عقود ورسومات لأراضي شاسعة من زرع العلم والمعرفة، ولا تملك لنفسها شيئا.. تسقي حدائق من أجود الثمار، ولا تشتهي نفسها قطف حباتها أثناء مواسم جنْي الثمار... أردتُ أن أعرّفك عليها مريم أَبْلاَ، حتى ترين أن النساء أنواع، كما هم الرجال أنواع. وهذه السيدة التي اقتربنا من بيتها قد تفنّنت في تجديد مسار حياتها الروحية والقلبية باستمرار، وجعلت رابطة المحبّة بأبعادها المختلفة دستورا

للحياة...

المسافة التي قطعناها طويلة، والبيوت متواضعة، لكنّك تحس أن روح المحبة تسري بين أهل هذه المناطق الشعبية في إسطنبول.. كل شارع يحكي قصصا متنوعة عن روح التعايش والتلاحم بين الجيران.. كل بيت تعلو سقف سطحه مدفئة تقليدية تربطه بفرن المطبخ الصغير، ورائحة الخبز التركي الطازج بنكهة الزعتر تعبق من الدخان الممتد نحو السماء.. البرد شديد، ومع ذلك يحافظ الناس في تركيا على تقاليد ترك الحذاء جنب باب البيوت.

انعرجت سيارة نوردة متوجّهة نحو باب حديدي. أمام مدخل الباب تقف إحدى الأبلهات المتوردة الوجنتين، تلوح بيديها المتجمدتين من قسوة البرد، لتستقبلنا بابتسامة المحبّة وهي تردد:

- مرحبا مرحبا، هُوشْ كَالْدينيز...

- مرحبا..

أرد على تلك السيدة ذات الوجه الملائكي، بخمار أرجواني، أقبّل وجنتيها، لأسمع دقات قلبها عن قرب.. تحيّيني بأنشودة قصيدة مولانا جلال الدين الرومي:

قطفتُ هذا الصباح، من البستان بعضَ الورود،
وخفت أن يكون رآني البستاني.
لكنني سمعته يقول لي في لطف:
"ما قيمة بعض الورود؟ أنا البستان كله أعطيك"

حين تحرّك الريح ضفائر شعرك،

يتمنّى لك القمر عمرًا مديدًا في القلوب..
فيا واهب المشورات! ستنسى نفسك ومشوراتك،
إذ تعرف نفسك ما ذاقه قلبي..

جاءني الحب، وكالدم يسري في عروقي وجلْدي،
فأفرغني وطفّحني بالحبيب،
وغلّ الحبيب في كل جزيئات جسمي،
"فلم يبق غير الاسم منّي، وكل ما تبقى ليس إلاّ"..

كلامنا العذب الذي تبادلناه،
أودعته القبّة الزرقاء في قلبها الخفيّ،
ويومًا ما ستسكبه كالمطر،
وينمو سرّنا في سعة العالم...

عندما يُمنى عصرٌ بسود الأيام،
ليس البطل من يبلـغ بُعد الصيت،
فإن تطلبِ اللؤلؤ، عليك بالغوص في عمق البحر،
فما على الشاطئ غير الزبد...

إن تكن تبحث عن مسكن الروح، فأنت روح،
وإن تكن تفتّش عن قطعة خبز، فأنت الخبز،
وإن تستطـع إدراك هذه الفكرة الدقيقة، فسوف تفهم:

"أن كل ما تبحث عنه، هو أنت"...

* * *

يا الله.. كم هو حاني صوت هذه السيدة في داخل أعماقي. همسها لطيف، وشعورها نازف بدمع جارف.. وجْهها كوكب مضيئ في صورته.. أنفاسها مصدر الحب وزكاة لدفء الحنان.. عيونها تسع بعطفها الكون كله... تضمّني وهي تمسك بيدي، لتوثق عهد ارتقاء وسمو ورفعة سيظل سرا غامضا يكتنز دفء حياتي...

الأَبْلاَ تأخذني عبر حديقة إلى فناء البيت، وإحساس يراودني بأنها تقودني إلى مدرسة قيم العطاء والبذل والإحسان... البيت مكون من حديقة صغيرة، أمرّ على أشجارها وأحيّيها.. الأعشاب الخضراء الزاهية التي تعج بالحيوية تليق أزهارها بروح السيدة إكسير. المدخل يوصل إلى فناء بيت متواضع تعلوه مدفئة انتعشت ذلك الصباح بمختلف ألوان أطباق إكسير أَبْلاَ الشهية... حتى رائحة مربى التين كانت تفوح عطرا من خارج سور الحديقة، تنذرنا بوجبات شهية ستزينها أطباق مائدة إكسير أَبْلاَ المتولية. كنت أمر بسرعة البرق في اتجاه الباب، فدفْء الداخل فعلاً كان يوحي بالانتعاش. وقد يعرف سر هرْولتي مَن ذاق برد صباح إسطنبول القارس في فصل الشتاء...

في لحظة وأنا أستعدّ لنزع حذائي، بيدَين شبه متجمّدتين.. كنت أسأل نفسي في صمت: "ترى يا مريم، أهي متولية من نوع متولية الطلاب التي استضافتني بقصرها على نهر البوسفور؟! هل مواصفات نساء الخدمة واحدة؟ وكيف تتولى إكسير أَبْلاَ بمنح الطلاب وبيتها يدل على عوزها وفقرها؟!".

أسئلة كانت تدور في ذهني، تركت الإجابة عنها.. بعدما نزعت حذائي وتوجّهت لغرفة صغيرة على اليمين، حيث وجدت مجموعة من السيدات يرحبّن بي:

- مرحبا مرحبا، هُوشْ كَالْدِنيز مريم أَبْلاَ..

وسط الضيفات الشابات بجلبابهن التركي الأنيق تتقدم الأَبْلاَ إكسير نحوي، وتضمّني بحضن محب حضن الأم لابنتها.. تضع لي مخدّة كبيرة في وسط الغرفة لتسند ظهري من البرد الذي قد يلامسني من رطوبة الجدار. وتساعدني في نزْع معطفي المبلّل بقطرات المطر. أمسك أناملها الناعميتين وأردد:

- شكرًا إكسير أَبْلاَ... بيتك دافئ، وقلبك أدفأ...

إكسير أَبْلاَ:

- أستغفر الله يا ابنتي مريم... البيت دافئ بأهل المحبّة الذين قدموا ضيوفًا عليّ من أرض المغرب الحبيب...

تركض الأَبْلاَ إكسير نحو المطبخ، وهي تقول:

- هذا يوم معطر بعطر الياسمين..

وتبتسم...

كنت أتابع ابتسامتها الجميلة التي تخفي تجاعيد وجهها المشرق. سبحان الله، عشت لسنوات بلندن، ولطالما التقيتُ نساءا كبيرات في السن، يضعن آخر أنواع الكريمات وأغلاها لإخفاء رسم التجاعيد على وجوههن، ولكن عندما تأملتُ وجه الأَبْلاَ إكسير وجدتُ جمالاً وبهاءا وإشراقًا لم أجده أبدا في نساء من عمرها بأوربا.

ترى ما السبب؟!

لماذا تشرق وجوه نساء مسنّات رغم عدم اهتمامهن بوضع المساحيق والدهنات الواقية؟ بينما تبهت وتذبل وجوه نساء كرّسن حياتهن وأموالهن للعناية بجمالهن ونظارة بشرتهن؟! كنت أردّ على سؤالي: "إنه الإيمان، اليقين، الثقة بالله والرضا.. فحين تنعكس هذه الصفات على أحوال النساء رغم بلوغهن ما يسمى في عرف المجتمع بسنّ اليأس، توجه سلوكهن، وتمنحهن بعدا روحانيا يرتقين من خلاله إلى ما وراء لغة عبادة الجسد والتخوف من ذبول جماله وشبابه. إن الصدر المتشبع بالزهد، والقلب الممتلئ بنور الإيمان والحمد، يفكر بالسعادة الأبدية، أما السعادة الدنيوية فتبعده عن التقيد بقداسة الجسد لتنطلق به نحو آفاق استنشاق عطر المحبة وتوزيعه في كل مكان.

إن أمثال إكسير أَبْلاَ يعيشون بحكمة:

اَلنَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ السَّلاَمَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

لاَ دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا ... إِلاَّ الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ بَانِيهَا

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا ... وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

كَمْ مِنْ مَدَائِنَ فِي الْآفَاقِ قَدْ بُنِيَتْ ... أَمْسَتْ خَرَابًا وَدَانَ الْمَوْتُ دَانِيهَا

لِكُلِّ نَفْسٍ -وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ- ... مِنَ الْمَنِيَّةِ آمَالٌ تُقَوِّيهَا

فَالْمَرْءُ يَبْسُطُهَا، وَالدَّهْرُ يَقْبِضُهَا وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا، وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا

نساء الخدمة في تركيا لا يجلسن كالضيفات، وإنما هن صاحبات البيت كالنساء المغربيات..

على صغر المطبخ تتوجّه أغلب الضيفات للمشاركة في تحضير المائدة.. بينما بقيت السيدة الحكيمة نوردة بجانبي، تشرح لي طقوس الفطور الشتوي الجميل في قرى وبيوت البوادي التركية..

كنت أستمع بشغف لألوان المأكولات الشهية التي تسردها عليّ نوردة هانم، بينما تاهت عيوني بين جمالية غرفة الصالون الصغير لبيت السيدة إكسير.. الستائر متناغمة مع ألوان الكنبة الوردية، والأطباق المعلقة زهرية بورود التوليب العثمانية.. في الركن الأيسر من الغرفة طاولة بسيطة لكنها مغلفة بمفرش مطرز تتماهى ألوانه مع ثوب الكنَبة... فوق المفرش وُضعت زهرية عثمانية قديمة زرقاء اللون، وبجانبها نسخة من المصحف الكريم مغلف بثوب أخضر مطرز بخيوط ذهبية.. ألوان الجدران مائلة إلى اللون الوردي الفاتح، بينما دهنت جدران المدخل بدهان أبيض علقت في كافة زواياه نباتات بلاستيكية خضراء بسيطة الشكل، لكنها أضافت عليه جمالا في غرفة الصالون..

يسخن الخبز، ويغلى ماء الشاي، وتسْلق البطاطا الحلوة فوق نار المدفئة التقليدية الموضوعة في طرف الغرفة. المدفئة في هذا البيت وغيره من بيوت تركيا البسيطة، لم تصمم بالديكور للتدفئة فقط، وإنما للطبخ وشيّ البطاطس والكستناء، وتسخين الرغيف بروائح الزعتر والجبن البلدي الشهي. كنت معجبة جدا بهذا النوع من التدفئة الذي تمنّيت أن

يعم في بلدي.. لم أره في المغرب. وسألت عن منطقة صنعه فقالوا لي تركي محض.. تمنيت ساعتها لو صدر لنا المستثمرون الأتراك الآلاف من هذه الأفران التقليدية، لتدفئة بيوت القرى المغربية الباردة الطقس في فصل الشتاء...

- مرحبا مرحبا مريم أَبْلاَ، "هُوشْ كالدينيز"..

تردّد الأَبْلاَ إكسير، وهي تناولني فوطة مبلّلة بماء الورد..

- "هُوش بُلْدُوك" إكسير أَبْلاَ، الله يجزيك بالخير..

إكسير أَبْلاَ:

- مريم، أردتُ أن أحضر لك كل شيء طازج وساخن، لذلك ألتمس العفو منك إن تأخرنا عنك قليلا في الفطور.

أمسك يديها الناعمتين مرة أخرى، وأقول:

- لا عليك سيدتي، بيتك واحة لراحة النفوس.

لا أدري لم كنت أشتاق للمس يديها الناعمتين، وكأن حدسي أخبرني بأسرارهما.

فورا بدأت الصحون توزع على مائدة متوسطة دائرية على الأرض؛ رغيف تركي بالجبن، وآخر بالزعتر، وآخر بالبيض، ومحشي باذنجال بالجوز، وخمسة أنواع جبن بنكهات وبهارات مختلفة، وخمسة أنواع من المربى التقليدي، كل شيء من صنع يديها.. زيتون أسود بحبات كبيرة الحجم وبنكهة الثوم والبهارات التركية، بيض مقلي وآخر مسلوق... المائدة امتلأت، والبطاطس الحلوة مازالت تشوى أمامنا على نار المدفئة الهادئة... يؤنسها إبريق شاي ضخم من طابقين... لون وجنتي توردت وتحول البرد إلى حرارة من شدة البخار النابع من فواهة إبريق الشاي...

أمسك الكاميرا لتسجيل ذاكرة موائد أهل الله وأنا أردد:

- ما شاء الله، يا إكسير أَبْلاَ.. هذا كثير، "شوك شوك كوزال". أتعبتِ نفسك بتحضير هذه المائدة المتنوعة.

إكسير أَبْلاَ:

- تفضلي مرحبا، اليوم عندي فرحة العيد، أهلا بك..

نوردة أَبْلاَ:

- تعرفين مريم، أن إكسير أَبْلاَ هي سيدة نساء الخدمة، فقد أفنت وقتها وكل تعبها في خدمة أحباب الله من طلاب العلم والمعرفة. هي أقدم نساء الخدمة وأوقرهن وأفقرهن، وأكثرهن إيمانا بأن الفناء في حب الله يكون من خلال الفناء في حب خدمة الإنسان.

كنت أستمتع بنكهات الجبن الطازج المتعدد التوابل، بينما أستمع في هدوء إلى كلام السيدة نوردة وهي تخبرني عن حكاية سيدة نساء الخدمة. أنظر إلى الأَبْلاَ إكسير ووجنتيها تحمر في حياء شديد، وهي تنزل عينيها للأرض وتردد:

- "يُوكْ يُوكْ"، أستغفر الله.. اتركي مريم أَبْلاَ تتناول فطورها.

أكيد هي صفة أهل الحياء ممن لم يتعودْن على الإطراء والمجاملة.. الحياء الفطري الذي ينشأ وينمو بوابل من مطر الإيمان والمعرفة. تبتسم نوردة أَبْلاَ في هدوء وثبات تام لتكمل حديثها، قائلة:

- مريم أَبْلاَ، السيدة إكسير فقيرة، تسعى إلى قوت يومها ببيع بعض الخبز التركي الطازج في الأسواق، مع تطريز مناديل غطاء الرأس للسيدات، وتخرج مباشرة بعد صلاة الفجر، لتجلس في فضاءات أسواق إسطنبول العارية، بين قساوة برد وشدة حر، تتسلل لجسمها العلل الأدواء،

تتنزل عليها صواعق الماء والثلج والبرد، يجمد البرد أضلاعها، ويشوي لهيب الحر المتّقد بياض وجهها.. أحيانا تغفو بين النوم واليقظة، بين الجهد والتعب، وتتحمل مخالب البرد وجمر الحر، لتبيع ما نسجته أيديها، وتعود مساء إلى بيتها منهكة برياضتها الروحية. تضع جسدها المنهك فوق سريرها، لترسم معالم مسلك يوم جديد يوقد لهيب روحها المتوهجة نداء الرحمن، فيرتفع رصيدها الإيماني مع مقامات الآذان والتهليل، ويزداد شوقها نحو الخروج لسياحة العاشقين، دون أن تسقط من يدها شمعة النور التي تولت بإضاءتها بعد رحيلها في سماء العلم والمعرفة.. فإكسير هي أَبْلاَ متولية.

أسأل نوردة هانم:

- هل هي متولية بالتعليم، أي تدريس البنات؟

نوردة:

- لا يا مريم أَبْلاَ، هي متولية متصرفة أي كل ما تجمعه من أموال على قلة المورد، تتكفل بالتولي به، والإنفاق على خمسة منح لطلاب أطباء.

هنا تدخّلتْ في حياء شديد السيدةُ إكسير، وبصوت خافت همست في أذن السيدة نوردة، ظننته همسا خفيفا، فإذا به يطول. كنت فقط أنتبه لملامح وجه نوردة تتعجب وهي تردد:

- سبحان الله، سبحان الله..

تتوقف إكسير هانم عن الحديث، ويعقبها صمت السيدة نوردة.. كليهما تمسحان الدموع من أعينهما. توقفت عن شرب الشاي ووضعت كأسي على الطاولة. صمت عمّ الغرفة الدافئة بنور المحبة الرحمانية، أردتُ أن أقطع هذا الصمت بالسؤال، لكن السيدة نوردة فهمت إشارة ملامح

وجهي لتبادر بالكلام بعد تنهيدة حمد وشكر لله ختمت بها صمتها.

– مريم هانم، السيدة إكسير كانت تحكي لي قبل قليل عن حكايتها مع أهل الخدمة، فقلبها المتعلق بمجالس الصحبة والهمة، جعل زوجها يستاء من فرط انجذابها نحو فضاءات تلك المجالس الربّانية، نصحها مرارا بالتراجع عن مقامات الإخلاص في خدمة أبناء بلدها، والمساهمة في تنويرهم بالعلوم التي لم تحْظ بها.. كم مرة أعاب عليها كثرة تعلّقها بإنفاق ما تجمعه من مال لتوفير منح الطلاب، كم مرة نصحها بأداء العمرة مرات في السنة تمتّعا عوض تضييع أموالها بالإنفاق على طلابٍ لن يحفظوا لها أبدا هذا الجميل بعد تخرّجهم... نصحها كما نصح أصدقاء قبله هُوجَا أَفَنْدِي المفكّر فتح الله حين قرر تأجير بيوت للطلاب، وصرف منح للدراسة لم يكن يملكها. وكما كانت عزيمة الأستاذ فتح الله قوية في إرادة بناء وعمارة أرض الأناضول بالعلم بالمعرفة بقيم التربية والعطاء، أيضا كانت عزيمة السيدة إكسير محصنة باليقين في مراتب تربية النفس، والإيمان بأن شمس النور ستضيء سماء قرى وبلدان الأناضول بالمدارس وبيوت طلاب العلم والمعرفة. كثيرا ما كانت إكسير تصبر على نقمة زوجها وانتقاداته اللاذعة، وتحتسب أمرها لخالقها، لم تضجر يوما من شدة لومه، ولم تفتن بمفاتن رغباتها الذاتية حتى ولو بإغراء عمرة.

آه يا إكسير كم من أموال تنفق اليوم في فنادق فاخرة تصل لدرجة ثمانية نجوم لأداء العمرة، مرة ومرتين وثلاث في السنة، جميل أن نتقرب لله بأداء مناسك العمرة مرة ومرتين في العمر، ونحن نوازن بفقه أولويات بين رغابتنا الذاتية وبين حق التصرف في أموالنا عدلا لتنوير أبناء المحتاجين بالعلم والمعرفة.

كم من يتيمٍ مشرد لم نبحث عن إيوائه وتعليمه واحتضانه!.. كم من أرملة تجوبُ الشوارع ضياعا وأطفالها من دون معيل يرحم فلذات أكبادها!.. كم من مريض لم يجد من يدفع له فاتورة دوائه، أو يرحم ضعف مرضه من داء الفقر الكلوي الذي يقضي على حياته بآلام انفجار جسمه!.. كم من أطفال شوارع تائهين لا تغطية صحّية لهم، ولا تعليم ولا مأوى ولا حضن دافئ يحتضنهم!.. كم وكم وكم!..

ونحن ندفع أموالا طائلة للتمتع، ويا لَيته من أجل عمرة تخشع فيها قلوبنا طلبًا لرضاء الله... بل إنه تمتع من نوع آخر في سياحة عوالم التسوق في ديار لندن وباريس ودبي ونيويورك وسنغافورة... كم من دمعة خشوع نزلت لم تحرك فينا شوق الوصال للذة المحبة في الله، ولم تحفزنا على إعطاء حق الله للفقراء والمساكين..

فشتّان بين مظاهر عبادتنا الفردية، ومتطلبات ثلاثية العلاقة مع الله والنفس والمجتمع التي خصنا بها الإسلام.. نعم نبكي ونخشع ونتعبد ونصوم ونقوم ونعتمر، ولكن هذا يدخل في سياق العلاقة مع الله، وتبقى العلاقة مع النفس بترويضها وتوجيهها، نحو العلاقة مع المجتمع مفتقرة إلى هرمية ثلاثية شمولية الموازنة في المبدأ المقاصدي التشريعي: حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ المال، حفظ العرض.

فنحن نحفظ النفس فقط حين نتوجه بالعلاقة الذاتية مع الله دون باقي العلاقات. فأين حق حفظ الدين الذي يضيع بتجاهلنا ترشيد وتوجيه ثلة من أبناء مجتمعنا، ننصحهم عوض الحكم عليهم بالضياع والانحراف، ونسلط عليهم أحكام الجلد بعد الضياع؟! وأين حق النفس التي أمرنا الله بإحيائها حين نترك الفقراء يتضورون جوعا ويموتون بأمراض مستعصية،

ونحن نظن أن دعاءنا لهم في المساجد قد يرفع ابتلاءهم؟!.

كم من عقل ضيعناه بالجهل المؤدي للفرفقة والتعصب حينما لم نفتح له آفاقا للتعلم؟ وكم من مال صرفناه في غير موضعه واستثنينا منه محتاجا ومحروما؟ وكم من عرض أهملناه إلى أن بيع في سوق نخاسة الاتجار ببناتنا، حين عرضناهن وأهليهن للفقر والفاقة والحاجة، وحملناهن مصاريف عوائل بأكملها، بتعسيرنا دفع حق النفقة والحضانة حق التعليم والرعاية، حق الوعظ والإرشاد والتوجيه؟!.

آه ثم آه من دموع تسكب حسرة على ذنوب ذاتية اقترفت، ولم تحرك فينا حق ذنوب جماعية اقترفناها نسأل عنها وعن توابعها في أمّتنا الإسلامية؟

إكسير هانم استشعرت هذه الروابط الأخوية في علاقتها بالله، ولم تبخس حق المجتمع وهي تؤدي حق ربها وحق نفسها بالصيام والقيام والتعبد.

نوردة هانم:

– عزيزتي مريم، توفّي زوج إكسير مخلفا في نفس هذه المرأة المطمئن قلبها بذكر الله آلام حرقة فراق لعشرة دامت أكثر من ربع قرن، وظل وفاؤها يصاحب روحها النقية حتى بعد فراقه لسنوات عديدة.. إكسير تذهب لزيارة قبر زوجها، وترسل له الرحمات بتلاوة القرآن يوميا بعد صلاة الفجر، وذات ليلة رأت في منامها، أن أحد الجنود جاء ليخبرها عن مكان زوجها ويأمرها بزيارته، تبعت إكسير بخطوات مهرولة الجندي مقتفية آثار الحبيب الذي صانت حق عشرته، وأكرمته في حياته وبعد مماته، وصل الجندي إلى باحة واسعة محاطة بسياج حديدي يمتد نحو

أربعة أمتار في علوه، وأمرها أن تنتظره، غاب عنها قليلا ليعود بالإذن في يده، والإذن عبارة عن مرسوم خط بلغة تقول عنها إكسير، إنها غريبة لا هي تركية ولا عربية ولا أجنبية. استغربت إكسير من هذه الرموز، ولكن لهفتها لرؤية زوجها أعجزتها عن السؤال والتحري عن أمر الرخصة ولم خطت بهذه الرسوم الغير المقروءة.

فالمكان لا يطمئن، والظرف لا يسمح بالاستفسار! المقام جلل، يسمح بالدعاء والتضرع، الانتظار منح السيدة إكسير فرصة إخراج ينابيع وارداتها الربانية فبدأت أنفاسها تتوحد مع نبضات القلب برنة الدعاء والابتهال: "إلهي، لقد تنفست أول ما تنفست بك، ونطقت بك وسمعت بك وأبصرت بك ومشيت بك واهتديت بك، وضللت عندما خرجت عن أمرك.. سألتك يا رب بعبوديتي أن ترفع عني غضبك.. فها أنا ذا وقد خلعت عن نفسي كل الدعاوي، وتبرأت من كل حوْل وطوْل، ولبست الذل في رحاب قدرتك.. إنك لن تضيعني وأنا عبدتك، وهذا زوجي ورفيق عشرتي.. ربي وخالقي وسيدي ومولاي، ارحم عبدًا ذلّ لربوبيتك، وخشع لجلالك"..

دقات قلبها تتسارع منتظرة إشارة من الجندي الذي أمرها أن تتبع خطاه دون تعقب المكان وإطالة النظر في موقعه، ومن دون تردد. اتبعت إكسير أوامر الجندي، وسارت في خطى ثابتة وراءه، إلى أن وصلا إلى باب حديدي أسود مغلق بخمسة سلاسل، أعطى أحد الجنود من الداخل أمر فتحهما للزائرة.. دقات نبض إكسير تزداد سرعتها.. فتح الباب وعبرت ممرًّا ضيقًا ومظلمًا، بدأ الجندي ينحدر في النزول نحو قبو عميق، آمرا السيدة إكسير بالنزول معه. كل درج بالنسبة لإكسير هانم كان يسوقها

نحو قدر مبهم غامضٍ لا تدري مآله ولا مرساه. وبقوة عزم وصبر تتخطى عثرات النزول، لأن الظلام كان يعم أرجاء الممر ويزداد كلما نزلت نحو الأسفل.

وصلت إكسير إلى زنزانة ضيقة مظلمة موحشة، لتجد زوجها مكبّلا من أعلى معصميه ورجليه، بسلاسل حديدية صدئة تكاد تشل حركته، وتقطع أنفاسه، وبمجرد ما رآها، علا صراخه مدويا: "زوجتي أنا هنا منذ تركتك.. حبيبتي، أنا هنا مكبل منذ سنوات.. يا رفيقة عمري، أحتاج إلى مساعدتك، رجاء ارحميني من هذا العذاب، اطلبي منهم أن يخرجوني من هذه الزنزانة المظلمة. فقد نفد صبري ولم أعد أتحمل..".

تقول إكسير هانم: "صرخت بأعلى صوتي إلى أن أحسستُ بذبحة في حبال صوتي، "أخرِجوا زوجي من هذه الزنزانة، لم يعذب ويسجن في هذا القبو المظلم!؟ فكّوا سلاسل زوجي الآن، فكوها الآن وحالا.. يا الله يا الله برحماتك، أجرنا من عظيم بلائك، وسخّر لنا الطيبين من عبادك. يا الله، اصرف عنا شتات العقل والأمر والتفكير، وأجبر كسرنا، وآمن خوفنا، وأمطرنا بجود لا حدّ له، وفرج لا مدّ له، وخير لا عدّ له.. إلهي وَحدك تَعلم ما فِي القُلوب، وَحدك مَن تعرفُ النيّة الحَسنة، وَحدك مَن تَعرف النيّة السيئة.. فمُنَّ عليّ برحمتك، أبعد عن زوجي كُل شر وسُوء، يا نور السماوات والأرض، لا تدعْ لي في هذه اللحظة همًّا إلا فرّجته.. يا رب فرّج عنه كل ضيق، ولا تحمله ما لايطيق".

كان زوجي -وأنا أصرخ بالدعاء متضرعة بأعلى صوتي- يبكي ويردّد في خشوع: "اللهم لك داعيًا، ولقسوة قلبي شاكيًا، ومن ذنبي خاشيًا، ولنفسي ظالمًا، وبجرمي عالمًا.. أدعوك دعاءَ من جُمعت عيوبه، وكثُرت

ذنوبه، وانقطعت آماله، وبقيت آثامه، وسالت دمعته.. أدعوك دعاء من لا يجد لنفسه غافرًا غيرك، ولا لمأموله من الخيرات معطيًا سواك، ولا لكسره جابرًا إلا أنت يا رب.. اشتدت فاقتي، وضعفت حركتي، وقلّت حيلتي.. ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾"...

وفجأة سمع ضجيج قوي ينزل من الأعلى، وأصوات تنطق بلفظ الجلالة "الله، الله، الله".. بدأ الصوت يقترب منا، وإذا بأحبابي وأبنائي من طلاب العلم الذين سخّرت مالي لدعمهم بمنح الدراسة، يدخلون بلباس أبيض كالذي يدرسون به في كليات الطب، ويهجمون على الجندي يطالبونه بفكّ أسر زوجي. لم يمتثل لرغبتهم، وأوضح لهم أن وظيفته هي حراسة السجناء لا إطلاق سراحهم، فتوجّهوا نحو زنزانة زوجي وبخفة بالغة كسروا الباب، وفكوا أغلال سلاسله ورفعوه فوق أكتافهم عاليا وهم يكبّرون "الله أكبر، الله أكبر" إلى أن أوصلوه إلى باحة الساحة المضيئة.

كنت أردد في فرحة عارمة وغبطة وسرور تكبيرة النصر "الله أكبر، الله أكبر"، حين سمعت نداء الرحمن يكبر لصلاة الفجر، فتوقفت رؤيتي، وفتحت عيني لأجد العرق يتصبب من أعلى جبيني إلى مخمص قدمي. اللهم يا أرحم الراحمين ارحمنا، وإلى غيرك لا تكلنا، وعن بابك لا تطردنا، ومن نعمائك لا تحرمنا، ومن شرور أنفسنا ومن شرور خلقك سلِّمْنا.. يا فرَجنا إذا انقطعت الأسباب، ويا رجاءنا إذا غُلّقت الأبواب.. اللهم أجعل لنا من كل همّ وغمّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ومن كل عسر يسرًا، وإلى كل خير سبيلا..

يا الله.. هذه صفات مَن عزموا على وقف أنفسهم لخدمة من يعتقدون أن لهم حقًّا عليهم.. إكسير أَبْلاَ صانت قلبها الذي ملئ بحبّ الله عن

كل ما سواه، اتخذت خدمة الإنسان والمعرفة طريقا للبقاء في السكينة والاطمئنان، دون التعرض لإغراء جمع المال وضيق القلب الناجم من الإفراط أو التفريط، وهو اتخاذ رضا الحق سبحانه ومحبّته أساسًا، والعيش بحياة تُنسج نسجًا بديعًا على هذين الأساسين.

نعم فهمتُ الآن سر سعادة وابتسامة ثغر "إكسير أَبْلاَ".. لقد اتخذت لها حبيبا دائمًا لا يفارقها أبدا، إنه حبيب الرحمن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. وبقدر حبّها لله ولرسوله أحبّت المعرفة التي توصل عباد الرحمن إلى سر التفكر والتدبر والتمعن في ملكوت الله وصنعه، لعمارة الإنسان في الأرض.. فهمتُ الآن سر اختلاف شحنة ملامح وجه نساء الرضى والحمد والشكر لربّ الخلق والعباد، مع ملامح وجوه نساء أذبلتهن كثرة الوعود، وأساءهن كذب وغدر الحبيب، وهنا يكمن سر الفرق بين سعادة الحبيب والحبيب، فكما قال مولانا جلال الدين الرومي: "إن قلبًا خاليًا من الحبيب، ومن طلب الحبيب، لا نجاة له من الضيق والقلق.. وإن رأسًا خاليا من حب الحبيب، لا تبحث فيه عن المعنى واللب، لأن ذلك الرأس ليس إلاّ جلدًا".

الحبيب الذي ملئت به "إكْسير أَبْلاَ" قلبها وفؤادها وعقلها ولبّها، هو الرحمن ﷻ، والوصال الذي سعت إليه هو وصال بقاء ضمن الفناء، حيث تشرق الآلام بمتعة اللذة، وينال مراد الوصال بلطائف كؤوس الرضى والارتشاف من عسل جنة الكوثر.

إن منشأ الشوق -كما ذكر الأستاذ محمد فتح الله- هو "المحبة"، ونتيجة المحبة "الشوق"، ودواء القلب المحترق بالشوق "الوصال"، والشوق جناح من نور في هذا الطريق. والعاشق حين بلوغه الوصال يسكن

"الشوق"، بينما يزداد "الاشتياق"، ووجدان المشتاق يهتزّ بعد كل حظوة طلبًا للمزيد.. أما الحبيب الذي ملأت به نساء البلدان لبّهن وفؤادهن، هو نابع من حب متقلب الأطوار، معرض للافتراق، غير مضمون تضحياته، فيه آلام تعقب رضى المحبوب وعدم غدره وخيانته.

إدريم هانم عروسة حدائق زهور اليتامى

نساء الأناضول ذكرنني بنساء عظيمات في تاريخنا العربي والإسلامي.. ذكرنني بورَع أخت "بشْر الحافي" حين قدمت إلى الإمام أحمد بن حنبل وقالت:

- إنا نغزل على سطوحنا، فتمر بنا مشاعل الظاهرية (عمال الدولة)، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟"..

فقال الإمام أحمد:

- مَن أنتِ عافاك الله تعالى؟

فقالت:

- أخت بشر الحافي..

فبكى أحمد، وقال:

- مِن بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها.

تلك هي صفة النساء العظيمات، اللواتي يقدمن كل شيء في سبيل الله، لكسب رضا الله، قبل رضا البشر، يحمدن الله دون انتظار أي حمد أو شكر من البشر.

ذكرتني -يا إكسير أَبْلاَ- بالسيدة إرديم التركية، التي حكت لي حكايتها ذات يوم وأنا في خط طريق رحلتي إلى العاصمة الماليزية كوالالامبور.. وصلتني -يا إكسير- بمن اشتاقت لها روحي الآن حين تذكرتُها، وقد

بدأت قصة محبتي لهذه السيدة بسؤال عن هويتي:

- أتركية أنت؟

أجبتها:

- سيدتي أنا مغربية الأصل، أمازيغية العرق، عربية النسب، تركية الهوى والروح...

تبسمت إرديم وهي تمسك برفق يدي وتقول:

- أعرف أعرف.. روحي أخبرتني بأنني سألقاك في هذه الرحلة وقد رأيتك ليلة البارحة في منامي، لذلك تبسمتُ فورًا عند رؤيتك وأنت تسلّمين البطاقة لمضيفة الطائرة...

سبحان من يجمع الأرواح في سماواته، لتتعانق القلوب الطيبة في ساعات معدودة بعذوبة، وسعادة وبهجة لا مثيل لها...

- ما اسمك عزيزتي؟

- مريم، وأنت سيدتي؟

- إرديم، ومعناه بالتركية "حسنة"..

- تشرفتُ بك سيدة إرديم...

- عزيزتي مريم، أنا سيدة أعمال، تجولتُ حول العالم، وسافرت كثيرا، تعرفتُ على أناس من مختلف المذاهب والجنسيات والأديان.. كنت أسمع ترانيم أرواحهم حين تلامس مقاعد الكرسي الذي بجانبي، لتشاركني رحلات السفر في الإنسان، تنشد مقامات تحكي كهوف عوالم تمتزج فيها نشوة الرغبة في الحياة بألم الابتلاءات... أحس يا سيدتي مريم بأن أرواح من سافروا بجانبي، كانت تبحث دوما عن من يحتضنها بحنان وشفقة، عمن يربت على أكتافها بكل محبة، عمن يستجيشها بأشواق

المحبة في الحياة بعيدا عن لغة المصلحة والمنفعة... سمعتُ الكثير من دروس الحياة يا عزيزتي. . إن الذي لم يتذوق معاني سمو الروح في الإحساس بآلام الآخرين، إنسان متجرد من المشاعر، خلقنا الله لمواساة بعضنا البعض في هذه الدورة الدنيوية حيث نشترك في الهموم والأفراح، النجاح والفشل، العطاء والتقصي، المحبة والكراهية.. نشترك فيها بلغات مختلفة، وبألوان متشابكة تحتكم لأعراف الشعوب والأمم، ولكن في النهاية يكون مصيرنا واحد: العودة إلى التراب...

كنت أنظر إلى جمال الخالق الذي وهبه لهذه السيدة الخمسينية، وأستشعر أسرار الحكمة تنطق على لسانها:

نغمات بلبل من بعيد آتية،
خزينةً واهنةً واهية...
والزَّهر المختال،
تَهُزُّهُ الأحزان..
وريح الشمال،
ثلجية الهبَّات،
صقيعة اللمسات،
وبالزمْهرير تضرب وجهَ الغريب،
وتعصر الدمع،
وأصوات النحيب...
يا بلبلي!..
هاك قلبي لك وَكْرًا،
وفؤادي لك مأوى..

فرنين صراخك،
في صدري صداه،
وضميري لحزنك سكن...
أنا وأنت ثنائي أحزان،
وثنائي آهات وشهقات...
أعطني باقات آلامك،
وخذ مني حرائق أشجاني،
وانتظر معي شروق الشمس،
وطلوع الفجر...!
على فَنَن الشجر،
الذي لم يلمسه بشَر،
تقضي أيامك،
وتسكب دمعك،
وترسل ألحانك...
ولكن:
أين العين التي تبصر،
والقلب الذي يفهم،
والأذن التي تنصت..؟!

أقطع وصلة هذه الحِكم الربّانية لأتواصل مع سيدة الأعمال الربانية..

- صحيح سيدتي إرديم، حمى الله نفوسنا من علل الخبث والمكر والنفاق والجحود، وسخّرنا في خدمة الناس بالمحبة.. وقد أسرتْني حكمة ذهبية قالها حكيم زمانكم الأستاذ محمد فتح الله كولن: "إن سر

الفناء في حب الله، هو الفناء في حب خدمة عباد الله"...

فمن أنا..؟

بك يا ربُّ صرتُ "أنا"...

مولاي أنت،

سواك مولًى لا أبغي!

تولّيتَني، ربَّيتَني،

رعَيتني، أحيَيتني...

أطعمتَني حلاوة ولايتك،

وسقيتني بَرْدَ معرفتك...

فما أعظمَ ما أكرمتَني،

وما أجلَّ ما جَلَّلتَني من نعمك،

وأسبغت عليَّ مِن كرمك!..

دمعت عيني وأنا أردّد لها في صمت هاته الأبيات التي تسحر عوالم قلوب العاشقين وتأسرهم نحو سموّ معنى المعاني الذي يتشرّبه المتحرقون إلى لذة الوصال..

إرديم:

- مريم، سأحكي لك قصة لطف إلهيّ، تركتْ سر أمانتها في حزمة أنفاسي وأرواحي وعاهدتُ نفسي أن لا أحكيها، ولكنك حرّكت داخلي نشوة سعادة الوصال... أنا -يا مريم تركية- من مدينة بورصا، تشرّبت حب الفقراء واليتامى منذ سن مبكرة، وتعلّقت بحب كل يتيم ويتيمة، أحسن إليهم وأحتضنهم في بيتي، أعيادا ومواسم.. بدأت بالتولّي بأطفال مدينتي، ثم انتقلت إلى يتامى المناطق الأخرى، وبعد مدة تكفّلت بيتيمين

من إفريقيا، بدأت أنفق على تعليمهما ورعايتهما وهما طفلان في سن الثانية إلى ١٢ سنة. وخلال هذه المدة كنت أعيش لذة القرب إلى الله بالقرب من عباده والتفاني في خدمتهم.. لقد تكفّلت بيتامى من حول العالم، من تركيا من أوروبا الشرقية، من دول آسيا ومن إفريقيا، لكن اسمعي -يا مريم- قصتي التي لم أحْك تفاصيلها إلا لمن أحسستُ بنشوة التواصل الروحاني، يشدّني بشوق نحوهم. وقد أُخبرت بانتعاشة هذه النشوة ليلة أمس في منامي، وتيقّنت أنها حاصلة فور رؤيتك وأنت تضعين حقيبتك الصغيرة بجانبي، وتستعدّين للتحليق في سماء ستتعطر بنسيم لقاءنا الرباني مسافة سفرنا هذه الليلة...

مريم:

- نعم سيدتي، كم من الأرواح باعدتها المسافات الجغرافية في الملكوت وقَدّر لها المولى ﷻ أن تجتمع في سماء بلدان وجبال وشلالات وهضاب وبحار وجداول وأنهار لا تراها إلا عبر نوافذ الطائرة...

اريدم:

- "إيويت"، -عفوًا- صحيح..

ومعنى "إيويت" بالتركي "صحيح"..

تتابع إريدم:

- كنت ذات مساء في غرفتي، أصلّي المغرب، وبعد صلاتي أحسستُ بألم شديد في رأسي، طلبتُ حبّة مسكّن لآلامي، وكنت يومها مدعوة لحضور مأدبة عشاء لسيدات أعمال ستُقام في فندق جواهر بمدينة إسطنبول.. شربتُ حبّة المسكن وفكرتُ في الاعتذار، أخذت الهاتف وبدأت في الاتصال، وأنا أركب الأرقام أحسستُ بأن حرارة مفرطة

مفاجئة تصاحب دماغي، ودوران تحول إلى رؤية نقطة سوداء، تمعنتُ فيها فبدأتْ في الاتّساع... إلى هنا توقّف سجل ذاكرتي مريم، لأخبر بأنني وقعتُ أرضًا بعدها، وثم تحويلي إلى العناية المركّزة في مستشفى "سَمَا" لأمكث فيها ستة أشهر، في حالة غيبوبة تامة. تفاعل الأطباء الأخصائيون مع زوجي وانقطع الرجاء من باب التخصصات الدماغية. توافد الأطباء وتعددت الاستشارات، وأنا كما هي في حالة غيبوبة تامة، شهر ثم شهران ثم ثلاثة أشهر، أخبر الأطباء زوجي بأن حالتي مستعصية، وميئوس منها وأن في بقائي عذاب لي ولعائلتي الواقفة أمامي صباح مساء، دون أن أعلم بوجودهم. فعالمي كان عبارة عن عوالم روحانية، تسبح فيها روحي في أسرار ملكوت الله. دخلتُ في الشهر الخامس، فتغيرت أحوالي، وبدأ الأصدقاء يخففون في زيارتهم لي وحتى العائلة، باستثناء زوجي وأولادي من اليتامى والطلاب الذين يعقدون لي ليالي للقيام والدعاء... بدأ الإنهاك يظهر على جسم زوجي الذي فقد ما يقرب ١٣ كيلو في هذه المدّة، وفي الشهر السادس قرّر الأطباء وضع حل لمشكلتي، واستدعوا زوجي لموافقتهم القرار، لأن استمراري في هذه الحالة صعب.. فقد انتفخ جسمي وتحوّل إلى زرقة في اللون، وتغيرت ملامح وجهي وكأنني ميّت تتبدل أحواله في القبر..

تذكرت قصيدة الأستاذ وهي تحدثني عن عوالم مغارة كهف سر الحياة:

مثلكم يا فتيان الكهف،
نأتي الكهوف،
ونسكن المغارات...

عندما الدنيا تجافينا،
والنَّاس بقلامهم يرمونا،
ومن "حراء" -يا رسول الله- أُسوةً ومثالاً نتّخذ...
فكم من إيمان في الكهف ينبت،
وكم من إيمان في المغارات يورّق،
وثماره تنضج..
فقبورنا كهوف إيماننا،
إذا حُمَّ القضاء وحان الأجل...
لهذا قد قدِمنا،
ولازدهار استعدادنا للآخرة أتينا..

- نعم سيدتي أنا أتابع معك لقد شوّقتني لسماع تفاصيل نهاية قصة أهل كهفك...

إرديم هانم:

- في اللحظة -يا مريم- التي كان يقرر فيها مصيري، رأيتُ في كهفي المظلم الذي نمتُ فيه ستّة أشهر كجثّة هامدة من دون تقلّب، صبيان إفريقيان يجريان نحوي ويصرخان بأعلى صوتيهما: "أمي، أمي، أمي، استيقظي يا أمي.. فمن أجْلك جئنا من أدغال أفريقيا، نحن أبناؤك.. انظري إلينا، ألم تتذكرينا؟! هيّا انهضي بكل قوة".. واحد يسحبني من يدي اليسرى، والآخر من يدي اليمنى، والصراخ في أذني "أمي، أمي، انهضي، رجاء لا تتركينا".. أول مرة أحس بأن رعشة خفيفة هزت عضلة قلبي، تدفّقت معها دماء عروقي، ففتحتُ عيني، لكنني لم أستطع تحريك جسدي الهامد.. في دهشة دخلتْ عليّ الممرضة لتهرْول مسرعة نحو

قاعة الأطبّاء وهي تصرخ: "السيدة إرديم عادت للحياة، فتحتْ عينيها". كنت أكاد أرى الجموع من الأطبّاء يقتحمون غرفتي، لكن صوت أيتامي بإفريقيا كان لا يزال يدوي في همس أذني...

أنا -يا مريم- كنت،
كالسائح الْجَوَّال،
قطعت المفاوز، وجبتُ القفار...
ما كَلَّتْ قدماي، ولا تعبتُ ولا مَلَلتُ،
حتى وصلتُ أرض النور...
من حوضه شربتُ،
ماءً سلسبيلاً... لعابر السبيل مبذولاً...
فارتويتُ، والصُّعَدَاءَ تنفستُ...

يا الله، ملكك عظيم، ورحماتك واسعة بعبادك الذين جعلت قلوبهم عارفة بصور لطفك الخفي! كيف استطاعت صاحبة هذا الصوت الخافت، وهذه الربابة المكسورة العاجزة أن تندمج مع النغمات السحرية لتلك الأرواح المشعة نورًا من سالكي الطريق الموصل إليك؟! إلهي نلوذ بحمى لطفك ومسامحتك، وبكرمك الذي وزّعته على جميع خلقك، بقدرتك وحكمتك اللاّنهائية.

مخطئ من يظن أن الفقر هو فقر الجيوب، الفقر هو فقر القلوب... فالجيوب الخاوية قد تمتلئ بالمال ذات يوم، أما القلوب الخاوية فمِن الصعب أن تمتلئ بالمشاعر والأحاسيس... فقلوب بعض أبناء البشر اعتادت الفقر واتّخذته منهج حياة تحيى به وعليه، وتعتبره مصدر قوة وكبرياء، بعدما أوصدت أبوابها أمام العواطف الإنسانية...

فقيرة هي تلك القلوب التي لا تنبض شرايينُها وأوردتها بالحب،
ولا تتفجّر من أعماقها ينابيع العطاء..
ما هي إلا صخور جرداء،
لا تتفجر منها قطرة ماء،
ولا تنبت في زواياها نبتة خضراء..
وإذا ما هطلت عليها أمطار عواطف الآخرين،
سرعان ما تنزلق عنها، لأنها مغلقة من جميع جهاته..
وليس بها منفذٌ يسمح بدخول شيء من المشاعر والأحاسيس إليها، أو الخروج منها..
فقيرة هي تلك القلوب التي تجافي ولا تسامح،
فخلت من الألفة والطمأنينة والمؤانسة،
وما هي إلا حديقة تساقطت أوراق أشجارها،
وذبلت ورودها على أغصانها،
وغادرها شذاها،
فأصبحت خاوية على عروشها...
فالقلوب التي لا تزوّد الآخرين بالحب ولا تتزوّد به،
هي قلوب ميتة وإن كانت تنبض بالحياة...

- هكذا يا مريم هانم، تحرقت أحاسيس شوق الحب والوجد في قلب فتح الله -مَن خطّ لنا منهج الخدمة في بلدي تركيا- أحاسيس استلهمها من شيوخه مولانا جلال الدين الرومي، ومولانا بديع الزمان سعيد النورسي، ليعتصر لنا معاني بعضها بالحبر، وبعضها بالعطر، وبعضها بالقهر قد كتبها، بالدمع قد أغرقها، وبدم شرايينه قد ختمها... سطورها كالورد

قد زرعها، كلماتها بالوجد قد رتّبها، كالنور قد نثرها... لأنه بلغة الحب والإخلاص كتبها.. لأنه أحبّنا.. حملها كأمٍّ.. بآلام المخاض ولدها.. في الحب، في الإخلاص، في العطاء بلا أجر، ولا انتظار للشكر يتجسد الإعجاز.. فالحب روح الحياة، وقمة الإرادة والإنجاز.. لا تسأليني مريم، كم عاش من أجلنا، لا من أجله!.. فليس العمر بالأيام، وليس العطاء بالأرقام... فإن كان الحب ذنبه ليلاقى بالجفاء من بعض أهله، فلتشهد الأقلام أنه عشق الليل في حب الله، متوجا بحب العباد... وما أراد من ملذات عيشه سوى تحقيق وهمٍ يحرر خيبة الظلم والانتقام، وعلقت في أحلامه إرادة تحرير الأوهام بالحب بالعشق بالإخلاص، حتى تتجسد الأوهام، وتتحول حقيقة في "مدارس الفاتح" لتمتد نحو ربوع العالم.. هُناك أبواب نور، شعرنا في بلد الفاتح بأنها مُغلقه... وبإيثار أبدال عمروا زمنهم بالبحث عن سعادتنا... انكشفت خيوط الأمل، وبسر حكمة إحياء نبع المعارف.. أضاءت أنوار المدخَل الحَقيقي للبناء الحضاري، تحت قاعدة سطرت بمداد من ذهب مطلعها.. لا توقظوا أوجاعكم بالهزيمة ليلاً.. غلّفوها بالثقة والإرادة في الدعاء لتشفوا منها، وناموا متوكلين.. فكل شمسٍ يوم جديد، ستحملُ أشعتها أملا جديدا وفتحا مبينا..

نعم إرديم أَبْلاَ، كل شمس يوم جديد ستحمل أشعة نورانية وفيوضات ربانية، لتعانق نقطة التقاء المد والجزر للعشق والمواجد والانبعاث والانجذاب، والأذواق الروحانية التي تحتضن المكان بالزمان، وتفيض بحركات النفحات الرحمانية التي تنفتح بها العقول، وتنشرح بها الأرواح.

هناك من جسر بوسفورك الآوروآسيوي سيدتي إرديم لتمتدّ إلى نهر بورقراق على ضفتي الرباط وسلا، وتنطلق في فجر يوم آخر من ملتقى

المحيط بالبحر الأبيض المتوسط لتمتد غروبا نحو ما وراء المحيط، إلى هناك حيث فوارة الفكر ومنجم العشق والشوق العرفاني المتصل بصفوة الصفوة في حركية الجذب والانجذاب الدائم..

كنت أسأل نفسي في صمت وخشوع عن سر هؤلاء النسوة، ومعدنهن الطيب: "ترى هل كل نساء تركيا بهذه الصفات؟!"..

لقد عايشتُ نساء الخدمة، من مرحلة زيارة التلاميذ في المدارس إلى مرحلة اللقاءات بالأساتذة، والمثقفات، وسيدات الأعمال والعاملات البسيطات، كلهن أبدين رغبة غير عادية في حب الخدمة والتكافل الاجتماعي والعمل بإخلاص لبناء نهضة مجتمعهن... تفاني جد مميز في الخدمة، والمتابعة في تربية أبناء جيلهن، سواء من فلذات أكبادهن أو من أبناء فقراء المجتمع.. أَبْلاَهات الخدمة يحضرن كل مساء لمرافقة أبنائهن من الطلبة والطالبات في الأحياء الجامعية التي يسمّونها "يُورْتْ".. أبلهات يتولين المدارسة والمطالعة وترشيد القيم، وأخريات أصناف ينفقن على المنح ودعم بيوت الطلاب والطالبات، بأرقى أنواع الأثاث والمفروشات.. سكنتُ في بيت الطالبات، وكنت ألاحظ أن نساء الخدمة يرافقن بناتهن الخمسة أو العشرة بالمصاحبة بالمدارسة بشراء الأغراض التي يحتجنها من محلات التسوق.. كنت أرى -وأنا في طريقي- سيدات مجتمع راقيات يدخلن بيوت الطالبات محملات، بأكلات شهية، وبصناديق متنوعة مليئة بالحلويات، بالملابس، بالكتب، والمشتريات الخاصة بمن تكلفن بهن من الطالبات.. لهفة غير عادية على ترتيب برامج المتابعة العلمية والتربوية للطلاب والطالبات، إنْ في المدارس أو في بيوت السكن، استقبال ورعاية للضيوف والأحباء تترك بصماتها الراقية في

نفسية كل من تقرب منهن محبة، حفاوة الترحاب بالاحتضان.. النور يتلألأ مشعّا بإشراقة وجوههن، الابتسامة النقية الصافية لا تفرق محيّاهن.. كم من نساء تجمّلن بوضع زينة الماكياج، لتزهو ابتسامتهن وتنظر في عيون الناس، لكن الوجه المقنع مهما وضع من مساحيق التجميل، لا يمكن أن يلامس خطوط الجذب الروحي العميق لدى الآخرين، لأنه يفتقر للصدق، للنقاء، لصفاء النبع الطبيعي.. فالابتسامة المموهة بالصدق، لا يمكن أبدا أن تصل إلى أعماق الروح، مهما سحرت بجمالها الأنظار.. فكم من ثغر باسم، ينجح ببراعة تمثيل في اقتسام لحظات المتعة الآنية التي تمكّنه من عبور جسر مصالحه، لكن لن تسري أنوار إشراقتها إلى أعماق من بذلوا أرواحهم وزمانهم في هوى المولى، وبأوجاع حبّه تقلبوا...

وفعلا عشت لحظات مع من تبسّموا وأتقنوا خطاب الحب والتقى مع أهل المحبة.. لحظات تقلب فيها هواهم من فرط عطر الود الذي تنسموه، ولكن سرعان ما انجلى نسيم العطر النقي... لأن أرواحهم جبلت على لغة التمثيل والمكر والخداع... لأن عزائمهم شغلتها زينة الدنيا وزخرفها، وشتّان بين من سارت عزائمهم نحو خيام حمى المحبوب، وبين من اختصّوا بالقرب لحظة البحث عن قضاء مصالحهم!..

زمن ابتهاج أعياد النساك

في زمن ابتهاج مناسبات أعياد الميلاد، في أماكن مختلفة وبأزمنة متباعدة... كنت هناك في ما رواء المحيط تطل بروحك الفانية في محبة الله على مواليد من أقصى شمال المغرب.. من إزمير إلى تطوان، إلى موقع رباط المجاهد سيدي طلحة الدريج الأنصاري، رفيق دربك ودرب فرسان التوحيد في توحد القبلة.. لتبارك له مولد حفيدته، ولتبعث في مهد روحها أمل حلم عودة الفرسان قبل أن تفتح أعينها على الدنيا، وتكحل مقلتها برؤية فضاءات المحبة وصفاء العشق الإلهي. فحمدًا لله ربي وخالقي ومولاي وسيد نعمتي على كرم جودك وعطفك ولطفك بي.

يا من هو خلق فسوى، وقدر فهدى..

يا من لحق في كل شيء علمه..

يا سرور العارفين، ويا أنيس المريدين،

ويا من بذكره تزهو النفوس وتسعد...

* * *

الأستاذ فتح الله كولن من الذين قضوا عمرهم في الإخلاص والوفاء والاهتمام بأبناء الأمة الإسلامية.. لدرجة إيثار مشاعره وعواطفه الإنسانية من أجل إحيائنا... تجاوز طاقته الذاتية التي ينتسب إليها، وحول بإصراره، بصبره، بأناته، ببعد استشراف رؤاه، فضاءاته إلى مركز محوري لطاقة قوة

الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلية.. أن يكون كل جهد وهمة، كل قطرة دمعة بعد الآن، شفاء لجروحنا التي بدت مستعصية على الدواء، وضياء للمستقبل الذي يبدو مظلما في عيون البعض من أبناء جيلنا...

تلك هي الحكم والدرر التي ولدت نسيجا مباركا بألوان الغد السعيد، وغزلته بمغازل صوف أفكار الخير والمحبة، ونقشته بنقوش المعرفة. الأبدال في زمن السفر في الأفكار يلقحون النفوس بأمصال الوقاية المستخلصة من مختبرات أرواح الأبطال المتقدة بحماس القلوب والمتجددة بتجدد الزمان والمكان...

من كان يظن أن تغير سلوك منهج التربية والفناء في الخدمة، لتعبر جغرافية الحدود وتتحول بروح متجددة، إلى حال السيولة الإنسانية في البيت والمدرسة والمجتمع والمؤسسات؟!. من كان يتوقع أن تحرر العقول الضيّقة، من قيد تقلبات النزاعات وتلاطمات عواصف الثورات والانقلابات، إلى أمواج صاعدة بالأفكار التنويرية من القاع، أمواج نسجت بتناغم مدّها وجزرها مستلزمات الروح الذاتية، لتلقي بعيدا جفاء زبد الأفكار المتعصبة المتناحرة، وترمي بها بعيدا عن حرمات بحار أمّتها؟!.

فهنيئا لأرض الأناضول بأبنائها الأبرار الذين جابوا حدائق وبساتين أزهار ربيع الفكر والمعرفة وجمال الروح، ووصلوا عند أهل المغرب اليوم وهم يحملون عطر نسائم الخير والفتح والمحبة.. يحملون مشعل هدي نور حضاري أينما حلّوا وارتحلوا... فكم من الضيوف حضروا إلى فاس، وكم من أهل العلم التقوا وتعارفوا.. ولكن مثل أبناء همم الروح والجسد خلقا ورقيا وآدابا وصفاء، سريرة ومحبة، لم نلقى كثيرا..

لأخبركم بأن من سهر على تربيتهم باني مجد الروح ورقيها في

مراتب سموّ النساك، هو من سقاهم ورعاهم إلى أن ارتوت أرواحهم بحب ووصال المحبوب.. فأحجموا عن فكّ الاتصال الإلهي بالانفصال الفاني؛ وأبت عيونهم المرتوية بدمع شوق الوصال، أن تفتن بغير جمال تجليات النور الإلهي؛ وتشبّعت قلوبهم العامرة بالإيمان بحب الخالق لا بعشق المخلوق؛ تربّت جنوبهم التي تتجافى عن المضاجع على عطاء الخدمة والسعي والبذل والإيثار، فترفعت عن قداسة الذات وغواية النفس إلى عشق لغة الوصال بالمحبوب الأبدي، بعيدا عن لغة الشهوة وقيد الافتتان بهوى النفس والجسد... ومن أجل ذلك تعانقت أرواحهم والتقت على محبّة الله ورسوله الكريم ﷺ، فتسامت أفكارهم وارتقت نحو مدارج السالكين في نسج رؤى المفكّر "فتح الله" المتبحرة في علم الإنسان والكون والملكوت، بعمق منهجه الفكري الاستشرافي، ننسى عقلية التصنيف النوعي ذكورا نحن أم إناثا...

من هناك، من أَدِرْنَة تحرّكت أنفاس متحرقة بشوق حسن رعاية خلايا النحل التي تئز في بساتين خيرات الأناضول العامرة بحب الله.. فأنتجت عسل همم التولي، وجنت أولويات سر المتابعة شهدا في عهدة المؤمنين والمؤمنات النساء أَبْلاَهات التولي، والرجال أبِيهات التولي....

تم بتوفيق الله في تطوان المغرب الأقصى

الأربعاء ٢٦ رمضان ١٤٣٣هـ

١٥ أوغسطس ٢٠١٢

مريم آيت أحمد

كتب الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية

١. ونحن نقيم صرح الروح
٢. ونحن نبني حضارتنا
٣. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-١
٤. ترانيم روح وأشجان قلب
٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
٦. القدر في ضوء الكتاب والسنة
٧. الموازين أو أضواء على الطريق
٨. حقيقة الخلق ونظرية التطور
٩. أسئلة العصر المحيّرة
١٠. أضواء قرآنية في سماء الوجدان
١١. طرق الإرشاد في الفكر والحياة
١٢. ألوان وظلال في مرايا الوجدان
١٣. النور الخالد: محمد... مفخرة الإنسانية
١٤. القلوب الضارعة / إشراف: محمد فتح الله كولن

كتب ودراسات حول فكر الأستاذ فتح الله كولن

١. عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د. فريد الأنصاري.
٢. البردايم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة، د.محمد باباعمي.
٣. أرباب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.
٤. ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، د. محمد باباعمي.
٥. الزمن والوقت.. النصوص والمفاهيم المؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.
٦. الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.
٧. هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.
٨. عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، أ.د. فؤاد البنّا.
٩. الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدبّاغ.
١٠. نداء الروح.. رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت.
١١. فتح الله كولن.. رائد النهضة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس.
١٢. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مؤتمر.
١٣. محاورات حضارية، حوارات نصّية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، أ.د. جيل كارول.
١٤. فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه.
١٥. فتح الله كولن.. قصة حياة ومسيرة فكر / أرطغرول حِكمة.

نداء الروح

رحلة في عالم الفرسان

د. مريم آيت أحمد

هذه السطور أقدمها بين يدي القراء.. وهي خواطر، عشت تفاصيلها من وحي رحلة إسطنبولية نورانية مع أهل الخدمات الإيمانية.. خواطر انتقلت بروحي من أرض تطوان لتلتف بمعاني "السفر في الإنسان" قبل "السفر في الزمان والمكان"، الإنسان الذي يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره، ويعرف كيف يروّض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة. يسبق عصره، فيسير أمام التاريخ قدُما على الدوام بهمّة تتجاوز حدود إرادته، وشوق عارم وحب عميق واعتماد بالله عظيم.. خواطر سافرت بي في عمق الإنسان الذي يغوص كل يوم داخل أعماق أعماق ذاته، ويطلق شراعه على الفضاء الشاسع دوما فينصب رايته على أبراج جديدة كل حين.. يصرّ بعزم طرق الأبواب المكنونة وفتحها في الآفاق والأنفُس، وكلما بلغ بفضل إيمانه وعرفانه إلى أسرارِ الكون ازداد شوقا ورغبة، وظل يتنقل بخِبائه من بلد إلى بلد، ليستنشق نسيم أعياد محبة الإنسان.

ISBN: 978-975-315-535-9
9 789753 155359
www.daralnile.com
Öze Çağrı

دار النيل